مؤلفات يوسف السباعي



نفحة من الإيمان

صور طبق الأصل



الاهـداء

الى أخى العزيز « احسان عبد القدوس »

اهدى كتابى هذا

أهديه اليه بصفته « أولا » .. « أخا عزيزا » .. رغم أن له من المزايا العامة فى نفوس القراء والجماهير ما يفوق كثيرا هذه الميزة الخاصة فى نفسى . فهو كاتب سليم التفكير ، صريح الأسلوب ، جذاب التعبير ، شجاع ، صريح غير معوج ولا ملتو .

ومع ذلك .. ورغم أن هذه الصفات لا تتوفر فى كثير من كتاب هذا الزمن رغم أنها قد جعلت منه فى فترة وجيزة كاتبا من أبرز الكتاب السياسيين ، رغم كل هذا فأنا أتجاهلها فى اهدائى .. وأهدى كتابى اليه لمجرد أنه أخ عزيز .

قد يكون فى هذا نوع من ايثار النفس والأنانية وقد يكون نوع من الغرور أن أميز أخ عزيز ليوسف السباعى أكثر من أن أميزه بأنه كاتب شهير معروف .

ولكنى حر فى اهدائى .. وفى اعتبارى لميزة المهدى اليه . ولى فى ذلك عذر قد يقبله صاحب الاهداء والقراء وقد لا يقبلونه ولكنه ليس عليهم

سوى الرضوخ له رضوا أم لم يرضوا .

هذا العذر هو أن صفة « الأخ العزيز » فى حد ذاتها صفة مميزة لأن الانسان لا يكون لى أخا عزيزا حقا الا اذا توفرت فيه شروط ومميزات ، تجعل من مرتبة « الأخ العزيز » مرتبة تفوق كثيرا غيرها من المراتب . هذه الشروط والمميزات ، هى أن يكون الانسان ذكيا ، وفيا ، مرحا ، لطيفا ، غير مغرور ولا متكلف .

فاذا أنا أهديت الكتاب الى احسان لأنه « أخ عزيز » فأنا أعنى بذلك أنه قد توفرت فيه تلك الشروط والمميزات .

أنى لأذكر منذ بضع سنوات أنى أهديت كتابى « اثنى عشر رجلا » الى توفيق الحكيم وعندما قرأ احسان الاهداء ثار عليه وعلى وقال ان توفيق الحكيم وطبقته من الكتاب لا يستحقون أى اهداء لأنهم أنانيون مغرورون لم يحاولوا أن يمدوا أيديهم لمعاونة الجيل الذى يليهم من الكتاب وسألنى هل حاول توفيق الحكيم أن يكتب عنى مرة لينقدنى أو ليقدمنى الى قرائه .

وقلت له يومئذ أن الكاتب المجيد سيبرز بلا معاونة أحد وانى أهدى كتابى الى أحب الناس الى لا الى اكثرهم نفعا لى .

ولا أظننى نقضت رأيى فى اهداء أى كتاب من كتبى ، فانى قد أهديت كتبى الى نفسى والى أبى وأمى وأولادى وأم أولادى واخوتى وعمى والى أحب الأصدقاء الى ..

فاذا أهديت كتابى الآن الى احسان ، فلسبب واحد هو أنه أضحى حبيبا الى نفسى .

يوسف السباعى

لا تسألوا

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن
أشياء ان تبدلكم تسؤكم ﴾
« قرآن كريم »

الساعة السابعة صباحا وشارع « الخيامة » ما زال يتثاءب وينفض عن عينيه آثار النعاس .. والحركة تدب فيه بطيئة واهنة ، والعمال من سكان الحى يحثون الخطأ وقد وضعوا لفافات الخبز تحت آباطهم ودسوا أيديهم فى جيوبهم ولفوا رؤوسهم وأصداغم بالتلافيح الصوفية اتقاء صقيع الصباح . والدكاكين ما زالت مغلقة الا دكان « أبو الفضل » بائع الفول والطعمية فقد فتح على مصراعيه وفاحت من داخله رائحة الطعمية تفتح الشهية وتهيج الخياشيم .

ومن احدى الحارات المتقاطعة بدأ الحاج « درويش » بعباءته وطاقيته وجلبابه الأبيض وخطواته المتئدة المتثاقلة وقد أخذ يجرى حبات المسبحة بين أصابعه ويحرك شفتيه بتمتمة خافتة .

ووصل الحاج الى حانوته المواجه لحانوت « أبو الفضل » وألقى بتحية الصباح على جاره ثم اخذ يفتح باب الحانوت وقد اتجه ببصره الى السماء وأخذ يهتف بصوت خافت « يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم » .

كان الوقت ما زال مبكرا عن الموعد الذى تعود الرجل فيه أن يفتح حانوته . ولذا فقد أثار الأمر دهشة المعلم « أبو الفضل » الذى مد عنقه من وراء قدور الفول وصاح بالحاج :

– خير ان شاء الله .. ان الوقت ما زال مبكرا .

– ان شاء الله خيرا .. ربنا لا يعطى الا الخير .. لقد استيقظت مبكرا ففضلت الحضور الى الدكان .

وبدأ الحاج يتشاغل بنقل الغرارات ورصها خارج الدكان ثم أخذ يقوم بأعمال النظافة اليومية التى تعود أن يقوم بها كل صباح .. وهو يبدو على أتم حال من الهدوء والسكينة .. ومع ذلك فقد كان صدره يصطخب بالمشاعر ، وكانت نفسه تحترق قلقا واضطرابا .

كان الحاج رجلا مؤمنا تقيا .. وكانت بوجهه اشراقة ايمان ووسامة طيبة ووداعة .. ولم تكن رزانته وتثاقل مشيته عن كبر فى السن .. فقد كانت تلك هى طبيعته منذ الصغر . كان دائما نموذجا للتقوى والورع .. حتى لقد أطلق عليه لقب الحاج وهو ما زال صبيا يقيم الصلاة وأترابه مغرقون فى اللهو واللعب .

وكانت حياته مثلا للتضحية وانكار الذات .. فقد مات أبوه وخلفه صبيا دون أن يورثه سوى أسرة عاجزة من أم وثلاث بنات ، ليس لهن من يعولهن سواه . واضطر الحاج درويش أن يترك المدرسة ويتولى حانوت البقالة الذى كان يملكه أبوه .. والذى كان على شفا الافلاس .. فاستطاع بصبره وجلده أن ينقذ الحانوت . وأن يعول أمه وأخوته .. ووقف حياته على تربيتهن ومنحه الله من لدنه الستر والتوفيق فتزوجن زيجات مرضية ضمنت لهن حياة مستقرة هانئة .. من الله على أمه بميتة هادئه ناعمة بعد أن أطمأنت على مصير بناتها .

ووجد الحاج درويش نفسه وحيدا بعد موت أمه .. وقد أنفق زهرة شبابه فى تربية أخواته وهيأ لكل منهن حياة راضية .. أما هو فقد أدبر عمره أو كاد دون أن يجد من حوله زوجا ولا بنين .

لقد كان يرفض الزواج خشية أن يشغل عن أمه وأخواته بزوجه وأولاده .. ومرت به الأيام ومرضاتهن هى جل بغيته وسعادتهن هى هدفه فى الحياه حتى تفرقن من حوله .. وذهبت كل منهن الى غايتها . وبقى هو وحده تتساقط من حوله أوراق الخريف .. وتتسلل الى شعره خيوط الشتاء البيضاء وتتسرب الحياة من بين أصابعه .

وأخيرا قرر أن يتزوج فيتمم نصف دينه ، ويحقق لأمه أمنيتها التى طالما تاقت اليها ، ويقضى لنفسه حقها فى الحياة .

ورزقه الله « ببنت الحلال » .. فتاة من عائلة كريمة طيبة . كانت له نموذجا للزوجة الطيبة الراضية القانعة فحق بها عليه قول الله تعالى ﴿ أنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ .

وسارت به الحياة ناعمة هانئة ، ونفسه قريرة راضية ، لا يبغى مزيدا من هناء ولا مزيدا من نعيم ولا يكاد يقلقه فى حياته سوى أمر واحد كان يرى أن الزمن كفيل بتحقيقه .

لقد مرت به الأيام . دون أن تظهر على أمرأته علامات حمل ولم يكن الرجل بالعجول الطامع أو الفـ.. المتلهف ، ولكنه رغم ذلك كان لا يستطيع أن يقاوم تلك الرغبة الملحة فى البنين ولا الشوق الجارف اليهم .

ولم يجد سوى الله ملجأ ، فأخذ يدعوه دعاء المؤمن الواثق ، ان الله لا يخيب له أملا ، ولا يرفض له دعاء وهو لا يطلب الشىء الكثير ، انه يطلب حقا له من رب كريم رحيم .

ومرت السنون دون أن تحمل امرأته . ولكنه لم يضق بها ولم يحزن ولم ييأس ، لقد كان ايمانه بالله عظيما وظل يواصل دعاءه ورجاءه حتى حقق الله أمنيته .

كان ذلك فى يوم أغر ميمون .. عندما أنبأته أمرأته ذات صباح أنها تشعر بعلائم حمل .. ولم يستطع .. وهو الرزين الوقور أن يكتم فرحته فاندفع يضمها بين ذراعيه .. وعيناه مغروقتان بالدموع وهو يهتف بنبرات مرتجفة « الحمد لله .. الحمد لله » .

وهو يذكر أنه قد أصابه القلق بعد خشية أن تكون العلامات خادعة .. وان تكون امرأته واهمة فظلت نفسه تتأرجح بين الأمل واليأس والثقة والقلق حتى أكدت له الأيام أن الأمر حقيقة لا غبار عليها .

وبات بعد ذلك مطمئن النفس قرير العين .. يرتقب المولود بنفس لهفة .. وقلب مشتاق .. حتى قرب الموعد .. وبات الوضع قاب قوسين أو أدنى .

وفى الليلة السابقة لم يغمض له جفن فقد جاء لامرأته المخاض ، وحلت الساعة المرجوة .. وبدأت آلام الوضع تلح عليها .. فتنطلق منها الصيحة تلو الصيحة .

ولقد كانت ثقته فى نفسه وفى جلده وصبره لا حد لها .. ولكنه فى الليلة الماضية كان أشبه بريشة تلعب بها الريح .. لا يكاد من قلقه يستقر على موضع .

انه لم يرقد .. ولم يجلس .. لقد كان أشبه ببندول الساعة .. دائم القلق دائم التأرجح .

ومرت به الليلة طويله مرهقة .. وقد وقف ينصت خارج الحجرة ممسكا

قلبه بيديه .. منتظرا بعد كل صيحة بشرى . ولكن الصيحة تخفت ويعقبها سكون ثقيل وصمت جاثم .

وتسلل ضوء الفجر من النافذة وهو جالس فى مقعده مسندا رأسه بين كفيه مغرقا فى التفكير .. وخرجت « القابلة » من الحجرة تنبئه أن امرأته قد استغرقت فى النوم وأنه لا ينتظر ولادة عاجلة وسألته أخته أن يذهب الى الفراش ليستريح برهة .

ولقد حاول فعلا أن يرقد فى فراشه ولكن كان لا يكاد يغمض جفنه حتى يهب فزعا على صيحة موهومة .. وأخيرا ترك الفراش وارتدى ثيابه ، وصمم على أن يذهب الى الحانوت عله يتشاغل هناك بما يخلصه من ذلك الانتظار الثقيل والقلق الممض .

بمثل هذه النفس القلقة المضطربة كان الحاج « درويش » يتحرك فى حانوته يعبىء لهذا زيتونا بقرش ويزن لآخر أقة من الأرز . وهو مستمر فى تمتمته وتسبيحه . وبين آونة وأخرى يرفع رأسه الى أعلى ويدعو بحرارة وايمان « يا رب .. رحمتك يا رب » .

وكان الحاج « درويش » يرجو فى قرارة نفسه – أن تضع امرأته ولدا .. ولكنه لم يكن يجسر على أن يفصح عن رغبته فى دعائه . فقد كان يرى فى هذا طمعا منه .. ولا يفتأ يكرر بين آونة وأخرى انما يجيب على رغبته الخفية – كل ما يأتى به الله نعمة وبركة .

وبينما هو منهمك فى لف قطعة جبن لأحد الزبائن .. وصل الى مسمعه صوت عندليب .. فمس الصوت من نفسه موضعا حساسا .. وبدا البشر على وجهه وسرت الى نفسه موجة رجاء وتفاؤل . انه ما سمع صوت العندليب الا وأصابه خير .

ومد الشارى يده بثمن الجبن فرفض أن يأخذه وقال له ضاحكا :

- خذها حلاوة بشرى أتوقع سماعها .

وفى تلك اللحظة لمح من بعيد خادمته الصغيرة زينب وقد أقبلت تعدو من الحارة .. ولم ينتظر حتى تصل اليه الخادم ، وما حاجته الى الانتظار وهو يعلم ما أتت من أجله ؟ وأسرع يحمل الغرارات الى داخل الحانوت .. وفى غمضة عين كان قد أغلق الحانوت وانطلق يهرول تجاه الدار والفتاة فى أعقابه .

ووصل الى البيت وهو يلهث وقد فصد جبينه عرقا .. وقطع السلم أربعا بعد أربع .. ودفع باب الشقة فاذا به يصطدم بصرخة حادة :

ويحه .. أما زال الوضع مستمرا ؟
أذن فيم كان حضور الخادم اليه ؟
أم ترى أن الصراخ قد يعقب الولادة . كما يسبقها ؟
من يدرى .. انه لم يحضر من قبل حالات الولادة .

ولكن الصرخة تلتها صرخات .. أجل صرخات متوالية من حناجر متعددة .. تماما كتلك الأصوات التى يسمعها فى مأتم .

واندفع كالمجنون الى الداخل .. فاذا بجمع من النسوة يحطن بامرأته وقد استلقت مسجاه على فراشها جثة هامدة ومن حولها الملاءات البيضاء وقد غلبتها حمرة دماء قانية .

وأمسكت به أخته تقوده الى خارج الحجرة وتطلب منه الصبر والصمود وتنبئه بأن الطفل قد نزل مقلوبا وأن الولادة تعذرت حتى راح ضحيتها الأم والابن .

أجل .. الابن .. فقد كان المولود .. ولدا !
هكذا ؟

أبمثل هذه السخرية والشماتة يعامل الله أمثاله من المؤمنين والاتقياء ؟
أبمثل هذا الجزاء يجزى الله عبيده الطيبين الأبرار ؟

ولم يبك الرجل .. بل انطلق يقهقه فى سخرية . ان الصدمة كانت أقسى من أن يتحملها فانهارت مقاومته وتحطمت أعصابه وتبدد ايمانه .

ووقف فى حجرته وحيدا .. وقد أمسك بالمسبحة يقطعها وينثر حباتها .. ضاحكا مقهقها .

هكذا ؟
أهذه هى بشرى العندليب ؟
لقد خدعه الله .. خدعة مقصودة مدبرة .. محكمة التدبير .

أبعد كل هذا الايمان والتقى .. والاحسان .. والحياة النقية التى لم تشبها شائبة وزر ولا عكر صفاءها ذرة شر ..جزى جزاء سنمار ..
انها والله منتهى الشماتة .

وهكذا ظلت قهقهته تختلط باصوات الصراخ .. حتى أحس بفرط التعب والاجهاد وشعر بقواه تنهار ، فتهاوى على أحد المقاعد وأخفى رأسه بكفيه واندفع فى نوبة من البكاء ...

وفعل البكاء فعله .. وهدأت أعصاب الرجل .. وتمالك نفسه وخرج من حجرته .. يباشر عمله نحو تشييع الجنازة واستقبال المعزين .

واستمر طيلة يومه يتحرك حركة آلية .. وهو يتجلد ويقاوم حتى انتهى اليوم .. وآب الى داره بعد انفضاض المعزين .

وخلا الحاج « درويش » الى نفسه فى حجرته .. كما تعود أن يخلو بها فى صلواته الطويلة .. ولكنه لم يطق أن يجلس على سجادة الصلاة فقد كان يحس نفورا منها .. كانت نفسه مكلومة من ربه ومن خالقه .. لقد تبدد ايمانه ..

وانطلقت روحه هائمة شاردة . كافرة بكل شيء .. وكان من العبث أن يعيدها مرة ثانية الى قيود العبادة الأولى ..

وعلام العبادة والتقى والورع ؟

ومن يعبد ؟

لو أنه استطاع أن يرى فيما أصابه حكمة .. أو مبررا .

وتمدد الحاج على فراشه مقروح الجفن مسهد العينين وقد أمعنت روحه فى الهيمان والشرود .. وأخذ يقلب رأسه على الوسادة متململا ويرنو بعينيه من خلال زجاج النافذة وقد بدت النجوم تتلألأ فى ظلمة السماء .. ثم أخذ يتمتم قائلا :

ـ أنت موجود يا الهى .. أنت ترى وتسمع .. لم فعلت بى هذا وأنا ما عصيتك مرة واحدة ؟ .. لم فعلت هذا .. لم .. لم .. ؟ لقد خدعت منك أربعين عاما .. قضيتها فى عبادتك والتسبيح بحمدك .. ماذا كنت فاعلا بى لو أنى زنيت وارتكبت الفاحشة وشربت الخمر ؟ .. لم تركتنى أطمئن الى عدالتك وحكمتك .. ثم خذلتنى فى النهاية هذا الخذلان الشديد ؟ .

وعاد رأسه يتململ وعينه تدمع .. ثم اندفع مرة ثانية فى نوبة من البكاء .. نهض على أثرها من الفراش ووضع عباءته على جسده ودس قدميه فى الحذاء ثم غادر البيت متسللا فى سكون .

وخرج الرجل يهيم على وجهه فرارا من نفسه ومن تفكيره . وأمعن فى السير بين الطرقات المظلمة الضيقة ، حتى وجد نفسه أمام باب المسجد .

وتردد برهة .

أيدخل أم لا يدخل .. ان بوده أن يهتدى .. وأن يعيد روحه الضالة الهائمة الى رشادها وايمانها .. ولكنه لا يستطيع .

أيحق له أن يدخل بيت الله .. ونفسه كافرة بالله ؟

وماذا فى ذلك .. ألم تجعل بيوت الله للهداية ؟

ومد يده الى قدميه فخلع نعليه ثم تقدم الى المسجد متثاقل الخطا مكروب النفس .. وتحرك حتى وصل قرب القبلة ووقف قبالتها .

ورفع يديه الى أذنيه مكبرا .. هاما بالصلاة .. ولكنه لم يستطع .

لقد كان ذهنه شاردا .. وروحه عاصية ..

وخر الى الارض راكعاً فى يأس ، ورفع رأسه الى اعلى وأخذ يتساءل فى عناد واصرار ... لو أعلم السبب .. ما حكمتك يارب .. كيف تأخذها هكذا على غرة .. وهى القوية السليمة التى لم تمرض قط .

وفجأة وصل الى سمعه صوت تمتمة . وتلفت الى ناحية الصوت فلمح فى ركن قصى من أركان المسجد فقيها متربعا على الأرض وقد أخذ يهز رأسه كأنما هو منهمك فى القراءة ، ثم علا صوته . يتلو ﴿ قل أن الأمر لله .. قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ .

وأحس الرجل برجفة تسرى فى بدنه .. وأخذ يهز رأسه فى عناد ويتمتم قائلا .. كتب عليهم القتل ؟ ولم تكتب عليها القتل . ما حكمتك أريد أن أعلم .. لم .. لم ؟

وصمت الفقيه برهة .. ثم عاد يتلو قوله تعالى :

﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ﴾ .

وهتف الرجل ساخرا .. علمه ! .. أى علم هذا ... لا أفقه منه شيئا ؟ ليعلمنى .. اذا شاء الآن ؟ متى يشاء ؟ ان لم يشأ الآن ؟

مرة أخرى عاد صوت الفقيه يردد :

﴿ لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم ﴾ .

وهز الرجل رأسه فى يأس وأجاب :

– لن يسوئنى شيء اكثر مما فعلت بى لقد بلغ السيل الزبى لقد ضلت

نفسي .. قل عن حكمتكم فيما فعلت بى حتى أعود الى رشدى ، لم أخذت زوجتى وولدى ؟

وصمت الصوت برهة ثم عاد يردد :

﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم ﴾

وصرخ الرجل صائحا بصوت يائس مبحوح

- لا ..لا ..لا أريد أن أسمع .. هذا كذب ..

ووصل الى أذنيه الصوت يردد بقية القول ﴿ فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ﴾ .

واندفع الحاج الى الفقيه هاجما عليه فى جنون وهو يصيح ..

- هذا كذب .. هذا كذب ..

ووصل الى مكان الرجل يعدو فى أنحاء الجامع كالمجنون ، ثم أصابه الكلل فخر على الأرض ، وبعد برهة أفاق الى نفسه ورفع رأسه الى السماء وقال بصوت باك ... الحمد لله . الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

وفى اليوم التالى عاد الرجل الى حانوته ، منكس الرأس محدودب الظهر ، كسير القلب ، لقد استعاد ايمانه بالله ولكنه فقد ايمانه بالبشر ولم يعد له من قول يردده سوى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم ﴾ .

٣٠ قصة

ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه فاوثقوه ومضوا به ودفعوه الى بيلاطس البنطى الوالى .

حينئذ لما رأى يهوذا الذى أسلمه انه قد دين ندم ورد الثلاثين من الفضة الى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلا قد أخطأت اذ سلمت دما بريئا .

فقالوا له ماذا علينا أنت ابصر فطرح الفضة فى الهيكل وانصرف ثم مضى وخنق نفسه .

انجيل متى

وقفت أتأمل الصورتين وأنا مشدوه مأخوذ . وقلت لصاحبى الفنان انهما أعجوبة .. انهما معجزة ..

كانت الصورتان للعذراء ويهوذا ..

وعجبت فى نفسى كيف استطاع صاحبى أن يبرز تلك المعانى فيجعلها شيئا ناطقا حيا .. ونظرت الى العذراء فوجدت الصورة تنطلق بمزيج من الكبرياء المتواضعة والايمان العميق .. وخيل الى أننى لست أمام صورة . بل أمام العذراء نفسها .

ونظرت الى يهوذا .. فراعنى منه ظلال داكنة عميقة يتجسد فيها الطمع والبخل وراعنى من عينيه احساس بوزر أنقض ظهره وبارقة يشع منها ندم عميق ولهفة الى التوبة والاعتراف بالجرم .. والى ازالة تلك الحثالة التى رسبت فى قرارة النفس .. ومحو ذلك الصدأ الذى شمل الروح فى حلكة معتمة .

وشددت على يد صاحبى مهنئا وطاف بذهنى كيف حاولت أن أسخر منه عندما أنبأنى أنه سيتقدم الى المعرض بصورتى العذراء ويهوذا وكيف حاولت أن أنهيه عن عزمه ولا سيما عندما أعياه البحث عن نموذج ليهوذا .

وتذكرت وقتذاك أن أول صورة عرضها منذ عشرات السنين كانت تمثل المسيح وهو صبى .. وقد نالت الجائزة الأولى .. وكانت هى السبب فى شهرته وذيوع صيته .

وغادرنا المعرض وسألت صاحبى كيف عثر على نموذج ليهوذا ورأيته يطرق برأسه وقد شرد منه الذهن . ثم أنبأنى أن لذلك قصة عجيبة وحاولت أن أعرفها منه فلاذ بالصمت .

وافترقنا بعد ذلك ومرت الأيام والشهور . وكدت أنسى ما كان من أمر صاحبى حتى حمل الى البريد الرسالة التالية :

عزيزى :

يخيل الى أنى أستطيع الآن أن أرضى لهفتك على معرفة شىء طالما

تقت الى استجلائه وأن أشبع رغبتك فى سماع قصة طال شوقك الى سماعها .

لست أظنك الا ذاكرا كيف حاولت أن تنتزع منى سر صورتى الأخيرتين اللتين تمثلان العذراء ويهوذا ..

وكيف ألححت على بعد أن خرجنا من المعرض الأخير الذى عرضتهما فيه وفازتا بالجائزة الأولى ، فى أن أفضى اليك بقصة النموذجين اللذين نقلت عنهما الصورتين ..

فلقد كنت تعلم منى أن لهما قصة .. وقصة عجيبة .

لقد تهربت منك وقتذاك .. ولم أستطع أن أرضى فضولك .. اذ لم أكن فى حل من الحديث .. ولست أشك فى أن تهربى منك وقتذاك قد ساءك .. فأنا أعلم أنك مصاب بحب الاستطلاع .. فهل تسمح لى الآن أن أكفر عن اساءتى وأقص عليك القصة بعد أن أضحيت فى حل من الحديث .. وبعد أن أضحيت واثقا من أن حديثى لن يضير أحدا .

هل تذكر عندما أخبرتك أننى سأدخل مسابقة المعرض بصورتين هما صورتا العذراء ويهوذا .

وكيف سخرت منى وقتذاك ونصحتنى أن أدع تلك الصور الدينية ..

فقد سبقنى اليها أساطين الرسم وأنى مهما فعلت فلن آتى بما لم يستطعه الأوائل . وقلت أنه خير لى أن أتقدم بشىء حديث مبتكر .

ولكنى ضربت بنصائحك عرض الحائط وأصررت على رأيى وبدأت البحث عن نموذجين أنقل عنهما ولم يكن من العسير على أن أجد نموذجا للعذراء ولو أنه لم يرضنى ارضاء تاما .

ولكن المشكلة الكبرى كانت فى الحصول على نموذج ليهوذا . ولم تكن

الصعوبة كائنة فى أن أجد النموذج الصالح .. بل كانت المسألة أعوص من ذلك .. فأنت تعلم انى قد تعودت دائما أن أفهم الأشخاص الذين أتخذهم نماذجا ، أية صورة أنوى أن أرسمها لهم وأية تعابير يهمنى أن أوضحها منهم .. وأى نوع من أنواع النماذج أريد أن أجعلهم ..

فالمرأة التى اتخذها نموذجا لعاهرة أفهمها جيدا أننى سأرسم عنها عاهرة .. وانى سأوضح فيها تعابير العهر والفجور .

ولقد كان هذا هو ما جعل الحصول على نموذج ليهوذا أمرا عسيرا .. فما من انسان - بالغا ما بلغ من السوء والحطة والدناءة - قد رضى أن يكون أنموذجا ليهوذا بعد أن شرحت له من يكون يهوذا ..

ولا شك أنك تذكر دهشتك وقتذاك عندما أنبأتك بهذا .. وتذكر سؤالك اياى :

- ماذا يمنعهم من أن يكونوا نموذجا ليهوذا أو لغيره ... ماداموا سيأخذون أجرهم فى النهاية .

وتذكر اجابتى لك :

- هذا هو ما فعله يهوذا أيضا .. لقد أخذ أجره فى النهاية .. ولكنى مع ذلك لم أجد حتى من حثالة البشر من رضى أن يكونه .

ومرت الأيام وأنا لا أجد النموذج وكلما ازداد اقتراب الموعد المحدد لاقامة العرض ازداد بى الضيق واشتدت حيرتى .. حتى أتت بى الصدفة العجيبة فى طريق النموذج المطلوب .. أو على الأصح ألقت به فى طريقى .

رأيته أول مرة مع سواه من المسجونين وقد حشدُوا فى احدى اللوريات فى طريقهم الى السجن .

وكانت اللحظات الخاطفة التى لمحته فيها .. والتى التقى فيها بصره

ببصرى كافية لأن أجزم بأنه ضالتى المنشودة .

لم يصعب على العثور عليه بعد ذلك واستطعت بواسطة أولى الأمر أن أحصل على اذن للقائه .. وأن يسهلوا لى مهمة اتخاذه نموذجا أنقل عنه صورتى .

•

وذهبت اليه فى حجرته الرطبة المظلمة .. بعد أن قررت أن أنتقل أنا اليه .. فقد تخيلت أن جو الحجرة الموحش الكئيب الذي تفوح منه عفونه الجريمة سيكون أكثر الأجواء ملاءمة للصورة .. وأن غياهب السجن التى يثقلها ضباب الذنوب ستكون خير عون لى على الاجادة والاتقان .

ودفع الحارس الباب فسمعت له صريرا موحشا ونفذت الى الحجرة الضيقة واستطعت أن أميز الرجل على ضوء تلك الخيوط التى تسللت من النافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية .

وأخذت أتأمل وجهه الضامر وعينيه ..
والتقى بصرنا فأصابتنى اذ ذاك رجفة .

لقد أدهشنى من الرجل .. أكثر من أى شىء آخر .. بارقة تشع من عينيه المذنبتين . بارقة تحاول أن تبدد ظلمات الذنوب التى أثقلته .. ورغبة فى التكفير والتوبة والاستغفار والندم .

وأفهمه الحارس ما هو مطلوب منه .. فرفع الرجل رأسه الى فى شىء من الدهشة ولم يحرك ساكنا .. فألقيت عليه التحية فى رفق وأدب .

وتركنا الحارس وأخذت أجاذبه أطراف الحديث متوددا ... حتى أفهمه ما أنوى أن أتخذه نموذجا له .. وتطرق بنا الحديث الى أن أسأله عما قاده الى السجن .. فأفضى الى بقصته فى اقتضاب .

هل تدرى ماذا كانت قصته ؟ أى حظ هذا الذى دفع به الى ؟

لقد قال لى الرجل انه متهم فى قضية قتل ..
وأن المجنى عليه كان أحد تجار الأوانى الفضية .

وأكد لى أنه لم يشترك مع اللصوص فى عملية القتل .. ولكن الذى زج به فى التهمة هو تعدد سوابقه فى سرقة الفضيات .

فلقد كان به تحرق دائم الى الفضة . ولم يكن يتورع فى سبيل الحصول عليها عن أن يسلك أى الطرق ، سواء كانت شريفة أم غير شريفة .

وكان الحصول على الفضة هو العامل الأول الذى يتحكم فى حياته .

تصور ياصاحبى أن هذه هى قصته !
تصور دهشتى وقتذاك وأنا أسمعها منه !

أنا الذى كنت أبحث عن نموذج ليهوذا .. هل أستطيع أن أجد نموذجا خيرا من هذا ؟

رجل مصاب بجنون الفضة .. رجل تحكمت الفضة فيه .. فهوت به الى بئس القرار .

ونظرت اليه برهة .. وبدأت أخبره عما أود أن أتخذه نموذجا له .. وقصصت عليه قصة يهوذا والمسيح .. وكيف باعه بثلاثين من الفضة .. ثم وخزه الندم فرد الفضة لأصحابها وخنق نفسه .

ورأيت الرجل يحملق فى بشدة فاغرا من الدهشة فاه ..
ثم أطرق برأسه وخيل لى أننى أبصر فى عينيه دمعة تترقرق .

وتملكنى العطف عليه والرثاء له .. وكرهتُ أن أكون سبب ايلام الرجل .. وأن أستغل فرصة كونه سجينا فأجبره على أن يفعل ما لا يود فعله .

ووجدت أن خير ما أريح به ضميرى هو أن أترك له الخيار فى أن

يجلس أمامى أو لا يجلس .

وقلت له :

لا أريد أن أكرهك على شىء فلا شك أن لك مطلق الحرية فى أن ترضى أن أتخذ منك النموذج الذى أريده . لقد رفض الكثيرون غيرك من قبل .. فلن ألومك اذا ما رفضت .

ونظر الى الرجل نظرة طويلة ثم هز رأسه بشدة قائلا :

– ابدأ ياسيدى أبدأ .. انى سأجلس أمامك .. انى أرغب فى ذلك ..

هذه فرصة أذل بها نفسى وأهبط الى أسفل القرار .. حتى أستطيع بعد ذلك أن دفع بها الى أعلى القمة .. هذه فرصة أطهر فيها روحي حتى تتخلص من أدرانها وشوائبها .

ثم صمت الرجل برهة استغرق خلالها فى تفكير عميق حتى قال وكأنه يحدث نفسه :

– ثم هناك أمر آخر .. أمر لاشك قد أتاحته الظروف لى .. اذ يخيل لى أنها قد آذنت بأن تضع خاتمة لهذه اللعنة .

أجل هذه الفرصة التى ألقى عن نفسى فيها ما أثقلها وحطمها .

ولم أفهم ما يعنى الرجل بقوله .. ولم أرد أن أستوضحه خشية أن أثير فى نفسه ذكريات مريرة محزنة .

وأجلسته فى الوضع الذى أريده وفتحت الحقيبة وأخرجت منها بعض الأدوات .. وبدأت أرسم له تخطيطا .

وانهمكت فى الرسم .. وخيل الى أن الرجل متمرن على الجلوس أمام الرسامين فقد كان من خير النماذج التى أجلستها أمامى .. اذ لم ينحرف عن جلسته أو يحرك جسده طوال الساعتين اللتين استغرقتهما فى رسمه .

وكان أهم ما يسترعى اهتمامى فى الرجل عينيه .. فقد ركزت فى رسمهما كل جهدى .. اذ كنت ألمح فيهما وراء ذلك الاحساس بالجرم واليأس الظاهر لمحة عزم وبارقة أمل ، كنت ألمح فى عينيه وراء تلك المذلة والانهيار شيئا لا يعبر عنه أكثر من قوله « حتى أستطيع بعد ذلك أن أدفع بها الى أعلا القمة ، هذه فرصة أطهر فيها روحى حتى تتخلص من أدرانها وشوائبها » .

أجل لقد كان ذلك هو ما أستطيع أن ألمحه وراء أفق نفسه ..

وكان ذلك هو ما حاولت جهدى أن أبرزه - وعندما انتهيت من الرسم .. أحسست أنى قد نجحت وانى استطعت كذلك أن أجسد ذلك الشىء الخفى الذى لمحته فى قرارة نفسه وأيقنت كذلك أنى سأنجح فى نقله من التخطيط الى الصورة .

ووضعت التخطيط جانبا وأمرته بأن يجلس على راحته شاكرا له فضله .. ثم وضعت يدى فى جيبى وأخرجت بضعة ورقات مالية وحاولت أن أعطيها اياه ولكنه أعادها الى قائلا فى شىء من المرارة .

لا ياسيدى استبقها لنفسك .
وأصابتنى دهشة وحيرة وقلت له :

- هذا أجرك فهو مال حلال لك .. لقد تعودت دائما أن أنقد النماذج التى تجلس أمامى فماذا يمنعك من أن تأخذ الأجر .

- لا ياسيدى اعفنى من الأجر .. أرجوك .. انى لا أود أن آخذ أجرا على مافعلت .

وصمت الرجل برهة ثم أردف :
- ولكن هناك أمرا بسيطا أسألك اياه . وبودى لو تفضلت بفعله من أجلى .

وهنا أدركت أن الرجل ينوى أن يطلب منى شيئا يعوض به الأجر ، شيئا لاشك سيعتبره أكثر من الأجر ، وخشيت أن يبالغ فى مطلبه أو يطلب أمرا تحرمه قوانين السجين .

وقلت له فى شىء من التردد :
- لاشك انى فاعل لك ما تريد ما دام فى طاقتى .

- هو فى طاقتك ياسيدى ، أريد منك أن تذهب الى زوجتى ، انها هى التى وهبتنى القوة لأتماسك وأتجلد . وهى التى منحتنى الارادة لأبدأ من جديد .

انها تعيش على مقربة من السجن فلقد استأجرت دار فى القرية المجاورة حتى تكون بجوارى .

- وماذا تريد أن تبلغها .
- لو تفضلت ياسيدى بلقائها وقلت لها كل ما حدث بيننا ، وطلبت منها أن تعطيك الكيس الصغير لكى توصله الى ، فلاشك أنك تكون قد أسديت لى معروفا لن أنساه ، هل تستطيع أن تفعل هذا من أجلى ؟

وترددت برهة فقد خشيت أن يكون فى الكيس شىء يحرم دخوله الى السجن ، وبدا لى أن الرجل قرأ ما جال بخاطرى فقد قال مؤكدا .

- ليس بالكيس شىء يخشى منه . أقسم لك ياسيدى .
واستطعت أن أميز فى صوت الرجل رنة صدق واخلاص فلم أتردد فى أن أقول له :

- سأفعل ما تريد ، سأذهب الى زوجتك وأنبئها بكل ما حدث وأحضر لك منها الكيس .
وشد الرجل على يدى شاكرا وتركته وانصرفت .

غادرت السجن وكان الوقت قبيل الغسق ولم يبق فى الأفق الا بقايا شفق

داكن الحمرة ، وفلول النهار تترنح أمام طلائع الليل المعتمة ، ولم يصعب على أن أعثر على الدار التى وصفها لى الرجل وبعد لحظات كنت أطرق الباب ، وسمعت من الداخل صوتا يجيبنى فى ورقة ، ثم فتح الباب ووجدت نفسى أمام امرأة اتشحت بمئزر أسود ونظرت الى نظرة فاحصة ثم سألتنى :

- نعم ياسيدى .

وحييتها فى رفق ... مساء الخير ياسيدتى .

مساء الخير ، أأستطيع أن أؤدى لك خدمة .

انى قادم من عند زوجك .

وأخذت المرأة من قولى ورددته فى دهشة :

- قادم من عند زوجى ؟ تفضل ياسيدى .

ثم أفسحت لى الطريق وقادتنى الى الداخل .

وجلست على مقعد خشبى وجلست أمامها على احدى الأرائك وساد السكون برهة ثم رأيتها قد قامت وبدأت تتشاغل باشعال المصباح الغازى ، فلقد أخذت الظلمة تشتد ثم عادت الى مقعدها .

وكنت أول من بدأ الحديث فقصصت عليها فى اسهاب ما دفعنى الى لقاء زوجها وما حدث بينى وبينه .

وأخذت أرقبها وهى تستمع الى ، ووجدت فى وجهها نوعا من الجمال العجيب ، نوعا هادئا ساكنا ، يبعث فى نفسك الطمأنينة جمال لا يبهرك منه ضياء ولا بريق ، ولا تؤخذ منه لأول وهلة ، ولكنه يسحرك كلما أطلت النظر اليه ، وتحس منه أمنا وسلاما ، تشعر من النظر اليه براحة كالتى يحسها الانسان عندما يستلقى فى روضة غناء فى يوم صافى الأديم هادىء النسمات .

وانتهيت من الحديث ورفعت الى عينيها الصافيتين وسألتنى فى شىء من اللهفة :

- كيف وجدته ياسيدى ؟ هل يبدو فى تحسن .. أعنى نفسه وروحه .. هل تسيران فى طريق الشفاء .

وأجبتها على الفور :

- بالتأكيد ياسيدتى . انى أستطيع أن أجزم من حديثه ومن مظهره .. انه قد بدأ فعلا فى الصعود الى أعلى . وأن روحه قد أخذت تتخلص من شوائبها وأدرانها وان نفسه قد أخذ يزول عنها الصدأ .

وبدأت المرأة تتحدث بدورها لتقص على قصته قائلة :

ان أمره عجيب - لولا هذا المرض النفسانى الذى به لكان خير الرجال ولكان له شأن آخر غير الذى صار اليه ، انى أذكر كيف التقينا منذ بضع سنوات .. وكيف شدنا الحب بوثاقه .. ووجد كل منا فى صاحبه أقصى ما يريد .

ثم تزوجنا وبدأنا حياة رغدة هانئة .. وكنت أرى المستقبل أمامه زاهرا متفتحا وكان كل ما حولنا يبعث على الرضا ويوحى بالأمل .. حتى بدأت أكتشف ذلك المرض الذى به ، وهو لهفته الى الفضة . وتحرقه الى جمعها ، وحرصه عليها حرص بخيل يتأجج فى جوفه الجشع والطمع .

ولم أكن أجد فى الأمر غضاضة عندما كانت لهفته لا تتعدى جمع كل ما تصل اليه يده من الفضة ومحاولته تخزينها .. ولكننى بدأت أحس قلقا عندما وجدته ذات مرة يغافل بائعا فى أحد الحوانيت فيسرق من كيسه ما وصلت اليه يده من القطع الفضية .

ولم تذق عينى النوم فى تلك الليلة فقد قضيتها باكية مسهدة وانتهى به الأمر الى أن أقسم لى أنها ستكون المرة الأخيرة التى يفعل فيها مثل تلك الفعلة .

وكنت وقتذاك فى حالة لا أحسد عليها ، فقد أضنانى التفكير دون أن

أهتدى الى حل لما أنا فيه .

لتتخيل ياسيدى حال زوجة تحب زوجها . وترى فيه مثلا أعلا ونموذجا بين الرجال ثم تراه ينزلق الى مثل تلك الدنايا التى لا موجب لها ولا سبب .. فنحن بحمد الله فى غير حاجة الى تلك السرقات المخزية التى يرتكبها .. وبدأت أتصور ماذا يكون حالنا لو ضبط مرة متلبسا باحدى تلك الفضائح المشينة .. أية مصيبة وأى ضياع لمستقبله ؟

ولم أشك فى أن ما به مرض نفسانى ، قد يكون مرجعه الى عقدة نفسيه أصابته فى طفولته أو فى صباه ، ولكن كيف السبيل الى علاجه كيف أجرؤ أن أقول للناس أن زوجى مصاب بداء سرقة الفضة ، وأنه قد ارتكب عدة سرقات تافهة حقيرة .

وأخيرا حدث ما كنت أخشاه فقد افتضح أمره وضبط عدة مرات وفقد سمعته ومركزه ، وتدهور حالنا وبذلت جهد الجبابرة لانقاذه مما به ، حتى حدثت أخيرا تلك الكارثة التى قتل فيها تاجر الأوانى الفضية فكانت القاضية علينا .

وبالطبع ياسيدى لم يكن له أى دخل فى عملية القتل .. ولا كان يخطر على باله أنها ستنتهى بمثل ما انتهت عليه .. فهو لا يمكن أن يفكر فى ازهاق روح حشرة ، بلة انسان مثله .

ويخيل الى أن هذه الحادثة رغم فظاعتها ورغم ما حل به من جرائها قد أفادته كل الفائدة .. فقد أصيب منها بصدمة عنيفة .. روعته وهزت مشاعره وأحدثت فى نفسه تحولا مفاجئا وأصابته بنفور من الشىء الذى طالما تلهف عليه .. وشفيت نفسه من الداء الذى أزمن بها .

ألست ترى ذلك ياسيدى .

ألم تر أن نفسه على وشك الشفاء ؟

ورأيت فى سؤالها شبه رجاء واستعطاف فقلت لها فى ثقة :

– بالتأكيد ياسيدتى ، انه سيخرج اليك رجلا آخر . سيخرج اليك نفسا سليمة وروحا طاهرة وتستيطعان أن تبدءا حياة جديدة مرة ثانية ، فالمستقبل مازال زاهرا متفتحا .

وفعل قولى فى نفسها فعل السحر ووجدت تعابير وجهها قد نمت عن شىء جديد وشع من عينيها بريق أصابنى منه رجفة .

وأخذت تحدثنى عن أملها فى المستقبل وعن أحلامها وأمانيها وبهت لحظة ، ثم أقبلت على حقيبتى أفتحها وأخرج منها ورق الرسم وبدأت أرسم لها تخطيطا .

وانهمكت المرأة فى حديثها الملىء بالثقة والايمان . ايمانها بالله وبالمستقبل وبزوجها وبنفسها وانهمكت فى الرسم بلهفة جنونية ، لقد كنت أرغب فى أن أجد ذلك الايمان الذى شع من عينيها وذلك الاخلاص الذى برق فى وجهها والثقة التى ملأت جوانحها .

وأخيرا كفت المرأة عن الحديث وكففت عن الرسم ..

لقد رسمت ما أبغى ..

لقد حصلت على ما كنت أتلهف عليه .

ولا شك أنك تذكر صورتها فلقد رأيتها وأبديت اعجابك بها هل تذكر ؟

لقد كانت صورة العذراء .

وعندما صمتت ، مددت يدى اليها بالصورة التى رسمتها وابتسمت وعلى وجهها احمرار خجل ، وأنبأتنى أن الصورة فيها كثير من التملق ، واننى أطريتها أكثر من اللازم .

وصمتت برهة ثم سألتنى فى حياء :

- هل يمكن أن تريها له ؟
- بالتأكيد ، لا شك أنى فاعل .

ووضعت الصورة فى الحقيبة ثم نهضت من مقعدى مادا يدى لمصافحتها .

وقلت أذكرها بما أتيت من أجله .
- لا تنسى الكيس ياسيدتى الذى يطلبه زوجك .

وهزت المرأة رأسها بالموافقة ثم اختفت بضع لحظات وعادت تحمل كيسا جلديا صغيرا ودفعت به الى قائلة :

- عندما تعطيه له سيشرح لك كل شيء عنه .
لا تسخر منه ياسيدى اذا ما رأيت فيما يقول حديثا صبيانيا .
هل تعدنى ياسيدى ؟

- لا لزوم للوعد فانى ما سخرت من شيء فى هذه الحياة قط .
فقد نجد نحن أنفسنا فى نفس الموضع الذى سخرنا منه ، فليس علينا الا أن ندعو الله ألا يدخلنا تجربة .

- أشكرك ياسيدى .. انه يريد أن يتخلص مما يظنه لعنة حلت به أنه يريد أن يلقى عن نفسه ما أثقلها وأنهكها .

ووجدتنى أسمع للمرة الثانية نفس ما سمعته من الرجل عن التخلص من لعنة وعن شيء أثقل نفسه وأنهكها ولم أجب بشيء فما استطعت أن أفهم بعد .

وغادرت المرأة وسلكت سبيلى مرة ثانية الى السجن ولم أجد مشقة فى الدخول الى الرجل .

ووصل الى أذنى صرير الباب مرة أخرى .. ووجدت الرجل ما زال جالسا حيث تركته .

وعندما أبصرنى وثب من مكانه وتقدم الى بلهفة شديدة وسألنى فى حدة .

- هل أحضرته ياسيدى .
وأشرت برأسى - نعم - ثم مددت يدى اليه بالكيس .

ووضع الرجل الكيس على حافة الفراش ونظر الى مطرقا باستحياء ثم قال بصوت هامس :

- هل لم تذكرنى بعد ياسيدى ؟

هل نظن أن هذه هى المرة الأولى التى أجلس أمامك فيها لترسمنى ؟
ورفعت حاجبى فى دهشة بالغة وهززت رأسى متسائلا عما يعنيه وعاد هو يقول :

هل تذكر صبيا جلس أمامك منذ عشرات السنين لتتخذ منه نموذجا للسيد المسيح ؟

- بالطبع أذكر ، فلقد كانت أول صورة رفعتنى الى أوج الشهرة ولكن ، هل تعرف الصبى ؟

ثم ترددت برهة وبدأت أحملق فيه بشدة وقلت مترددا :
- لا أظنك تعنى أن هذا الصبى هو ...
- أنا ! أجل ياسيدى ، هذا هو ما أعنيه بالضبط ، لقد اتخذت منى فى صباى نموذجا للمسيح ، وجعلت اليوم منى نموذجا ليهوذا .

ثم ضحك ضحكة مريرة أصابتنى برجفة .

وحدثت نفسى فى صوت هامس :

- ولكن هذا غير معقول .

- أجل انه يبدو فعلا غير معقول .

ثم صمت برهة وأردف :

- هل تذكر عندما أعطيتنى أجرى وقتذاك أورقا مالية فسألتك أن تستبدله بفضة .

- لاشك انى أذكر ، وأذكر مبلغ فرحتك بالنقود الفضية لقد كانت فرحة جنونية .

- أجل ياسيدى ، فقبل أن تعطيها لى ببضع ساعات كان أبى قد ضربنى ضربا مبرحا لأنى حاولت أن آخذ من درجه قطعة فضية أشترى بها لعبة كنت أتلهف عليها ، وزادنى الضرب والحرمان لهفة على لهفة .

وكنت أتحرق شوقا الى القطعة الفضية وأحلم اننى قد عثرت على كنز ملىء بالفضة ، وبعد بضع ساعات حققت أنت لى الحلم وهيأت لى ذلك الكنز من الفضة .

ومرت الأيام بعد ذلك ، فاذا بى أحس بجشع دائم الى الفضة ولهفة على الحصول عليها ، وفرحة فى تجميعها وتخزينها ، واشتد بى الأمر ، وتحكم فى نفسى ذلك الشعور ، وتسلط على ارادتى وحياتى وأصبحت أشبه بمدمن المخدرات . وأظلمت حياتى وانتهى بى الأمر الى حيث تجدنى الآن .

وأحسست برعدة فى بدنى وقلت لنفسى فى صوت هامس :

- يا للفتى المسكين ، هل يمكن أن أكون أنا السبب فى كل ما حدث له .

- لا ، لا ، ياسيدى ما ذنبك أنت ، الذنب أولا ذنب ذلك الذى أخذنى بالشدة أول الأمر ، وأذاقنى الحرمان بلا سبب ، ثم ذنب هذه النفس الضعيفة

التى لم تستطع أن تقاوم العلة .

هل يدهشك ياسيدى اذا وجدتنى قد احتفظت بنقودك كما هى ؟

وانى اتخذت منها تعويذة ، أجلب بواسطتها غيرها من الفضة ، انها مازالت معى كما هى ، لم أصرف منها مليما واحدا ، وكم أتمنى لو أردها لك - اذا لم تجد فى هذا ما يسوءك - حتى أرفع عن نفسى اللعنة التى حلت بى .

وأمسك الرجل بالكيس الفضى وفك رباطه وألقى ما فيه فوق الفراش ونظرت الى الرجل فوجدت عينيه تبرقان بطبقة من الدمع وأحسست بأن نفسه غمرها شعور بالراحة والاطمئنان ، والتفكير عن الخطيئة ، ورأيت بارقة الايمان التى كنت ألمحها بعيدة فى أقصى أفاق نفسه قد أشرقت حتى أضاءت نفسه .

وأخذت أجمع النقود الملقاة فى الفراش .

وأعدت الى جيبى ، ما أعطيته للصبى منذ عشرات السنين .

ثلاثين من الفضة .

أعدها يا رب

﴿ وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شىء قديـــــــــــر ﴾ .

« قرآن كريم »

دقت الساعة الثانية عشرة . وأنصتت العجوز الى الدقات تعدها واحدة واحدة ، ثم أرسلت من صدرها زفرة حارة وأغمضت عينيها .

لم تنم العجوز فقد استعصى عليها النوم وأرقها الحزن ، وأخذت تهز رأسها متململة . وانسابت من جفنيها المطبقين دمعتان جرتا على وجهها المغضن واستقرتا على الوسادة .

كان أكثر ما يحزنها هو احساسها بالعجز . فقد كانت تتمنى لو تستطيع أن تفعل شيئا ، أى شىء مهما بلغ من تفاهته يخفف من لوعتها ويهيىء لها بعض السلوان .

لو أنها كانت تستطيع أن تغدو وتروح لتقضى بعض الحوائج أو تناول هذا الدواء أو ذاك . وتضع الكمادات وترفعها . أو لو أنها كانت تستطيع حتى أن تجلس بجوار المريضة العزيزة لتسرد عليها الأقاصيص والنوادر ، فتسليها

وتضحكها وتدفع عنها بعض آلامها .

لو أنها كانت تستطيع أن تفعل شيئا من هذا لكانت بلا شك أحسن حالا ، ولكان المصاب - على فداحته - يمكن احتماله .

اما أن ترقد هكذا فى فراشها لا تملك الا الرأس المتململة ، والدمع المنساب . والزفره تلو الزفره . فقد كان هذا شيئا لا يطاق .

وسمعت وقع أقدام تقترب من حجرتها ثم أضيء النور وأبصرت أم عبده الخادم تفتح أحد الدواليب لتخرج منها بعض الملاءات البيضاء ، وعندما أوشكت أن تهم بالخروج دون أن تلقى اليها بكلمة سألتها فى صوت خافت :

- كيف الحال ؟

وكأنما قد فوجئت المرأة بسؤال العجوز . فقد أصابتها رجفة بادية وهتفت مجيبة :

- أما زلت مستيقظة ياسيدتى ؟ ظننتك نائمة .

- كيف حال عفت ؟

- كما هى . لقد استدعينا الدكتور عبد العزيز فأشار بوجوب عمل كونسلتو . وقد حضر الأطباء وتشاوروا فى أمرها ثم انصرفوا بعد أن قالوا أنهم فعلوا كل ما يستطيعون وأن على الله الباقى .

رفعت العجوز يدها الى السماء داعية بصوت ملؤه الحرارة .

ربنا لا يرينى فيها مكروها .

وأطفأت الخادم النور . وغادرت الغرفة تاركة العجوز غارقة فى ظلمات أحزانها .

وشرد ذهن العجوز فانطلق الى حجرة المريضة العزيزة الجميلة ،

وتخيلتها مسجاة على فراشها مكروبة الصدر متلاحقة الأنفاس قد الهبتها الحمى وأنهكها المرض وبجوارها رقد طفلها الصغير لا يتجاوز عمره أياما معدودات .

عجبا للزمن ، ما أسرع مروره أهكذا أضحت الحفيدة الصغيرة أما ، وهى مازالت تذكرها بالأمس تحبو على أربع ؟

لقد جمعت الدار أربعة أجيال وانها لسعيدة بذلك . فما كانت تلقى فى حياتها حفيدها الرابع .

تتمنى أقصى من أن تعيش لترى عفت قد أضحت زوجة وأما . وأن يحقق القدر أمنيتها . ولكن بأى ثمن ؟

ان الثمن لو أخذه القدر حقا لكان فادحا ، أفدح من أن يحتمل .

لقد وضعت عفت ولدا ، حملوه اليها عقب ولادته مباشرة فبعث فيها منظره فرحة شديدة . اذ كان أول ولد تنجبه العائلة . وسألتهم أن يسموه محمدا كجده الكبير المرحوم زوجها .

ولم تطل فرحتها ، اذ ما لبثت أن أبصرت فى الوجوه تجهما . وأحست فى الدار حركة قلق . ثم علمت أن حرارة الأم الصغيرة قد أرتفعت وأنها محمومة متعبة .

وروعها النبأ ، وأحست كان مطرقة قد هوت على رأسها فدكتها دكا ، ووجدت نفسها تتساءل كالمحمومة :

- أترى القدر ينوى أن يكرر ضربته فيصيبها فى حفيدتها كما أصابها فى ابنتها .

أى ذنب جنته لكى ينزل بها القدر ذلك القصاص العجيب ؟

فيحكم عليها بالحياة حتى تشاهد بعينيها مصرع أحب الناس اليها !

لا لا . ان القدر لا يجسر أن يعيد فعلته ، ليته يؤخذها هى ، فما عاد بها رغبة فى الحياة . وما أضحى لها نفع ولا فائدة ، ان من العجب أن يترك عودها الذابل اليابس ليقطف هذه الزهرة النظرة اليانعة .

لا لا ، هذا ليس معقولا .

ولكن ألم يفعلها القدر من قبل ؟ ألم يأخذ ابنتها بنفس الطريقة وفى نفس الظروف !

أجل أنها تذكر اليوم المشئوم تماما ، كان الوقت صيفا ، فى مثل هذا الوقت ، أجل ، أجل انه كان شهر بؤونه ، والجو مسموم خانق والقيظ على أشده ، والنوافذ قد أغلقت اتقاء لهبوب الشرد اللافح ، والدار قد خيمت عليها ظلمة وران عليها صمت لا يشوبه الا وقع أقدام تتسلل هنا وهناك ، وهمسات تنساب من الشفاء كالفحيح ، والأطباء قد احتشدوا فى حجرة المريضة ، الحجرة المطلة على الناحية البحرية (نفس الحجرة التى ترقد فيها عفت الآن) وهى جالسة فى حجرتها هذه ترتجف كريشة فى مهب الريح وقد أخفت وجهها بين كفيها وانكمشت فوق الأريكة كأنها كوم حطام ، وبجوارها وقف زوجها يحاول أن يزيل مخاوفها ويبعث فيها الطمأنينة وهو أشد منها خوفا وأكثر انهيارا ، لا يكاد يتمتم الا بجملة واحدة تتواتر على شفتيه :

– سليمة باذن الله ، سليمة ان شاء الله ، لطفك يارب ، رحمتك يارب .

ومن الصالة كان يصل اليها وقع أقدام زوج ابنتها ابراهيم وقد أخذ يغدو ويروح فى قلق شديد وهو يهتف بحرارة داعيا من قبله بين آونة وأخرى « يارب » .

وأخيرا غادر الأطباء الغرفة وتحركوا مغادرين الدار وفى أعقابهم سار

ابراهيم ، وتحاملت هى على قدميها حتى حجرة ابنتها وجلست فى سكون على حافة الفراش محاولة التجلد والتماسك .

كانت تحس بقلبها يتفتت وهى ترى ابنتها وفلذة كبدها الشابة الجميلة القوية الصحيحة مسجاة على الفراش غائبة عن وعيها وقد انفرجت شفتاها وخرجت أنفاسها سريعة متلاحقة كأنها تعدو فى سباق وعلى مقربة منها استقر فراش صغير كانت ترقد فيه المولودة الجديدة وقد راحت فى سبات عميق .

وعاد ابراهيم بعد أن شيع الأطباء وقد بدأ مطرق الرأس مطاطىء الهامة . وأقبل زوجها عليه يسأله عما قال الأطباء . فهز رأسه ورفع كتفيه وأجاب فى يأس .

– لقد قالوا انهم فعلوا كل ما فى وسعهم ، وأن الباقى على الله .

ولم يصبها قوله بخيبة أو يأس ، فقد كانت تأمل فى الله كثيرا وتعتقد جازمة أنه لن يخيب رجاءها .

ومضى اليوم والسكون مخيم وأهل الدار يتحركون كالأشباح وأقبل الليل فلم تترك فراش ابنتها بل استمرت جالسة بجوارها حانية عليها تتحسس وجهها الملتهب بكفها وتدعو الله أن ينزل معجزته .

وغالبها النعاس فأسندت رأسها وهى جالسة على الوسادة ، ولم تشعر كم مر من الوقت وهى على حالتها تلك ؟ ولكنها استيقظت فجأة على نداء ابنتها وهى تهتف بها : « نينه .. نينه » .

وتملكتها رجفة وأجابت بصوت يذوب حنانا :

– نعم يازينب .. نعم ياحبيبتى .

أريد أن أراها .. أريد أن أرى عفت .

– حاضر ياحبيبتى .. سأحضرها لك حالا .

وكانت الطفلة ترقد فى الفراش الصغير فحملتها واقتربت منها بهدوء ووضععتها بجوارها قائلة :

- بنت أمورة ، شبهك تمام .

- نينه . أريد أن تأخذى بالك منها جيدا يانينه ، سأذهب وأنا مطمئنة لأنى سأتركها لك .

وأحست من قول ابنتها كأن يدا تعتصر قلبها ، وحاولت جهدها أن تهدىء عاصفة البكاء وتوقف سيل الدموع الذى يوشك أن ينهمر من مقلتيها ، وقالت فى لهجة واثقة مطمئنة :

- لا تقولى هذا يازينب ، انك بخير ، وستشفين وتتمتعين بابنتك وتربينها .

أنا أعلم بنفسى، قربيها منى ، دعنى أمسها بشفتى .

وكان هذا آخر ما فعلته ، لقد مست ابنتها بشفتيها ثم انطبقت شفتاها الى الأبد .

وهكذا راحت البنية العزيزة ، لقد انسابت من بين يديها وتركتهم حطاما ، لقد ذهبت أينع وأنضر ما تكون ، غير تاركة عزاء لهم سوى الطفلة الصغيرة .

وتلقت الأم حفيدتها التى هبطت الى الحياة بلا أم ، فكانت لها خير أم .

ولم تكن تملك أن تكون غير ذلك ، فقد كان حبها للطفلة حبا غير طبيعى ، اذ كانت تشعر أنها بقية حية من العزيزة الراحلة ، وكانت تذكر دائما وصية ابنتها لها وقولها لها قبل أن ترحل « سأذهب مطمئنة لأنى سأتركها لك » .

وكرست الجدة حياتها لخدمة حفيدتها ، فهى تذكرت كيف كانت تسهر

بها الليالى ، ما حاولت مرة واحدة أن توكل أمرها لخادمة ، أو لقريبة من الأقرباء .

كانت تشعر أن لحياتها قيمة من أجل الطفلة العزيزة ، كانت تكره لنفسها المرض أو العجز خشية أن لاتجد عفت من يخدمها ، أو خشية أن يهمل الخدم أمرها .

ومرت السنون ونمت الطفلة فأصبحت صبية يانعة ناضرة وكانت الجدة تحس اذا ما رأتها بالرضا والغبطة ، وتشعر أنها قامت بواجبها نحوها خير قيام .

وفى ذات يوم أصيبت العجوز بشلل أقعدها عن السير ، ووجدت نفسها فجأة قعيدة الفراش لا تملك حراكا .

وتلقت المصاب بصبر جميل وحمدت الله لانها لم تصب به عندما كانت عفت فى أشد الحاجة الى قوتها ورعايتها ، واستسلمت لقضاء الله راضية ساكنة .

ومرت بها الأيام وهى قابعة فى فراشها ، عزاؤها الوحيد حب حفيدتها لها وعطفها عليها ، كانت أحب الأوقات الى نفسها هى الأوقات التى تقضيها عفت جالسة بجوارها على الفراش مرهفة سمعها لاقاصيصها الطريفه ونوادرها المسلية ، وقد أسندت ذقنها الى كفها ورنت اليها بعينيها الصافيتين ، وأخذت تستحثها من آن لآخر جملتها التقليدية :

- وبعدين يانينية حصل ايه ؟

يا للعجب ! لقد كانت هى نفسها جملة أمها . حتى لقد كانت العجوز تشعر فى كثير من الأحيان أن الجالسة أمامها هى الابنة وليست الحفيدة .

أجل . ان الزمن ما مر وما انقضى . وان زينب مازالت طفلة ترهف

أذنيها وترنو بعينيها . انها ما وضعت وما ماتت . لانها هى هى الجالسة أمامها .

لشدة ما كان الشبه شديدا بين الاثنتين . الابنة والحفيدة . حتى لقد كانت العجوز تخططىء فى بعض الاحيان فتنادى الحفيدة باسم الابنة .

واستمرت السنون فى كرها ونضجت الصبية وأصبحت فتاة رائعة الحسن مكتملة الأنوثة . ورحل زوجها الى ربه واكتهل ابراهيم وشاب ، وبدأت هى تشعر بالوهن والاضمحلال . وهد المرض قواها فأمست كومة عظام ملقاة فى الفراش ، وأخذ يساورها الاحساس بقرب النهاية ، ولم تكن تتمنى شيئا قبل الرحيل أكثر من أن ترى حفيدتها عروسا تزف .

وفى ذات يوم أقبلت الفتاة عليها متهللة الأسارير مفترة الثغر وأنبأتها فى حياء مصطنع أنها قد خطبت .

وبعد بضع أسابيع تحققت أمنية العجوز ووقفت أمامها البنية الجميلة تختال فى ثوب الزفاف رشيقة أنيقة مشرقة الوجه ممشوقة القد ، ووراءها عريسها يبتسم فى هناء وغبطة وقد بدأ حلو التقاطيع فارع القوام ، وأقبلا عليها يقبلان جبينها ويلتقيان تهنئتها ودعواتها .

وتم الزواج فى هدوء وعاش العروسان فى الدار ، ولم تشغل عفت بزوجها عن جدتها بل استمرت فى رعايتها لها وعنايتها بها . وكانت كثيرا ما تقضى الساعات الطويلة فى مسامرتها وتسليتها .

ومر العام الأول من الزواج ، وحملت عفت وحان موعد الوضع ، ورقدت الطفلة العزيزة الحلوة استعدادا للولادة .

وساور العجوز وقتذاك خوف خفى حاولت جهدها أن تتخلص منه . ولكن المشاعر كانت تضطرب فى نفسها مختلطة متناقضة . كانت تذكر

برغمها ولادة ابنتها والجو الرهيب الذى أحاط بها والخاتمة المخيفة التى انتهت اليها ، وكانت لا تكاد تغفو حتى تصحو من نومها فزعة وهى تتوهم أن الحامل الراقدة هى ابنتها وأن ما يقع الآن ما هو الا تكرار لما حدث من قبل واعادة لنفس المأساة بتفاصيلها ودقائقها .

كان أكثر ما يخيفها هو فرط التشابه بين ما حدث وما يوشك أن يحدث . نفس الظروف ونفس الأمكنة ونفس الوقت ونفس الجو . لا فارق هناك بين الواقعتين الا أنها كانت فى الأولى قوية نافعة تستطيع أن تشغل نفسها بالحركة والذهاب والاياب وتستطيع أن تجلس بجوار ابنتها فتمس جبينها بيدها أو تضمها اليها . كانت تستطيع على الأقل أن ترقب رحيل ابنتها وتسمع آخر كلماتها وتودعها الوداع الأخير ، أما الآن ، فماذا تستطيع أن تفعل سوى الرقود كالخرقة البالية ترقب السقف وتسكب الدمع وتهز الرأس فى عجز ويأس .

ألا تستطيع حتى أن تراها وأن تودعها قبل الرحيل ؟

انها بالطبع لا تملك لها نفعا . وهى أعجز من أن تقوم لها بأتفه الخدمات . ومن الجنون أن تتخيل أنها تستطيع انقاذها من الموت . فهذه أشياء لا يملك الانسان لها ردا ، الانسان الصحيح القوى ، فما بالكم بانسان مثلها عاجز محطم .

ولكنها فقط تريد أن تراها ، ليتهم يرضون بأن يحملوها الى حجرة عفت .

حقيقة ان الطبيب الذى يعودها أمرها بألا تتحرك من الفراش ولكن ألا يستطعون أن يرفعوها بالفراش .

ثم ماذا يخشى عليها الطبيب ؟ ماذا يخشى على مشلولة عاجزة وهن العظم منها ؟ أيخشى عليها من الموت ؟

قاتله الله ، ألا يعلم أن فى الموت خلاصها ، وأنها لو ماتت قبل الآن

لوفرت على نفسها مشقة مشاهدة موت حفيدتها .

ولكن لم لا تحاول هى الحركة ؟ ان المسألة تحتاج الى ارادة قوية وعزم شديد .

أجل ، أجل ، يجب أن تجرب ، ولاشك أنها ستنجب .
ان الله سيعاوننا ، فهى لا تطلب شيئا كثيرا ، انها تريد أن تودع حفيدتها قبل الرحيل .
وهكذا بدأت العجوز التجربة .

وشيئا فشيئا ، أخذت تنزلق من الفراش حتى بلغت حافته ، وفجأة فقدت توازنها وسقطت على الأرض سقطة شديدة أحست معها أن عظامها قد تحطمت .

ومرت برهة قصيرة وهى راقدة فى مكانها ككومة عظام ، ثم بدأت تتمالك قواها وتعود الى وعيها ، وأخذت تحبو ببطء على يديها وركبتيها حتى بلغت باب الحجرة وأخذت تعبر الصالة متجهة الى حجرة المريضة .

وأخيرا ، وبعد جهد شديد بلغت بابها ومدت رأسها فى الحجرة أخذت ترهف السمع وتتطلع بعينيها كأنها كلب جريح .

وأحست بطمأنينة تفعم قلبها عندما بلغ مسامعها صوت أنفاس تتردد ، لقد كانت تخشى أن تصل متأخرة ، ولكن حمدا لله أنها مازالت حية تتنفس .

واقتربت من الفراش ومدت يدها تتحسس حافته ، ثم أخذت تحاول النهوض على ساقيها حتى تقف بجوار الفراش . .

وأحست بعجز شديد كأن جسدها يشد الى الأرض بأثقال لا قبل لها برفعها ، وأخذت تنادى حفيدتها الراقدة بصوت ملؤه اللهفة والاستغاثة دون أن تسمع منها سوى أنفاس تتردد بصعوبة .

واستمرت العجوز فى ندائها المبحوح فى اصرار والحاح كأنها مصممة على أن تستعيد عفت من غيبوبتها وأن تسترجعها من الغياهب التى توشك أن تغيب وراءها .

أجل ، لابد لها أن تودعها قبل الرحيل ، لقد قطعت كل هذه المسافة لكى تسمع منها كلمة وداع ، فحرام أن تبخل بها عليها .

وتوقفت العجوز برهة عن النداء ثم رفعت وجهها الى أعلى وهتفت :

- ياربى ، انى لا أطلب كثيرا ، أعدها لحظة واحدة ثم خذها ثانية .

وفجأة ارتجفت عينا المريضة وارتعش جفناها ثم فتحا ببطء وبدت من خلالها نظرة خابية لاتكاد تميز من حولها شيئا .

وعاودت العجوز نداءها الحار . فاذا بالغشاوة التى قد علت عينى المريضة تنقشع واذا بها توجه اليها بصرها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة وأجابت بصوت خافت :

- نعم يانينة ؟
- ازيك ياحبيبتى ؟
- بخير يانينة .
- ان شاء الله بخير دائما .
- لم تجلسين على الأرض ؟ انهضى واجلسى بجوارى .
- لا أستطيع ، انى مشلولة عاجزة .
- بل تستطيعين ، سأمد يدى لمعاونتك ، اعتمدى عليها .
- انك مازلت ضعيفة ، كيف يمكنك معاونتى على النهوض ؟

- أنت أيضا كنت عاجزة ؟ ولكنك استطعت أن تستعيدينى من الأغوار السحيقة ، والدياجير المعتمة التى كنت أهوى فيها ، ان القوة فى القلوب وفى

الايمان وفى العزائم وليست فى العضلات أو الأذهان ، امسكى يدى وسأعاونك على النهوض كما عاونتنى على العودة ، هيا اعتمدى على .

ومدت العجوز يدها فوضعتها فى يد المريضة ثم حاولت النهوض معتمدة عليها .

وفى هذه المرة أحست أن الأثقال قد فكت وأنها أصبحت خفيفة لا يشدها الى الأرض شيء .

وبمنتهى البساطة وجدت نفسها أخيرا واقفة على قدميها بجوار حفيدتها .

ووقف الأطباء فى الصباح يقلبون البصر فى المرأتين ، الحفيدة وقد هبطت حراراتها وعادت الى الحياة ، والعجوز ، وقد ذهب عنها الشلل بعد طول يأس .

وهز أحد الأطباء رأسه وقلب شفتيه وقال هامسا :

– كنت أومن بهذا دائما ، ان السماء مازالت بها أشياء تعجز أذهاننا عن ادراك كنهها ، ان المعجزات لم تنته بعد .

الرحلة الكبرى

﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ .

« قرآن كريم »

كنت أعرف عنه شدة سخريته بالخرافات وعدم ايمانه بالخوارق والمعجزات ، فقد كان انسانا واقعيا لا يؤمن الا بالواقع والمنطق .

ضمنى واياه مجلس ذات ليلة وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ، فقال لى :

– كنت أعتقد أن العلم قد هزأ بالسحر وقضى عليه .. فلم يعد هناك ما يمكن أن يخفى على الذهن البشرى ، حتى وقعت لى حادثة جعلتنى أهز رأسى حيرة ودهشة .. وجعلت كل معلومات الطب التى حشوت بها رأسى تتضاءل وتنكمش .. وتهاوت تجاربى ، وخبرتى وقدرتى ، وحل محلها ايمان عميق أشبه بايمان العجائز ، بأنه اذا ألقى الطب سلاحه وسلم العقل بالهزيمة ، فذلك لا يمكن أن يعنى اليأس .. لان هناك قوى خفية تستطيع أن تتدخل فى النهاية ، فتقلب اليأس أملا ، وتفعل ما عجز عنه الذهن بطبه وعلاجه وأدويته

وكل ما يملك من قوة مادية قوى وراء المادة ، قوى تكمن فى النفوس أو تشع من الأرواح أو تهبط من السماء أو ..

وتوقف عن الحديث ثم هز رأسه وهو ينظر الى ثم أردف يقول :

– لا تستطيع أن تصدق مثل هذا القول بسهولة .. حسنا .. خير لى أن أقص عليك القصة بحذافيرها .

ثم بدأ يروى قصته العجيبة قائلا :

– كنت أقطن فى مصر الجديدة ، وكانت تجاورنى فى المسكن أرملة تعيش وحيدة مع ابنها الكسيح المصاب بشلل الأطفال ، وقد تعودت أن أعوده من آن لآخر عيادة جار صديق ، ولم يكن هناك أمل فى شفائه .. فهو لم يقف على قدميه منذ أن ولد .. ولا أظن أنه كان يمكن أن يقف أو يسير حتى نهاية عمره . وكان هو وأمه يدركان ذلك .. فوطنا نفسيهما على الاستسلام للأمر الواقع ، وأخذا يقنعان على مر الأيام بحياتهما معا ، فهيآ فيها ما استطاعا من متعة ، وبات كل منهما قريرا راضيا .. وضرب كلاهما مثلا على أن الحب والاخلاص والشجاعة والايمان يمكن أن تعين المرء على مواجهة أقصى ظروف الحياة وتحمل شدائدها .

وكان الصبى – ويبلغ السادسة عشرة – مخلوقا هادئا لطيفا شديد الذكاء واسع الخيال .. ولم أكن أشك فى أنه يشعر فى كثير من الأحيان بالوحدة والحرمان .. الحرمان مما يمكن أن يتمتع به كل صبى من انطلاق فى الحياة ولعب مع الرفاق ومرح ولهو .. بل كنت واثقا كذلك ، أنه بعقله الراجح وذهنه المفكر يستطيع أن يحس مدى الحرمان الذى ينتظره فى غده .. الحرمان مما يمكن أن يتمتع به كل رجل من حب وزواج وأولاد .

وقد كان يحاول دائما أن يبدو أمامى مرحا سعيدا هانئا ، وأنه لا يأبه اطلاقا لما هو فيه .. ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع أن يكبت بين آونة وأخرى

بضع كلمات تنطلق من فمه لتفضح دخيلة نفسه .

قال لى الصبى وأنا أزوره ذات مرة :

– كان أقصى أمل لى يادكتور أن أصبح رحالة أجوب بقاع الأرض وأستكشف مجاهلها .

ولم أدر كيف أجيبه ، اذ كانت تلك آخر أمنية يجب أن تجول فى نفسه !

ورأيته يبتسم ويهز رأسه ويقول مستدركا :

– أنا أعرف أنها أمنية متعذرة وأن من المستحيل تحقيقها ، ولكنى مع ذلك أستعين على تحقيقها بالوهم . لقد أصبح لى ولع كبير بالخرائط .. أنظر ..

ثم مد يده الى منضدة بجواره عليها مجموعة من الكتب والأوراق ، وسحب ورقة مطوية أخذ فى نشرها أمامه قائلا :

– أنا لا أستطيع السير .. ولكنى أستطيع وأنا راقد فى فراشى أن أذهب حيثما شئت فى غمضة عين أو فى لمح البرق كأنى أمتطى بساط الريح ، لقد بدأت أولى جولاتى فى القاهرة .. أنظر الخريطة .. انى هنا الآن ، هذه هى مصر الجديدة .

ووضع طرف قلم فى يده على نقطة فى الخريطة ، ثم استرسل يقول :

– هذا هو طريق الخليفة المأمون ، وهذا هو شارع الملكة المؤدى الى المحطة . لقد كانت أول رحلة لى فى القاهرة الى القلعة .. لقد سرت بعد ذلك الى الأوبرا بالعتبة فشارع محمد على حتى وصلت الى هذه المنطقة .. هذا هو جامع السلطان حسن وعلى الجانب الآخر يقوم جامع الرفاعى .. أنظر ، هذه هى صورتيهما ..

ثم مد يده الى المنضدة فأخرج بضع صور وأردف يقول .

– هذا هو جامع السلطان حسن ، أكبر جامع من نوعه ، بنى فى عهد المماليك وكان يستعمل مدرسة وجامعا .. لقد قرأت عنه فى بعض كتب التاريخ ، لم أمكث به كثيرا ثم عاودت السير فى طريقى صاعدا الى القلعة .. هذه هى صورة جامع محمد على ، ومن فوق القلعة وقفت أطل على القاهرة .. أنظر ، ما هو منظر القاهرة من القلعة .

ثم أخذ يعرض على الصور واحدة واحدة ويرينى طريق عودته وقد رسمه على الخريطة بالقلم الأحمر .

وهكذا بدأ الصبى رحلته الوهمية مستعينا بالخرائط والصور والكتب وسعة الخيال والقدرة العجيبة على العيش فى أحلام اليقظة .. وتعودت بعد ذلك فى كل مرة أزوره ، أن أجلس بجواره ليشرح لى آخر رحلاته التى يقوم بها على بساط الريح ، أو على بساط الوهم وأجنحة الخيال ..

ووثقت الأيام أواصر الصداقة بيننا ، وأصبح الصبى يركن الى ويمنحنى كل ثقته ولا يخفى عنى شيئا من مشاعره وأحاسيسه .. ولم أشك أنه سعيد برحلاته وأنها قد بددت الكثير من الوحشة والسآمة التى كانت تكتنفه فى وحدته .

وانتهت رحلاته فى القاهرة وبدأ بعد ذلك جولاته فى مختلف بلدان القطر . يوما فى الاسكندرية ويوما فى الأقصر وآخر فى الغردقة ورابعا فى أسوان .

وتعودت أن أبادله النكات والمزاح .

قلت له ذات يوم وقد دخلت عليه فوجدته منهمكا فى فحص احدى خرائط الواحات :

– كنت على الشاطىء ولا شك ، فقد لوحت الشمس وجهك ! أحذر أن يسلخ جلدك .. يوجد نوع من الكريم يغير الجلد .. سأكتب لك اسمه .

– لقد ذهبت الى عيون « السخنة » قرب السويس ، هل ذهبت الى هناك ؟ انها مدهشة ! تصور ماء ساخنا ينبع من باطن الأرض ، وعلى بعد خطوات يترامى البحر أمامك وتقوم الجبال الشاهقة خلفك .. لقد كان منظرا رائعا .. هل تصدق انى لم أشأ الرحيل عن الطريق المرصوف بل فضلت المدق الصحراوى بين الجبال ؟ انى أحب المغامرة .

– ترى أين ستكون رحلتك القادمة ؟

– جولة بين الواحات فى الصحراء الغربية .. هذه منطقة ما زال بها الكثير من المجاهل .

– اذن لا تنس أن تأخذنى معك فى احدى جولاتك فاننى فى حاجة الى تغيير الهواء .

– هذه رحلات تحتاج الى قوة تحمل .. خير لك أن تنتظر حتى أبدأ جولاتى الساحلية .

وفى الزيارة التالية بادرنى بصيحة فرح قائلا :

– هنئنى !

– علام ؟

– أوشكت أن أكتشف واحة جديدة .. لقد ذهبت الى الواحات البحرية كانت رحلة شاقة متعبة وخاصة فى تلك المنطقة المسماة ببحر الرمال .. اسم على مسمى ، فرماله مغرقة خطرة .. وقد حاولت الذهاب من البحرية الى سيوة ، ان المنفذ الوحيد هو النقب رقم ١٣ .. وهو ممر شديد الوعورة ، ولكن اجتيازه ليس بالأمر المستحيل ، ولقد اجتزته فعلا .. وبدأت سيرى بين الرمال على طريق القوافل القديم المؤدى الى سيوة ، ولكنى توقفت فى هذه البقعة .. أنظر .

ووضع طرف القلم على نقطة بالخريطة المنشورة أمامه ، ثم اردف يقول :

– هذه النقطة هى تقاطع الطريق السائر شمالا الى المغرة ، انه طريق قديم لم يستعمل منذ مئات السنين .. هل تصدق اننى سرت فيه ؟ لقد كانت مخاطرة ، وخاصة انى أعتقد أن هذه الرمال المرسومة لابد قد انتقلت من محلها . وقد سرت فى الطريق حتى بلغت هذه النقطة .. انها تبدو منخفضة عما حولها .. وأنا واثق انى لو سرت الى اليسار قليلا فلا شك أنى سأعثر على آثار ماء ، والا من أين كانت القوافل السائرة تستقى ؟

وهززت رأسى فى حيرة ، ولم تكن لدى أية فكرة عن القوافل أو الواحات ، وما كان يهمنى قط أن أعرف من أين كانت تستقى ، ولكن لم أجد بدا من الموافقة قائلا :

– أجل ، لابد أن يكون هناك ماء كما تقول ، والا كان من أين يستقى ؟ هذا اكتشاف لو تم فانك تستحق أن تخلد به اسمك ، تهانئى الحارة ! ..

ومددت يدى أشد بها على يده ، وبدت عليه أبلغ آيات السرور والفرح .

ولست أنكر كم مر على هذا الحادث ، ولكن أغلب الظن أنه لم يمض أكثر من أسبوع عندما سمعت طرقات على الباب ، والطبيب كما تعرف عرضة لهذه الطرقات الطارئة فى أى وقت ، فهى تعنى دائما أحد أمرين : حياة تحل ، أو حياة ترحل ، انسان فى الطريق الى الدنيا أو آخر فى الطريق الى الآخرة .

وفتحت الباب فى عجلة فوجدت الطارق أم الصبى وقد بدا عليها اضطراب شديد وأمسكت بذراعى فى لهفة شديدة ثم أخذت تجذبنى الى الخارج لاهثة :

– أرجوك يادكتور ، أغثنى .

– ماذا حدث ؟ ماذا جرى له ؟ حادثة ؟ هل فعل بنفسه شيئا ؟

– لا أعرف انه ملقى فى فراشه كالخرقة البالية وقد احتقن وجهه وأخذ العرق يتصبب منه .

وسرعان ما ارتديت ملابسى وعدوت وراءها وأنا أسألها فى دهش شديد :

– لا أستطيع أن أفهم ، اشرحى لى ما حدث .

– لقد كان على أن أترك الدار برهة لقضاء بعض الضروريات وغادرته فى مكانه بين خرائطه وكتبه قريرا هانئا صحيحا معافى ، وانى لاكره أن أتركه وحيدا ، ولكن لابد لى من آن لآخر من الخروج لشراء بعض اللوازم أو لكى أصرف المعاش فى أول كل شهر ، وقد تركت له قبل أن أخرج « ترمسا » مليئا بالشاى وعلبة من الشيكولاته وأخرى من البسكويت ، وعندما عدت ..

ثم اندفعت تنشج باكية ، وضاعت كلماتها وسط زوبعة البكاء التى عصفت بها ، وأخذت أهدئها قائلا .

– أرجوك أن تهدئى ، خبرينى ماذا وجدت عندما عدت ؟ ان أقوالك ستساعدنى كثيرا .

وتمالكت المرأة بعض الشىء وعادت تقول فى صوت متهدج :

– عندما عدت ، ذهبت اليه رأسا فوجدته قد استقلى على ظهره كما تعود أن يفعل دائما عندما يرغب فى أن يستريح ، ولكن الذى استرعى انتباهى أمر غريب ، لقد وجدت علبتى الشيكولاته والبسكويت – وهما علبتان كبيرتان لم يؤخذ منهما شىء من قبل فارغتين ، ولم أجد بالترمس الملىء بالشاى قطرة واحده . لقد أتى عليهما جميعا ، وهو الذى لم يتعود أن يتناول أكثر من بضع قطع من البسكويت أو الشيكولاته تعد على الأصابع مع فنجان من الشاى ،

ووجدت كذلك أن بضعة ساندويتشات (كانت موضوعة على المنضدة) قد اختفت ، وتملكنى العجب وصحت به فى دهشة :

- كيف أكلت كل هذا ؟ لقد أصبحت غولا فجأة .

ولكنه لم يجب ، وأخذت أقترب من الفراش وقد ظننت أنه مستغرق فى النوم ونظرت اليه .

ومرة أخرى اندفعت فى بكاء عنيف ، وأخذ جسدها يهتز من قمة رأسها الى أخمص قدميها حتى بت أخشى أن يكون الصبى قد مات .

وبلغنا دارها ودلفت من الباب وسمعتها تهمس فى صوت مبحوح :

- لقد رأيت وجهه أحمر ملتهبا ، كأنما قد سار فى الشمس بضع ساعات .

غير معقول ، ان الصبى لا يمكنه السير فى الشمس ، ولا يمكن كذلك أن تكون الشمس قد أصابته من خلال النافذة . فقد كان اليوم كثير السحب لا تكاد الشمس تظهر من خلف سحابة الا لتتوارى وراء أخرى . وأجبت المرأة فى صوت خافت :

- مستحيل ، انى له بالشمس لابد أن تكحونى واهمة .

- كلا ، أنا واثقة مما اقوله .

لابأس ، سأفحصه الآن ، وأرجو أن تطمأنى ، فالمسألة لا يمكن أن تكون أكثر من انفلونزا بسيطة .

ورأيت الصبى ، وكانت أمه على حق .

هل تدرون ماذا يحدث للانسان عندما يتعرض مرة واحدة للشمس ويستمر معرضا لها مدة طويلة هل تدرون ما يحدث لجلودنا عادة فى البلاج من احمرار شديد والتهاب حتى تبدو كأنها محروقة .

لقد كان وجه الصبى ويداه وكل ما تعرض من جسده قد أصيب بضربة شمس شديدة خطرة .

ترى كيف يصاب مثله « بلطشة شمس » .

ولم أجسر على اظهار دهشتى أمام الأم حتى لا أزيد فى فجيعتها وكان على أن أقول شيئا على سبيل الخداع وبعث الطمأنينة فقلت :

- المسألة بسيطة جدا ، هذه حالة طارئة سرعان ما تزول ، وهى كثيرا ما تحدث نتيجة لتقلبات الجو .

وكان هذا القول هو ما استطاع ذهنى أن يدبره فى ذلك الوقت الحرج .

وأخذت أعالج الصبى وأجرى له الاسعافات اللازمة على اعتبار أنها « لطشة » شمس عنيفة . فقد كنت واثقا من أعراضها ، وان كنت واثقا كذلك من أن الصبى لا يمكن أن يصاب بضربة شمس لأن الشمس ليس لها سبيل اليه ، وليس له كذلك سبيل اليها .

ولم يفق الصبى من اغمائه فى ذلك اليوم ، ولكنه فى اليوم التالى تحسنت حاله ، وزالت الخطورة التى كانت تهدده ، وبدأ يتكلم :

وكان أول ما قاله هو أن قص على القصة بحذافيرها بمجرد أن اصبحنا على حدة .

فقال الصبى :

- لم أستطع أن أخبر أمى فهى لن تصدق ، ولكنك تعلم كل شىء وتستطيع أن تفهمنى جيدا .

ومد يده الى المنضدة فجذب احدى الخرائط ثم أمسك بالقلم وأخذ يحركه عليها برهة حتى وصل الى نقطة بها ، فثبت حرف القلم عليها وقال :

- هنا ، كنت أعلم أنهما هنا فى هذه البقعة ، هل سمعت عن الرحالتين اللذين أعلنت الصحف عن فقدهما منذ بضعة أيام لقد كنت أقرأ أخبارهما أولا بأول ، وكنت أتتبع رحلتهما فى الصحراء على الخريطة ، ولا يمكنك أن تتصور الانزعاج الذى أصابنى عندما قرأت أنهما ضلا طريقهما فى الصحراء وأنهما قد باتا فى عداد المفقودين ..

وهززت رأسى ثم أمنت على حديث قائلا :
- أجل ، كان خبرا مزعجا حقا ، ولقد أسفنا كلنا لهما .
ورد على الصبى فى حدة قائلا :.

لم يكن ما أصابنى مجرد أسف ، لقد كنت أحس أن مصابهما مصابى ، فهما زميلاى ، لقد روعنى فقدهما وأحسست أن من الجبن أن أتركهما كذلك يترديان فى هاوية الموت دون أن أحاول أن أمد اليهما يد المساعدة ، وعلى ذلك فقد صممت على أن ..

وتردد برهة ، وكان على أن أجاريه فى كل ما يقول ، فقلت أستحثه :
استمر ، لقد كان هذا التفكير منك دليلا على المروءة والشجاعة .
- أجل ، صممت على انقاذهما ، فلم تكد أمى تغادر الدار حتى أمسكت الخريطة وأخذت أفحصها جيدا ، ثم عقدت النية على ألا أعود حتى أبغلهما .

- مدهش .
- لقد كنت دائما ياسيدى أشعر بالعجز وأنا جالس هنا فى مكانى ، وكان أكثر ما يحز فى نفسى شعورى أنى انسان بلا فائدة ، وعلى ذلك فقد تملكتنى النشوة عندما أحسست أننى أوشك أن أفعل شيئا وأن أكون انسانا ذا فائدة ، وأخذت أحرم علبتى الشيكولاتة والبسكويت والساندويتش والترمس ، وهو كل ما أمكن أن تصل اليه يدى . وما أمكننى كذلك أن أحمله فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، وبدأت الرحلة ، متتبعا الطريق بقلمى فى تأن وتؤدة خشية أن أضل

الطريق أنا الآخر ، فلا أستطيع أن أمد لهما يد المعونة وأخذت فى السير ، رويدا رويدا .. بدأت أحس لسعة الشمس ، ووحشة الطريق ، ومع ذلك فلم يكن بى أثر الخوف أو رهبة ، فقد كنت أحس أننى مخلوق على قيد الحياة وأننى رجل .

- لقد كنت دائما مخلوقا شجاعا وكنت رجلا على الدوام .
- أجل ، كنت أحاول أن أبدو كذلك ، ولكنك لم تكن ترانى وأنا أرقد فى الليل وحيدا ، أسكب الدمع فى صمت على الوسادة ، فقد كنت أحس أنى رمة بالية ، أما بالأمس ، فقد كنت مخلوقا آخر ، كنت كتلة أعصاب حية متحفزة متوثبة ، كنت أريد أن أصل الى الزميلين الضالين وأنقذ حياتهما ، فلم يوقفنى حر شمس ولا عصف ريح .

وأقول الحق أنى لم أكن أعرف كيف أحلل حالة الصبى . لقد كان مخلصا فى قوله كل الاخلاص ولقد رأيت بنفسى آثار الشمس على وجهه وجسده ، ومع ذلك فلم أحاول أن أتخلى عن منطق العلم ولم أدع لنفسى فرصة الاعتقاد بأشياء فوق طاقة الذهن البشرى ، ووجدتنى أتشدق بينى وبين نفسى ببعض اصطلاحات علم النفس وأرجح حالة الصبى الى احداهما

أجل . أن الامر لا يعدو أن يكون احدى الحالتين : اما الايحاء الذاتى ، أو التنويم النفسى .

هذا ما قلته لنفسى ، أما الطفل فقد قلت له مبديا تصديق كل ما قاله :

- وهل وصلت اليهما ؟
فاطرق برأسه وأجاب :
- أجل ، بعد أن كدت أيأس من الوصول وبعد أن أنهكنى السير وأحرقت الشمس وجهى وذراعى . ولقد وصلت فى اللحظة الأخيرة اذ وجدتهما فى الرمق الأخير ، وكذلك كنت . ولا أستطيع أن أذكر ما حدث بعد ذلك..

وصمت صاحبى الطبيب لحظة ، ثم أردف قائلا :

- هذا هو ما حدث للصبى .

وأجبته فى دهشة شديدة :

- عجبا ! انه أمر خارق !

- لم يكن هذا وحده هو الشيء الخارق ، فقد أنقذ الرحالتين كما تعلم مما نشرته الصحف ، اذ أرسلت حملة تفتيش للبحث عنهما ، وقد نجحت فى العثور عليهما ووجدتهما فى حالة اعياء بالغ وقد استلقيا فى حالة أقرب الى الموت . وعندما تكلم أحدهما كان أول ما قاله لمن حوله : « أين الصبى الصغير ؟ » ودهش الجميع وسألوه عما يعنى ، فأجاب بأنهم لم يكونوا أول من أتى اليهما ، فقد سبقهم فى الوصول الى مكانهما صبى يحمل علبتين من الشيكولاتة والبسكويت وبضعة سندويتشات وترمس مليء بالشاى ، ولقد وجدهما على وشك الهلاك فأعطاهما ما يحمل ثم اختفى ، ولولا ما حمله اليهما لما استطاعا العيش حتى هذه اللحظة .

- مدهش .. انه حقا أمر خارق ، انها معجزة !

- بقى أمر خارق آخر .. أو معجزة ثالثة .. لقد بدأت أرقب الصبى جيدا خشية أن يتكرر ما حدث له ، أتذكر أنى قلت لك انه لم يكن هناك أمل قط فى أن يقف على قدميه . هذه مسألة لا تحتاج الى مناقشة ، فقد سلم الطب بعجزه فيها ، وكان شفاؤها مستحيلا الا بمعجزة من السماء ، أو بقوة خارقة . القوة التى قلت لك انها تكمن وراء الماديات . حسنا . لقد حدثت المعجزة ، وشفى الصبى ، فان اطرافه بدأت تتماسك بعد تلك الحادثة . كما سرت الحياة فى أعضائه المسترخية رويدا رويدا ، وأخذت تقوى وتشتد وبدأ الصبى يسير فى حجرته ثم أخذ يتنزه فى الحديقة كأى سليم معافى .

عجبا ! كيف يمكن أن يحدث مثل هذا ؟ لو سمعته من انسان آخر غير

صاحبى لقلت حديث خرافة وقول هراء ! أما منه فلا أظن هناك شك فى صحته .

وأخذت القصة تدور فى ذهنى . حتى وجدتنى أسأله فجأة على سبيل الاستطلاع :

- وماذا فعل الصبى بعد ذلك ؟ هل أصبح رحالة كما كان يود أن يكون ؟ هل قام بالرحلات التى كان يقوم بها على بساط الريح ؟

- رحلة واحدة فقط . كانت الأولى والأخيرة ، لقد ذهب ليركب المترو فى أول مرة غادر فيها الدار ، فزلت قدمه وهوى تحت العجلات ، وذهب فى رحلة طويلة لم يعد منها حتى الآن !

لقد كانت تلك هى رحلته الكبرى . فى غمضة عين صعد الى السماء . بلا خريطة ولا قلم ولا بساط ريح .

●

عَوْدَةُ الثَّائِرْ

﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا يشعرون ﴾
« قرآن كريم »

أنا يا أخى غريب بينكم ، غريب عن دارى ، غريب عن وطنى .

كم تقت الى العودة اليكم ، وكم هفت نفسى الى جلسة بينكم .

كم حننت الى الدور المضيئة ، والطرقات الصاخبة ، والحوانيت المزدحمة ، والعربات والمركبات ، والملاهى والمسارح .

كم تقت الى أضواء المدينة ، وضجيجها وعجيبها .

بين رائحة البارود ، وذرات الغبار المثار ، كان أنفى يتلهف على رائحة يتضوع عبيرها ويفوح . وبين حلكة الخنادق . وصفرة الرمال ، كانت عينى تهفو الى لون يزهو أو نور يضىء .

كانت بنا لهفة اذ نخوض المواقع على الأهل والأوطان ، وكان الحنين يعاودنا بين الفنية والفنية ، يخبو بين جوانحنا برهة ثم يتأجج ، يخمده دوى المدافع ، وزئير المعركة ، فاذا ما هدأ الدوى وخفت الزئير استيقظ الشوق فى الحنايا ، واستعر الحنين .

وسمحت الظروف بفترة راحة وحملتنى الطائرة اليكم فى أجازة قصيرة . وكنت أحس من فرط الشوق أن الطائرة تتلكأ فى الجو وتتسكع بين السحب ، ووددت لو استطعت أن أضاعف سرعتها .

وأخيرا لاحت لى القاهرة من الجو ، وبدت لى المزارع القائمة على أطرافها منتظمة منمقة كأنها مرسومة بالمسطرة . والدور والطرقات والعربيات كأنها لعب الأطفال .

كانت المرة الأولى التى أعود فيها منذ بدأت الحرب وكان بى احساس نهم يجلس الى مائدة حافلة ، فهو فى حيرة بين أنواع الصحاف الشهية . وكانت المدينة تبدو من حولى وكأن غيبتى عنها لم تكن شهورا معدودة ، بل أعواما .

ومضى يوم ، ثم يومان وأنا بينكم فى نشوة الغريب العائد . ثم تبدل الحال فجأة فاذا بى قد أضحيت وأنا بينكم غريبا من جديد !

لقد نقضت الهدنة وبدأ اليهود هجومهم الغادر متسللين الى خطوطنا ، وحاولوا قطع مواصلاتنا . واستعر أوار المعركة من جديد . كيف يغمض لى جفن أو يهدأ لى مضجع وأنا بعيد عن جنودى وهم يقاتلون فى الميدان ؟ صدقنى يا أخى . لقد نسيت أضواءكم ، وعطوركم ، وضجيجكم ونسيت شوقى اليكم وحنينى لكم . وبت أتوق الى رائحة البارود وحلكة الخنادق وصفرة الرمال .

بى حنين الى القتال والدوى والضرب . بى رغبة جارفة فى أن أشارك جنودى استبسالهم فى الهجوم ، وصلابتهم فى الدفاع . ان دراهم دارى ، ومضجعهم مضجعى . أنا يا أخى غريب بينكم ، فأهلى هناك فى حومة الوغى رابضين كالأسود أو واثبين كالفهود !

أى جنودى الأعزاء : انى قادم اليكم !

وهكذا مرة أخرى عادت بى الطائرة .. وبى نفس اللهفة ونفس الشوق بل أشد كثيرا .

كنت أريد أن أستبق الزمن . كنت أريد أن أصل اليكم واتخذ مكانى بينهم وأشد أزرهم وأعينهم فى قتالهم .

وهبطت الطائرة بنا ، وسارت العربة تحملنى الى مقر كتيبتى فى المواقع الأمامية ، وأنا أستحث السائق لكى نصل فى أقصر وقت مستطاع .

وأسرع السائق جهده ، ولكنا مع ذلك لم نصل !

ان القدر فوق الجهد ، ولقد أبى علينا الا أن نقف فى منتصف الطريق ، بعد أن علمنا أن الطريق الى الكتيبة قد قطع ، وأنها قد حوصرت مع بقية قوات الفالوجة وعراق المنشية .

وعدت أدراجى كسير النفس ، مهموم القلب ، واستقر بى المقام فى مقر الرياسة ، وبدأت تتواتر علينا أنباء القوات المحاصرة ، فتثير فى نفوسنا حماسا واطمئنانا ونشوة ، وأدركت أن نسور الطير لا خوف عليها من بغاثه !

كانت الروح المعنوية لجنودنا هناك فى الذروة حتى لقد أحسست بالدمع يترقرق فى عينى تأثيرا بعزمهم الحديدى واستبسالهم فى القتال والاحتفاظ بمواقعهم سليمة ، رغم توالى الهجمات عليهم من الأعداء ...

وكرهت لنفسى أن أبقى بعيدا عنهم وأن تحرمنى الظروف من مشاركة جنودى خوض غمار معاركهم .

ومرت الأيام .. وفى كل يوم يقوى العزم ويشتد الايمان .. وتزداد بى اللهفة الى العودة الى مركز الأبطال ومأوى الصناديد .

كنت كالتائه الضال ، المنفى عن موطنه وأهله وخلانه . ولم يكن هناك

من وسيلة للعودة . حتى دعت الحاجة ذات يوم الى اتصالنا المباشر بهم واستقر رأى القيادة على أن يقوم بهذه المهمة ضابطان منا يخترقان نطاق الحصار ويصلان الى القوات الباسلة المستميتة فى الدفاع .

ولم تكن المهمة بالسهلة الهينة ، بل كانت مجازفة خطيرة . وسئل الضباط : من منهم يريد التطوع للقيام بها ، فتطوعوا جميعا . فاضطر القائد الى أن يجرى قرعة بينهم لاختيار اثنين منهم .

ونظرت الى القائد قبل أن يبدأ الاقتراع وقلت له فى اصرار :

– لن اشترك فى الاقتراع .

ورفع حاجبيه فى دهشة وتساءل :

– ألا تريد الذهاب ؟

– بل أريد ، ولن ، أشترك فى الاقتراع .. لأنى لا أطيق أن أحرم من الذهاب . لقد كان يجب أن أكون معهم لولا تلك الاجازة المنحوسة التى أبعدتنى عنهم . انى أشعر بأنى غريب بينكم ، فذهابى اليهم لن يكون سوى عودة غريب الى ذويه !

ونظر القائد الى من حوله مستشيرا ، ولكنى أردفت مؤكدا قبل أن ينبس أحدهم ببنت شفة :

– سيدى ، انى أريد الذهاب .

وضحك القائد ثم أجرى الاقتراع لاختيار ضابط يتولى القيام بتلك المهمة .

★ ★ ★

سكون سائد وصمت عميق ، وليل كموج البحر أرخى سدوله ، وسماء ترتجف فيها النجوم وجلة خائفة ، وصحراء امتدت فيها الربى والوهاد ، وبدا

كل ما فيها قفرا فى قفر .. لا تسمع فيها لاغية ، ولا يسرى فيها من علامات الحياة الا بضعة أشباح تطوى الفلاة كأنها الذئاب .

كنت وصاحبى قد تسللنا من المعسكر تحت ستر الظلام وسرنا مطرقين . صامتين . تتبعنا دابتان تحملان الذخائر والمؤن وتطرقان الحصى بجوارها .

كنت فرحا بالعودة الى رفاقى ولكنها كانت فرحة كبتتها رهبة الليل والقفر والخطر المجهول الذى يمكن وراء كل ربوة ومن كل صوت وفى كل شبح .

كنت أدرك تماما المصير الذى سنتردى فيه لو وقعنا فى يد العدو .

وطال بنا السير ، وبدأ صقيع الليل ينفذ الى عظامنا ، وتوترت أعصابنا من طول الارهاف والانصات ، كنا نتوهم فى كل عشب كمينا ، ونتخيل خلف كل ربوة ثلة من العدو تتأهب للانقضاض علينا . وكنا نبصر فى الأفق المظلم أشباحا تروح وتغدو .

وتبادلنا بضع كلمات نقطع بها ذلك الصمت الطويل وننفض بها عن نفسينا تلك الرهبة الجاثمة .

ولكن الكلمات خرجت من فمينا ثقيلة فاترة ، فبددها السكون المحيط قبل أن تبدد هى السكون ! وسرعان ما غرقنا فى الصمت مرة أخرى . وفجأة مزق السكون صوت رصاصة تدوى وتئز . وأعقبتها صيحة أتت من قمة على بعد متسائلة .. ثم عاد السكون فطوى الدوى وأخمد الصياح .

وانطرحت وصاحبى أرضا مصوبين مدفعى التومى الى مصدر الصوت وكتمنا أنفاسنا منتظرين .

ولم تمض لحظة حتى عادت صيحة العدو تشق السكون مرة أخرى ..

ثم أعقبها بعد ذلك وابل من الرصاص تناثر حولنا .

ولم نجد بدأ من أن نجاوب الطلقات للدفاع عن نفسينا وأخذنا نزحف حتى وصلنا الى ثنية قريبة أخفينا الدابتين وراءها وأخذنا نطلق النيران من وراء حافتها .

واستمرت الطلقات تدوى وتئز ، تصوب فى حلكة الليل من مجهول الى مجهول . ثم سمعنا صرخة تحملها الريح الينا خافتة مكتومة ، وسكت أحد المدافع التى كانت تصلينا بنيرانها .

ولم تمض فترة قصيرة .. حتى سقطت قذيفة على مقربة منى ، وأحسست بقلبى ينعصر فى جوفى ، وبأصابعى تجمد على مقبض المدفع .

لقد استشهد زميلى الوحيد !

وسرت فى جسدى رعدة وأنا أرى رأسه تتهاوى على الرمال على أنى ما لبثت بحركة غير ارادية أن مددت يدى اليسرى فقبضت على مدفعه .. وعاودت اطلاقه ، حتى لا يدرك العدو أنه أصابنا بأية خسارة .

ووجدت ذهنى يفكر فى سرعة ماذا يحدث لو أصبت أنا الآخر ؟ ماذا أبغى من استمرارى فى القتال بعد أن أصيب صاحبى ؟

ان مهمتنا ليست الاشتباك مع العدو ، ولكن مهمتنا الاولى هى أن نصل الى قواتنا . ورفعت يدى عن مدفع صاحبى ومضيت أطلق مدفعى برهة . ثم صحت فجأة صيحة مدوية .. كأنما قد أصابتنى احدى طلقات العدو ، وكففت عن اطلاق النار .

ومضت فترة من الوقت .. ورصاص العدو يدوى من حولى دون أن يجد ما يجاوبه .. فاعتقد أنه قد قضى علينا وكف عن الضرب .

وكان أول ما فعلته أن فحصت صاحبى ، فوجدت الدماء تنزف من

جرح فى كتفه .. ولكن أنفاسه مازالت تتردد خافتة متقطعة .. لقد كان على قيد الحياة .

وسحبت جسده ببطء وسكون ، وأخذت أزحف به حتى توارينا وراء كومة من الأعشاب .. وانتظرت فترة أخرى حتى آمن شر العدو ثم رفعت جسده فوضعته على ظهر احدى الدواب وبدأت السير فى حذر ، حتى ابتعدت عن المنطقة التى حدث فيها القتال .

وهكذا عاودت السير وصاحبى الجريح ملقى على ظهر الدابة منهك القوى فاقد الوعى ، حتى وصلت أخيرا الى مواقعنا ، وصلت وحدى ، فلم يبق من صاحبى الا جثة هامدة .

ولم يكن بى وقتذاك من الأحاسيس ، سوى احساس واحد . لقد تبدد من قلبى الفرج ، وتبددت الرهبة ، وكبت الحزن على صاحبى ، ولم يعد يصطخب فى نفسى سوى الرغبة فى الثأر !

كان جوفى يغل بالغضب ، وكنت أود أن أنطلق بين الأعداء فلا أتركهم سوى أشلاء مهشمة .

وتلقانى صوت حبيب الى نفسى يهتف بى :

قف ، « من أنت ؟ » .

وناديت الحارس باسمه ، وذكرت له اسمى ، فهتف مرحبا فى دهشة وذهول ، وسألنى التقدم .

وأنزلت بينهم جثة صاحبى لأوسدها الثرى ورأيت وجهه تشيع فيه علامات الرضا والهدوء ، وأحسست أنى فعلت من أجله شيئا ، انه يستطيع أن يرقد بيننا ، وأن يوسد مثواه الأخير بأيدينا .

ووقفت بين رجالى وقد أحسست بالطمأنينة والأمن ، وشعرت بالثقة

ملء نفسي ، وكأني قد ملكت أقوى أسلحة العالم وأشدها فتكا .

وشاع بين الرجال نبأ مجيئى فسرت فيهم موجة فرح ، وكان الوقت حينئذ قبيل الفجر . وتوجهت الى رياسة الكتيبة لأبلغ قائدها نبأ مجيئى ، ولأتلقى منه التعليمات .

ووصلت اليه وقد انتهى من صلاة الفجر ، فتلقانى بترحيب تشوبه الدهشة واللهفة والشوق ، ورويت له ما حدث .. فأمرنى بأن أذهب لآخذ نصيبى من النوم والراحة .

وغادرت القائد متجها الى مقر سريتى ، ولكنى لم أكد أتقدم خطوة حتى سمعت دويا شديدا وانهال على مواقعنا سيل من قذائف الهاون المدفعية . ان العدو لا شك قد نوى هجوما . وهو يمهد له بقذائفه .

وتسمرت فى مكانى برهة ، ثم وجدتنى أضغط على أضراسى فى غيظ شديد ، ثم عدوت الى موقع سريتى .

لا ضرورة الآن للنوم أو الراحة .

واتخذت موقعى بين الرجال فى أحد الخنادق ، واستمرت القذائف تنهال من حولنا ، وأحسست فى نفسى برغبة وحشية فى القتال . تلك هى فرصة الثأر لصاحبى الذى لم يهدأ بعد فى مرقده .

وأخذنا ننتظر . وأنا أدعو الله أن يكون العدو ينوى الهجوم فعلا ، وألا تكون قذائفه لمحض الازعاج .

وفجأة أحسست بفرحة شديدة تسرى فى جوانحى .
حمدا لله ، لقد بدأ الهجوم !

وكان أول ما فعلت . أن أعطيت أمرا للجنود ألا يطلق أحدهم طلقة

واحدة مهما اقترب العدو منهم . حتى آمرهم بذلك .

ثم بدأت أرقب وأنتظر .. أخذ العدو يقترب ، وجنوده يتسللون الى مانع الأسلاك الشائكة المحيط بمواقعنا . ثم أخذوا يعملون فى احداث ثغرة به لكى ينفذوا من خلاله .

وأتم العدو فتح الثغرة وجنودنا رابضون فى مواقعهم لاتبدو منهم أقل حركة . وساد الربى السكون كأنها خاوية على عروشها حتى خيل الى أنى أكاد أسمع صوت أنفاسهم .

وازدادت أعصابى توترا ، ووجدتى أقرأ الفاتحة وأدعو الله أن يلهم جنودى الصبر والثبات ، فقد كنت أعلم أن المسألة لم تكن هينة . بل تحتاج الى أعصاب من حديد ، اذ من العسير على الجندى أن يرى عدوه قد أضحى منه على مرمى حجر دون أن يحرك ساكنا وظهرت دبابات العدو الثقيلة تتبعها موجات من المشاة ، وأخذوا فى الاقتراب من الثغرة ونحن جاثمون فى صمت عميق .

ولست أشك فى أن العدو قد تملكته النشوة ، وظن أنه أخذنا على غرة واجتازت القوات الهاجمة الثغرة وأخذت فى التدفق نحو مواقعنا محاولة تطويقنا والوصول الى الطريق الواقع خلفنا .

وزاد اقترابهم منا شيئا فشيئا . وأحسست أن أعصاب الأسود الرابضة تزداد توترا وأنهم ينظرون الى فى قلق ، كأنما خشوا أن أكون قد نسيتهم ونسيت المعركة ! .

وأخيرا أضحت المسافة بيننا لا تزيد على خمسة وعشرين ياردة وقد تعرض لنا العدو بجانبه وهو يحاول الالتفاف حولنا .

وهنا أصدرت الأمر بالضرب . وأخذت أرقب المعركة فى هدوء .

اللهم لا شماته ، ولو انى كنت وقتذاك نموذجا للشماتة .

ان الثأر لذيذ ، ولا سيما اذا كان موجها الى من يستحق الثأر الى خائن لئيم غدار ! انطلقت النيران منهالة كالغيث مندفعة كالسيل . تحصد العدو حصدا ، ولم يكن الجنود فى حاجة الى تصويب فقد كانت أجساد العدو أمامهم ، لا يمكن أن تخطئها الطلقات !

وتساقطت الجثث مكدسة بعضها فوق بعض ، فى حين دوت طلقات المدافع المضادة للدبابات فكانت كل طلقة منها تسقط دبابة .

وتوالت موجات العدو . وهى تتكسر على مواقعنا كما تتكسر موجات البحر على الشاطىء . فتصير الى العدم .

وأخيرا ارتدوا على أعقابهم مهزومين بعد أن فرشوا الأرض بجثثهم ، وهم الذين لا يتركون وراءهم قتيلا الا حملوه معهم ..

ولكن أنى لهم الوقت لكى يحملوا تلك الأجداث من القتلى ..

وساد الهدوء مرة أخرى ، ولكنه لم يطل فقد أعاد العدو الكرة . رغبة منه فى مفاجأتنا لاعتقاده أننا قد أخلدنا الى الراحة بعد المعركة ، ولكننا أذقناه من الكأس نفسها !

★ ★ ★

وانتهت المعركة أخيرا وأحسست أن التعب قد أخذ منى مأخذه ، ولكنى علمت أنه مازال على واجب يجب أن أؤديه قبل ان أستريح .

كان على أن أشيع صاحبى الراحل ، ثم أواريه التّراب .

وذهبت الى الجسد المسجى . واعجبا . لقد زاد وجهه هدوءا وغبطة ، وزادت علائم البهجة والرضا .. وأحسست وأنا أراه يثوى فى مقره أنه لا يدفن فى الأرض بل يوضع على هام السحب .

[illegible]

﴿ وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾ .

« قرآن كريم »

تعالى معى نتبع أحمد أفندى الصراف الى مقر عمله . لقد تناول الرجل افطاره من بيضتين مقليتين وقطعة جبن وألقى تحية الصباح على أم أحمد الخادمة ثم هبط بضع الدرجات التى تفصل طابقه عن أرض الطريق ، وتمهل برهة أمام بائع الجرائد حتى ناوله الأهرام ثم حث الخطأ فى طريقه الى المكتب .

ان المسافة بين البيت والمكتب قصيرة لا تستغرق أكثر من عشر دقائق سيرا على الأقدام ، كان البيت فى شارع والى بكوبرى القبة ، وقد دلف أحمد أفندى منه الى شارع ابن سندر وسار بحذاء سور المترو حتى وصل الى المثلث الصغير الذى تلتقى فيه الشوارع المفضية الى القبة وكوبرى القبة والخليفة المأمون وعبر أحمد أفندى الجزيرة وسط الميدان واتجه فى شارع

سكة حديد السويس وبعد هنيهة توقف أمام باب يتوسط سورا ضخما كتب عليه وزارة الأوقاف – تفتيش القبة .

لندع أحمد أفندى يحيى الخفير الواقف على الباب ثم يصعد الى مكتبه ولنتريث برهة لنتجول حول البناء جولة عابرة .

عجيب هذا المكان ، اذ لا تكاد تبدو عليه سيماء المكاتب . فهو سراى عتيقة ، أخنى عليها الذى أخنى على لبد ، أول ما يصالعنا فيها سورها الحجرى المرتفع وبابها الخشبى الضخم ، فاذا جاوزناه وجدنا الحديقة الواسعة جرداء مهملة متربة مشعثة قد بذل فيها جهد ضائع لتشذيبها وسقيها ورسم بعض أحواض الزهور المتناثرة فيها ، ولكن الجهد قد أضال من أن يصل الى أطرافها النائية ويكشف غمة مجاهلها ويزيح عنها أكوام الأتربة والقمامة المتراكمة غير أن الأشجار العتيقة القائمة هنا وهناك من نخيل وجازورينا واستراكوليا والنافورة الحجرية المحطمة تعطى الدليل القاطع على الحديقة كانت فيما مضى غناء فيحاء .

لنترك السلاملك على يميننا فلا أظن سلمه بمفض الا الى حجرتين عاديتين كانتا فيما مضى تستعملان للضيوف ولا شك أنهما يستعملان الآن كحجرات للموظفين ، ولنتقدم الى البناء الأصلى فنصعد درجه الرخامى المستدير ذى الفرعين حتى نصل الى الشرفة القائمة فى صدر البناء والتى تؤدى الى صالة الدور الأول القائم فوق البدروم .

السقف عال ملىء بالزخارف والنقوش . والأبواب تعلوها شراعات زجاجية كبيرة المساحة ، تشعر الناظر اليها بالكارثة التى يمكن أن تحل اذا ما كسرت احداها ، والواقف فى الصالة لا يملك الا أن يتساءل عن طول قامة أهل الجيل الماضى ، وهل كانوا يسيرون فرادى أما كانوا لا يسيرون الا وقد حمل أحدهم الآخر على كتفيه ، والا فعلام كان كل هذا الارتفاع فى الأسقف .

فاذا عبرنا الصالة تاركين الحجرات التى على الأجناب مشغولة بأصحابها من مأمور ووكيل وغيرهما واتجهنا الى الباب المواجه لنا والمؤدى الى السلم الداخلى للبناء لم يصعب علينا بعد ذلك أن نعثر على حجرة أحمد أفندى الصراف .

انها الحجرة التى على اليسار فى الطرقة القائمة على السلم الداخلى أو بطريقة أوضح . دورة المياه فى سالف الزمن عندما كانت السراى فى أوج مجدها .

لنقتحم الحجرة ، أو دورة المياه السابقة ، لاتتأففوا فالمكان نظيف جاف ، لا مياه ولا روائح كريهة ، فقد كف عن استعماله منذ زمن ، والمكان فى حد ذاته مكان ذو فخامة سابقة ومجد قديم .

ألديكم فكرة عن حمامات البيوت القديمة . باب أول . وباب ثان هنا باب أول يؤدى الى حجرة مظلمة صغيرة ملاصقة للحمام الأصلى وتستعمل فى الراحة والاستجمام والهدوء بعد الحمام وقبل الخروج الى الهواء الطلق ، انها الآن فارغة خاوية لا ايوان بها ولا أرائك غير صندوق خشبى عتيق مغلق ، أغلب الظن أنه يحوى دوسيهات قديمة وأوراق بالية . ويصل الحجرة بالحمام باب ونافذة صغيرة فاذا كنت تنوى الصرف وقفت أمام النافذة حيث يطل عليك وجه أحمد أفندى وهو جالس فى الحمام أمام الخزانة ، واذا كان بينك وبين أحمد أفندى معرفة أو كنت من ذ ى المكانة فلتتفضل بالدخول من الباب لتتخذ مكانك على أحد المقاعد أمام أحمد أفندى ، فقط ،كن حذرا ، واحرص على الا تصطدم رأسك بحافة الباب العليا فالباب منخفض وأرض الحمام عالية ، اذ وضع عليها أحمد أفندى مصطبة خشبية تقيه رطوبة الحمام ، على أية حال . سيحذرك أحمد أفندى عند الدخول ، ولكن عند الخروج ، ستشج رأسك ، لأنك ستنسى وسينسى أحمد أفندى .

نحن الآن ، فى الحمام باعتبار ما كان وفى حجرة خزانة وزارة الأوقاف قسم القبة باعتبار ما هو كائن .

الحجرة لطيفة ، ألطف ما بها سقفها المحدب الشبيه بالقباب والمقسم الى فجوات بكل منها طاقة صغيرة مغطاة بقطعة مستديرة من الزجاج الملون ، ولذا فقد تدهشك – اذا لم تكن لديك فكرة عن الحمامات القديمة – تلك الأضواء المنبعثة من السقف المختلفة ألوانها كأنها قوس قزح .

والمكان قد اختلط فيه عز تالد بذل حاضر ، فالى جانب السقف ذى الأضواء الملونة ترى الضوء الأبيض ينبعث من بضعة فتحات تحطم زجاجها ، يعلم الله ما يعانيه أحمد أفندى منها فى يوم مطير ، والى جانب رخام الأرض ترى الجدران وقد عبثت بها فرشاة الجير وترى بقايا حوض ركبت عليه طرف ماسورة نزع عنها الصنبور وأغلقت بطابة حديدية .

أما محتويات المكان فلا تزيد عن الخزانة الحديدية التى لا ينسى أحمد أفندى أن يغلقها اذا خطا خارج الحجرة خطوة واحدة . وبجوارها دولاب وضعت فيه زجاجات حبر وشمع أحمر وأوراق وسجلات ونماذج وأمام الخزينة مكتب أحمد أفندى ومقعد أحمد أفندى ، وأحمد أفندى نفسه .

لنتأمل أحمد افندى برهة وهو مكب على رصد بعض الأرقام فى احدى الاستمارات ، ان عمره – من مظهره – يتراوح بين الأربعين والخمسين وان كان فعلا لم يتجاوز الأربعين وهو شديد نحول الجسد نحولا من درجة :

أن فى بردى جسما ناحلا لو توكأت   لو توكأت عليه لانهدم

أو

كفى بجسم نحولا اننى رجل   لولا مخاطبتى اياك لم ترنى

بارز عظام الوجنتين . مطبق الأصداغ ، لايفتأ بين آن وآخر يحرك

فكيه متحسسا طقم الأسنان الجديد ، وفوق عينيه ثبت منظاره السميك ذا الاطار الذهبى ، وهو أفخم ممتلكاته الظاهرة ، اذ تبدو الرثاثة والاهمال جلية فى بقية ثيابه من أول طربوشه حتى حذائه رغم الياقة القطيفة التى وضعها لمعطفه والجتر الذى غطى به قدميه .

ولم يكن أحمد أفندى بالرجل الفقير . بل هو رجل ، مبسوط ، يستمد بسطته من ناحيتين أولاهما غنى النفس وقناعتها وزهدها وحمدها الدائم لنعمة الله وثانيها أن الفقر لا يقاس بضآلة المرتب بل بالفارق بين الدخل والمنصرف ، وقد يكون دخله قليلا ضئيلا ولكن مصروفاته أقل وأضأل ولذلك فان ميزانيته دائمة التوازن ، لم تختل مرة واحدة بل ان لديه احتياطا مدخرا مستمر الزيادة .. زيادة قد تكون ضئيلة ولكنها ثابتة ومستمرة .

ان أبواب الصرف لديه لا تتعدى المأكل والمسكن ، فليس لديه أسرة يعولها ، بل هو كما يقولون مقطوع من شجرة ، لم يقدم على الزواج ، لأنه لا يستطيع أن يقدم على شىء أبدا بل هو من نوع منتظر ، مستسلم ، يعتقد أن ما كتب سيكون .

واذا كان الله يريد له الزواج فسيرزقه بابنة الحلال وليس عليه سوى الصبر والانتظار وزيادة الاحتياطى الذى يدخره لمهمة الزواج .

أما باب النزهة والشبرقة – فقد كان ضمن الأبواب المجانية ، التى لم يرصد لها مليما واحدا فقد كانت نزهته الدائمة هى ، الشلة ، أو الجمعية . وهى رهط من أترابه يجتمعون كل يوم فى منزل أحدهم ليشربوا القهوة ويقرأوا بعض الكتب الدينية .

ووضع أحمد أفندى الريشة وجفف الحبر بالمنشفة الخشبية العتيقة ثم مد يده بالاستمارة الى الفراش وقال له :

– امضها من على أفندى ومن زكى بك وأحضرها ثانية . وغادر

الفراش الحجرة وأخذ هو يقلب بضع أوراق أمامه ويرصها بانتظام حتى وقع بصره على النتيجة المعلقة على الحائط ، فتوقف برهة ، وأخرج الساعة من صديريته ونظر فيها ، ثم أعادها وعاد يقلب الأوراق وقد بدأ عليه شيء من الاضطراب وشرود الذهن . بقى ربع الساعة ، فاليوم هو السادس والعشرون ، والساعة الثانية عشرة الا ربعا ، ان موعدها مضبوط لم يختلف مرة واحدة حتى ليستطيع أن يضبط عليها ساعته .

أمرها عجيب ! .. أم ترى أمره هو العجيب .. بل ان أمرهما معا لعجيب .

أما عن أمرها ، فعجيب فيه ، تلك الدقة وذلك الانتظام ، الساعة الثانية عشرة فى اليوم السادس والعشرين من كل شهر ، تدق الساعة مع دقات قدميها ، ولكن أى عجب فى ذلك ؟

أى عجب في أن تحضر لتقبض المبلغ الممنوح لها من خيرات الأوقاف فى موعد بذاته وأن تواظب على ذلك الموعد .

لا ، لا ، ليس هذا هو العجيب فى أمرها ، ولكن العجيب ، فيها نفسها وفى ذلك الجو الذى يحيط بها .

ذلك القوام الطويل المتشح بالسواد من قمة رأسه الى أخمص قدميه والوجه المحجوب باليشمك الأبيض وقد بدأ منه الحاجبان الأسودان المقرونان والعينان اللتان مازالتا يشع منهما البريق رغم تلك الخيوط الحمراء الرفيعة التى جرت بها يد الزمن ورغم تلك الغضون التى خطها الكبر حول جفنيها .

كانت تدخل الحجرة المتواضعة لتتخذ مكانها أمام النافذة الصغيرة حتى تتسلم بضعة جنيهات - كأى فقير ألجأته الحاجة ودفعه العوز الى مد يده لتلقى بعض الاحسان - فاذا الحجرة قد ملأها جو عجيب من العظمة والارستقراطية ، واذا بالسيدة السائلة تبدو وكأنها سلطانة كريمة تفرق على

من حولها من المعوزين البؤساء .

كانت تمد يدها من النافذة بالسركى ، فكان ينعم النظر فى يدها ويأخذ فى كل مرة بدقة تركيبها وجمال صنعها وصفاء بشرتها ، انت اليد طويلة مسحوبة والأصابع دقيقة منتظمة .

وكان يتناول السركى ، فيمر عليه ببصره مرا سريعا ، ويتوقف برهة أمام اسم صاحب المرتب ، « نور مثال عصمت جمال الدين » .

ثم يرفع اليها عينيه فتحنى رأسها بتؤدة وتقول له فى صوت خفيض هادىء :

- نهارك سعيد يا « بك » .
- نهارك سعيد يا هانم .

اذا كانت قد منحته « بك » أكثير عليه أن يمنحها « هانم » وهى الجديرة بلقب أميرة أو سلطانة .

ويسألها ثلاثة قروش ثم يمد يده بالأربعة جنيها وبالاستمارة حتى توقع عليها ، فلا تكاد توقع حتى تحيى وتنصرف .

ويظل ذهنه يتبعها بعد أن تختفى ، فيراها تهبط الدرج الرخامى ومن حولها الأتباع وتسير وسط الحديقة اليانعة الباسقة وتتقدم الى الباب حيث العربة المطهمة قد وقفت في الانتظار ، وتستقر مكانها وتنطلق بها العربة يعدو أمامها الخواص .

أجل ، لا أقل من ذلك ، انه لا يستطيع أن يتصور الا كذلك .

انه لا يستطيع أن يتصورها تجر ساقيها على الأرض وتثير الغبار بحذائها البالى وطرف ثوبها الممزق المرتوق ، وقد أخذت تتوكأ على مظلتها العتيقة .

وغاد احمد أفندى ينظر الى ساعته ، « بقى خمس دقائق » لقد بات على مر الأيام ، ينتظر حضورها ، اذا أضحت تهيىء له نوعا من الاحساس ، يشبه الى حد كبير ذلك الاحساس الذى كان يتملكه عندما يجلس فى ليالى الزفاف وهو ما زال صغيرا فيرقب العرائس فى أبهى حللهن وأكمل زينتهن . أو عندما كان يقف على قارعة الطريق فيرقب احدى عربات الأميرات تمر أمامه ولمح من وراء الزجاج الوجه المحجوب باليشمك

ودقت الثانية عشرة ، وانتظر أن يسمع وقع أقدامها ، ولكن الدقائق أخذت تمر حتى بلغت النصف بعد الثانية عشرة دون أن تحضر . وعاد الى داره ، وهو يحس بضيق لم يتعوده ، وأخذ يتناول الغداء بلا شهية ، ثم جلس على الأريكة يستريح وأخذ يرقب أم أحمد ترفع بقايا الطعام ، وشعر برغبة شديدة فى أن يحدثها عن « نور مثال » لقد كان يود بطريقة ما أن يفرغ بعض ذلك القلق الذى يملأ صدره ولم يدر كيف يبدأ الحديث ، ولا سيما أنه يخشى أن تظن المرأه به سوءا ، أو أن تتوهمه يكن لهذه السيدة أحساسا خاصا .

ولكنه - رغم خشيته - لم يستطع الصمت ، فقال بطريقة عابرة :

- أتذكرين هذه السيدة التى حدثتك عنها ذات مرة .
- أية سيدة ؟
- التى قلت لك أنها تحضر دائما فى ساعة مخصوصة فى يوم مخصوص

ما لها ؟

انها لم تأت فى موعدها اليوم .

- ربما عاقها عائق.
- مثل ؟
- المرض .
- مسكينة ، من تظنين يرعاها اذا مرضت ؟

- أهلها وأقاربها .
- لا أظنها بذات أهل أو اقارب .
- من ادراك .
- لو كان لها لما لجأت الى الأوقاف .
- لها ربنا يا أحمد أفندى ، لا تشغل نفسك بهموم الناس .

وانتهى الحديث عند هذا الحد ، وكان هذا اقصى ما استطاع أحمد أفندى أن يفعل لتخفيف قلقه على السيدة الغائبة ، وكل ما كان عليه أن يفعل بعد ذلك هو أن ينتظر شهرا آخر .

ومرة أخرى جلس ينتظر عقربى الساعة ليلتقيا عند الثانية عشرة ولكنه فى هذه المرة لم يخذل ، فقد وصل الى أذنيه وقع أقدامها ، بطيئا متثاقلا ولكنه جميل فى أذنيه لا يخطئه قط .

ووقف أمام النافذة ومدت يدها بالسركى فتاوله أحمد أفندى وقال بمنتهى الأدب .

- حمدا لله على السلامة ، انك لن تأخذى شهر يناير ، لقد اضطرنا الى أن نضعه فى الأمانات أظن أنك ستضطرين الى الانتظار بعض الوقت حتى تصرفه من الأمانات ، تفضلى اخفضى رأسك قليلا حتى لا تصدم بالباب ، أجل هكذا ، اجلسى ، استريحى على هذا المقعد حتى أنهى لك المسألة ، لا تؤاخذينا على ضيق المكان ، انه كان فيما مضى حماما ، أتشربين قهوة .

- كتر خيرك . لا داعى للتعب .
- يا محمود ، محمود ، هات قهوة للهانم ، أهلا وسهلا .

وانهمك أحمد أفندى فى الكتابة حتى يعجل بصرف مبلغ الشهر السابق

وان كان انهماكه فى الكتابة لم يمنعه من أن يسترق النظر اليها من آن لآخر .

لقد كانت المرة الأولى التى يراها فى الضوء على مقربة ، واستطاع أن يكشف بسهولة عن رثاثة ثوبها وآثار البلى والرتوق التى به وبنظرة سفلية كشف حذاءها البالى العتيق ... واستطاع كذلك بسهولة أن يبصر غضون وجهها وعروق يديها .

ومع ذلك ، لم يقلل ما أبصره من قيمتها فى نفسه ، لقد ظلت كما هى الأميرة الكريمة ، والسلطانة العريقة الأصل الرفيعة الشأن .

وانتهى من اجراءاته ، ووقعت بامضائها على ما أراد وتسلمت النقود وهمت بالرحيل ، ولكنها قبل أن تغادر الحجرة ، ترددت برهة ، وبدا كأنها تود أن تقول شيئا .

ووقف أحمد أفندى ينتظر ما تريد ، وبعد برهة صمت قالت فى تردد مشوب بكثير من حياء :

– هل أستطيع أن أشاهد الدار . وأجول جولة فى الحديقة .

ونظر الرجل اليها فى دهشة ولكنه أجاب بلا تفكير :

– أجل ، أجل ، تستطيعين بالطبع ، وان كنت لا أرى شيئا بها يستحق الرؤية .

وخرجا الى الصالة فوقفت تتأملها برهة ثم أشار هو الى الحجرات قائلا : هذه حجرة المأمور ، وهذه حجرة الباشكاتب ، وهذه حجرة الكتبة ، هل ترغبين فى رؤيتها .

– لا ، لا ، لا داعى لازعاجهم ، انى أريد أن ألقى نظرة عابرة هل أستطيع الآن أن أجول فى الحديقة .

– الحديقة . انك ستلوثين نفسك بالقمامات والأتربة وهبط معها فجالا وسط أكوام الأتربة والأخشاب والحجارة ثم ودعها الى الباب . ولم ير بالطبع العربة المطهمة ولا الخيل الأصيل ومع ذلك فقد استمرت هى ، هى الأميرة العريقة .

وفى تلك الليلة ، رأى لأول مرة ذلك الحلم العجيب ، لقد وجد نفسه بباب البيت ذات صباح وهو يسير فى طريقه الى المكتب ، ولكنه لم يكد يبتعد عن البيت حتى وجد نفسه لا يسير على قدميه بل يمتطى صهوة جواد أصيل ، يملأ المكان صهيلا ونهنهة ، ووصل به الى شارع المترو ولكنه لم يجد هناك أثرا لامترو بل وجد فى المنحدر العميق الذى يجرى فيه المترو أسفل الكوبرى نهرا منبسطا عريضا تجرى فيه المياه هادئة صافية ، وسار كعادته بجوار النهر متجها الى الميدان ، ولكنه أحس بوطأة الشمس تشتد وأصابه العطش فهبط من فوق الجواد ليشرب من ماء النهر .

ووقف برهة يعجب من نفسه ، لقد كانت ملابسه تثقل عليه ، كان يلبس حذاء طويلا ودرعا كفرسان العصور الوسطى وكان يضع على رأسه خوذة من الصلب .

وأخذ يهبط فوق المنحدر حتى وصل الى حافة الماء فانحنى فوقه وأخذ يعب بفمه حتى ارتوى . وهم بالصعود ولكنه تذكر أن هناك وعاء جلديا للماء مثبتا بسرج الجواد وخطر له أن يملأه بالماء ليستعين به وقت الحاجة . وملأ خوذته بالماء حتى يفرغها فى الوعاء الجلدى ولكنه لم يكد يصعد الى الطريق حتى كان معظمه قد سكب ولم يكن قد بقى منه سوى قطرات ، ولم ييأس بل أعاد الكرة . واستمر يهبط ويصعد عائدا فى كل مرة ببضعة قطرات حتى ملأ الوعاء ثم ركب الجواد وواصل السير .

وطال به السير حتى وصل الى الميدان فاذا به قد اتسع حتى أضحى

صحراء واسعة مقفرة ولم يعد هناك أثر للنهر ، وأحس بالقيظ يشتد ، وتلفت حوله فلم يجد شيئا يستظل به فأمعن في السير ، حتى لاحت له في الأفق واحة مليئة بالنخيل والأشجار . فاستحث الجواد اليها . وأحس بريقه يجف وبظمئه يشتد ، فهم بأن يبل ريقه من وعاء الماء ، ولكنه خشي أن يجد الواحة سرابا ، وصمم أن يحتفظ بالماء حتى يتبين حقيقتها .

واستمر في السير ، ممسكا الوعاء بحرص ، وقد ضن على نفسه بقطرة ماء منه ، حتى يبلغ هدفه .

وفجأة وجد جواده يجفل ، وتلفت حوله فاذا بجسد امرأة يجثو فوق الرمال ، ولم تكد تحس اقترابه حتى رفعت اليه رأسا أشعث وعينين غائرتين ومدت اليه ذراعيها وهتفت به :

- ماء ، جرعة ماء .

وببساطة ، وبلا أقل تفكير ، مد يده اليها بالوعاء ، وأخذ ينظر اليها وهي ترفعه الى شفتيها وتفرغه في جوفها ، وقد ملأه احساس بالسعادة والهناء ، وكأنه هو نفسه قد ارتوى .

ونظر الى الأفق فاذا بالواحة قد اختفت ولم يعد هو يحس أنه في حاجة اليها ، لقد بلغ مأربه ووصل الى هدفه وليس لديه من حاجة الى السير أبعد من ذلك ؟

ومد يده الى المرأة فرفعها بجواره على الجواد ، وضمها اليه برفق وحنان وأدار جواده وعاد من حيث أتى .

واستيقظ من نومه . ووجد نفسه يذكر الحلم بكل تفاصيله وحذافيره وقد تملكت منه دهشة شديدة ، وأخذ يقصه على أم أحمد في أثناء افطاره ، وهزت المرأة رأسها في استخفاف وقالت :

- أضغاث أحلام ، لا تعد بعد ذلك الى أكل المدمس في العشاء انه هو الذي أثقل على معدتك .

ولم يعد فعلا الى أكل المدمس في العشاء . ولكن الحلم عاد فلح عليه فرآه في الليلة التالية تماما كما رأى في الأولى .

واستمر يراه الليلة بعد الليلة حتى حل اليوم السادس والعشرين من الشهر ودقت الساعة الثانية عشر وأبصر ، نور مثال ، تقف أمامه وقفتها في كل شهر ، ونظر الى وجهها فوجد به بعض الشحوب والهزال وعندما سلمها النقود سألته :

- أأستطيع أن آخذ بضعة شهور مقدما . اني أحس ببعض التعب وقد لا أتمكن من الحضور في الأشهر التالية . وأنا في حاجة الى نقود . وبغير أن يفكر وجد نفسه يجيب :

- بالطبع . تستطيعين أن تأخذي مقدما ما تشائين .

كان أبله . عندما أجاب تلك الاجابة . فأي صراف مهما بلغ به الجهل يعرف أنه لا يملك أن يصرف مقدما مليما واحدا . ولكنه مع ذلك مد يده الى الخزينة وسلمها عشرة شهور مقدما . أي سلمها كل ما كان بالخزينة وقتذاك .

وتناولت النقود وأحنت رأسها شاكرة . وقبل أن تنصرف وجدها تتوقف . ويعلو وجهها شحوب مفاجيء ثم سألته بصوت مبحوح :

- ماء . جرعة ماء .

وأحس بقشعريرة تسري في جسده . ووجد نفسه دون أن يدري ينظر الى ملابسه ويدق بقدمه على الأرض .

لا ، لا ، انه مازال يرتدي البدلة ويجلس على المكتب ... بلا جواد ولا

صحراء . ومد يده الى كوب أمامه فناولها اياه ورفعته الى شفتيها وأفرغته في جوفها ثم نظرت شاكرة وأولته ظهرها وانصرفت ، ولم تكد تنصرف حتى أسرع يغلق الخزينة . وانطلق الى البيت . لقد كان عليه أن يرد المبلغ الذى أخذه . وبعد برهة رجع الى المكتب وأعاد الى الخزينة كل ما يملك من احتياطى كان يدخره لوقت الحاجة .

وغادر المكتب مرة أخرى ، وهو يحس أنه قد بات قرير النفس ناعم البال شيئا واحدا كان يجب أن يرده الى السيدة . وهو السركى الذى نسيته فى مكتبه . ولم يصعب عليه العثور على عنوانها . وقبل أن يتناول الغداء كان يطرق باب الغرفة التى تقطن بها فى حمامات القبة .

وفتحت له خادم صغيرة ، وقفت تسأله عمن يكون ، فلما علمت أفسحت له الطريق وأنبأته أن السيدة أصابها اغماء عقب عودتها من الأوقاف فى الظهيرة ، وهى راقدة فى الفراش ولكنه مع ذلك يستطيع رؤيتها فهى تتوقع مجيئه ، وتقدم اليها وقد تملكته رهبة شديدة . فاذا بها مسجاة على فراشها شاحبة الوجه واهنة القوى ، ولم تكد تحس وقع أقدامه حتى فتحت عينيها وأشارت له بالجلوس .

وجلس بجوارها ، ومد يده اليها بالسركى فأشار له أن يضعه على المائدة وقالت فى صوت خافت ، لا أظن بى حاجة اليه بعد ذلك ، لقد تركته لكى تحضره ، ان لابد لى من ذلك ، حتى أراك مرة أخرى قبل أن أرحل ، ولم ينبس ببنت شفة ، لقد بدأ له كأنه فى حلم ، نفس الحلم الذى يراه كل ليلة ، لقد استطاع الآن أن يميز ذلك الوجه الذى كان يسأله الماء ، وعادت المرأة الراقدة تهمس :

– انك تبدو غريبا فى هذه الثياب .. وفى هذا المنظار والطربوش . لقد تعودت أن أراك دائما فوق جوادك بالخوذة والدرع كأنك أحد فرسان العصور

الوسطى ، كنت دائما تأتى لانقاذى ، تبل حرارتى وتندى شفتى ثم ترفعنى اليك وتحملنى على جوادك وتضمنى الى صدرك ، ما أحسست قط فى حياتى بنعمة الاستقرار الا بين ذراعيك ، فقد قضيت كل هذه السنين الطوال فى البؤس والمسغبة . كنت أكاد أتضور جوعا ، حتى من الله على ببضع جنيهات من الأوقاف ، من كان يصدق هذا ، من كان يصدق انى سأعود مرة أخرى الى قصرنا لأتسلم حسنة ، هل تعرف ان تلك المكاتب التى تجلسون فيها كانت مرتع صباى فى زمن مضى ، أتذكر عندما سألتك أن تمنحنى فيه جولة ، لقد كنت أبصر بعين الماضى ، ما وراء أكوام القمامة والحجارة والأتربة ، كنت أبصر الحديقة الغناء التى طالما لهوت فيها ، والنافورة التى طالما عبثت بمياهها انى أحس بقرب النهاية ويبدو لى أن من الخير أن أعيد اليك النقود التى أخذتها منك . لقد كنت أتمنى أن أسدد بها بعض الديون ، وأن أهيىء لنفسى ميتة كريمة ، ولكنى أخشى أن أضعك فى مأزق وأسبب لك حرجا ، فخذ النقود ، انها تحت الوسادة .

وأغمضت عينيها مرة ثانية ، فرفع يدها الى فمه ومسها بشفتيه وعادت تفتح عينيها ، فهمس فى رفق : لا عليك من بأس ، دعى الأمر لى .

وماتت نور مثال .. وبكاها الرجل بأحر ما بكى .. وهيأ لها ميتة كريمة ، قدر ما استطاع .. ولم يكف عن زيارة قبرها .. ولا عاد ينتظر بعد ذلك زاجا .

بين حي وميت

﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

« قرآن كريم »

هل تسمعني .

تسمعني أو لا تسمعني .. لابد لي من الحديث اليك .. انه حديث شماتة .. وليس أحب الى نفس من الشماتة فيك .

أي باعث على الشماتة أكثر من رقدتك وأنت لا شيء .. ووقفتي الموحشة بين الرمم البالية والعظام النخرة والجيف النتنة بلا حراك ولا قوة ولا حول ولا طول ولا جاه ولا سلطان .. ولا .. ولا .. شيء أبداً .

كيف يكون بك شيئا ، وأنت نفسك أصبحت لا شيء .

أي باعث على الشماتة أكثر من رقدتك وأنت لا شيء .. ووقفتي وأنا كل شيء .. أنا حي ، وأنت ميت .

وبين الحي والميت كثير ، كثير ، أكثر مما يمكن حصره .

أقف منك على قيد خطوات ، وبينى وبينك من المسافة شىء قليل ، أما من حيث الوقت ، ومن حيث القدرة ، فبيننا مالا يحصى ولا يقدر ، بينى وبينك ، حياة ، مديدة ، طويلة ، حافلة زاخرة ، مورقة ناضرة ، بينى وبينك ، ما بين العيش والفناء ، والخلق والعدم .

انك لا تستطيع حتى أن تتألم أو تتوجع ، انك لا تملك الا الرقود والاستسلام ، أريق عليك نقمتى فلا تستطيع لها ردا ، وأصب عليك جام غضبى فلا تملك له دفعا ، أيها العاتى الجبار ، أية شماتة أحس بها وأنا انظر اليك ، تتمرغ فى الذلة والعجز والمسكنة وترقد وكلاب الأرض سواء بسواء .

هل تسمعنى ؟ .. لا بد أن تسمعنى ، فلست أريد أن يذهب حديثى بددا ، لن تتم شماتتى فيك وسخريتى منك الا اذا اطلعتك على خبيئة صدرى وأوصلت الى مسامعك حقيقة أمرك وأمرى ، كنت تتصامم فيما مضى عن أنينى وشكواى وأنت العلى القدير ، أما الآن فلتنصت الى شماتتى وأنت الذليل الحقير .

اذا لم تكن تسمعنى وأنت حى ، فلتسمعنى وأنت ميت .

اسمعنى : أيها الجسد الفانى والرمة البالية .

اسمعنى : لا أسمعك الله صوت رحمته ، ولا أسكنك الا سعير جحيمه .

اسمعنى . فلطالما تاقت نفسى الى أن تقضى بما سوف أفضى به اليك .

اسمعنى : صاغرا مطيعا ، بلا احتجاج ولا شكوى .

اسمعنى : أنا الحاكم بأمرى فيك ، وفى كل سلطانك وجاهك ومالك الذى كددت فى جمعه ، وشقيت فى تقديسه .

اسمعنى : انا الآمر بطردك من الحياة .

اسمعنى : أنا قاتلك ، ومعدمك ومفنيك .

★ ★ ★

أدهش أنت من قولى هذا ؟ ساخر أنت منه منكر له ؟

يبدو لى أنك تود الاحتجاج والتكذيب وأنك تستكثر على ، أنا العاجز الأبله ، أن أضع بيدى هذه نهايتك وأن أنهى مصيرك وأقرر خاتمتك ، انك تستكثر من جريمة قتل ، وقتل من ؟ قتلك أنت ، سيد الأشرار ، وشيخ الفجار .

انها مذلة جديدة لك . وعار آخر يلحقك . ان تعلم أنك مت بيدى أنا . وانى أنا طاردك من الحياة . حارمك من نعيمها .

ولكن ألم يسبق لك طردى وحرمانى ؟ . لقد رددت لك الكيل على غير انتظار منك ولا توقع ، واحدة بواحدة ، والبادى أظلم ، والمنتهى أربح ، وأنت البادى وأنا المنتهى ، أنت أكثر ظلما ، وأنا أكثر ربحا .. ما رأيك يا أبتاه ؟ ..

أبتاه ؟ . ها .. ها .. ها ..

دعنى أضحك يا أبتاه ، فما أظن هناك نكتة أروع من أن تكون أنت أبتاه .

ها .. ها .. ها .. يا أبتاه .. يا أبتاه .

أنت أبتاه ؟ والله ما أظن قولى لك يا أبتاه ، الا من باب تسمية الشىء

بضده كما تقول على الزفت بياض وعلى الفارغ المليان .

أنت أبى من باب الزفت والفارغ ، بل ان قلبك لأشد من الزفت سوادا ، ومن الفارغ فراغا . كيف كنت ، وكانت حياتى معك ؟ كيف كانت أبوتك ؟ وكيف كان عطفك وحنانك ، دعنا نتذاكرها سويا ، على سبيل التندر والتسلية .

الديك مانع ؟ لا أظن ، وحتى لو كان لديك ، فما أظنك تستطيع اعلانه فأنت هنا كما ترى ، سميع مطيع ، راضخ ذليل .

أما أنا فلست بمتعجل فراقك . فالوقت أمامى فسيح والحياة طويلة ، ولا بأس من بضع لحظات نتسامر فيها سويا ، أنعم فيها بمناقشتك الحساب ، وأنت الذى طالما ناقشتنى الحساب . وأبيت على الجواب ، انى لأذكرك منذ طفولتى ، ومنذ بدأت الوعى والادراك ، شبح مخيف وظل سمج ثقيل ، بينى وبينك حجاب كثيف من الخوف والرهبة ، اذا حللت بالدار لم أجرؤ على اللعب والحراك ، خشية ازعاجك ، واذا نمت فلابد لى من الانطواء فى الفراش والتناوم حتى لا تقلقك حركتى ، وما أظننى أذكر انك حملتنى بين يديك مرة واحدة ، أو ربت على ، أو لاطفتنى بما يلاطف الآباء بنيهم بل كنت تعتبرنى كقطعة من أثاث الدار .

ولو كانت لى أم ، لما أحسست بمبلغ جفائك وقسوتك ، ولعوضتنى عن اهمالك وهجرك ، ولما نشأت كما نشأت نفورا مستوحشا ، ولما أصبت بذلك الانطواء والخوف من الناس حتى أضحيت بينهم أبلها شاذا .

أجل ، أجل ، انك السبب فى كل ما أصابنى ، وما جعلنى أبدو مخلوقا ، ناقص العقل ، أو نصف آدمى .

انك السبب فى علتى الأولى ، التى جعلتنى أتهم بالبله ، ذلك البله الذى يجعلنى لا أتحكم فى قضاء حاجتى .

أتذكر عندما كنت أرقد فى حجرتى فى الغرفة ذات الشرفة المطلة على الحديقة ، وكنت تأمرنى بأن أرقد وحدى وأنا طفل حتى لا أتعود الجبن ، ولقد تحملت النوم وحدى وقتذاك رغم ما كنت أشعر به من خوف شديد ، ورغم ما كنت أتوهمه من سماع أصوات مخيفة تطرق أرض الشارع وتسير فوق السطوح .

كل هذا كنت أحتمله . ولكن الشىء الذى كنت أعجز عن احتماله هو أن أذهب وحدى الى دورة المياه الكائنة فى الركن الآخر من المنزل عندما أحس برغبة شديدة فى قضاء حاجتى خلال الليل ، ولذلك فقد كنت أذهب الى أم أحمد الخادمة فأوقظها لتصحبنى الى هناك . ولكن حدث ذات مرة أن أيقظك صوت ايقاظى لأم أحمد فهببت من نومك وصحت نسأل عما هناك ، وعندما أنبأتك بجلية الأمر ثارت ثورتك ونهرتنى نهرا شديدا وأمرت أم أحمد بألا تذهب معى وأنبأتنى بأنه يجب على أن أذهب وحدى حتى لا أكون جبانا .. ولم أذهب وحدى بالطبع ، فقد كان هذا فوق استطاعتى ، وفضلت أن أبقى فى الفراش ، وفى الصباح وجدت الفراش مبتلا .

وتعودتها ليلة بعد ليلة ، أكبت حاجتى ليلا ، حتى أفقد السيطرة على نفسى ولم أستطع التخلص من العادة أو قل الداء . حتى نموت ونمت العلة معى واتهمت بالبله .

ذلك وغيره من سوء معاملة وزجر واتهام بالغباء والبله هو بداية ما أنزلت بى فى الصغر وما أهلنى لان أكون بين الصبية ناقصا شاذا ، فلما بلغت سن المراهقة ، وبدأت أدخل فى دور الرجال .. سددت الى ضربة لو أن أشد أعداء صبى مراهق فى مثل سنى رغب فى القضاء عليه لما سدد اليها مثلها .

لقد بدأتهابزواجك ..
وحاشاى أن أنكر حقك فى الزواج .. وحاشاى أيضا أن أزعم انى كنت

أتوقع من امرأتك عطفا أو حنانا أو حسن معاملة .. حاشاى أن أكون حسن الظن الى هذا الحد .. لقد تقبلت زواجك كضرر لابد منه .. واعتبرته حلقة من سلسلة حياتى المثقلة بالهموم .

ولكنى لم أكد أتوقع قط .. أن يكون ضربة قاصمة لى .. أو أن تكون الضربة من مثل هذا النوع السخيف المشين .

ترى بأى شيء أعلل تصرفك .. أو تصرفكما أنت وزوجتك معى ؟

أكنت مجنونا .. أم جاهلا .. أم أحمق .. أم خبيثا .. أم شيطانا رجيما ؟

أن كل سوء ارتكبته معى يمكن تعليله وارجاعه الى ناحية معينة من سوء خلقك .. فحرمانك لى وأنت الغنى المقتدر .. يرجع الى بخلك .. وقسوتك على وزجرك لى .. قد يمكن تعليله بصرامة طبيعتك وشدة قسوتك .. واهانتك وضربك اياى قد يعلل برغبتك فى اصلاحى وبسوء فهمك لأصول التربية والاصلاح .. وكل شيء .. كل شيء .. يمكن ارجاعه الى علة معينة .. مهما كانت خاطئة .. ولكن أية علة يمكنك أن ترجع اليها .. اغرائى بزوجتك .. واغرائها لى ..

ألم يكفك ذلك الاغراء الصارخ .. فى جسدها .. حتى تفتعل معها أوضاع الاغراء .. وأنت الرجل الجاد الصارم .

ألم يكفك انك تزوجتها هى بالذات .. وهى أبعد ما تكون عن ملاءمتك سنا وطبعا . أنت الكهل الصارم الجاد .. وهى الشابة المتعطشة الفائرة التى تتفجر أنوثة ورغبة ..

ألم يكفك أن تسلط على سطوة اغرائها الطبيعى .. حتى تتعاون معها على الايقاع بى وتحطيمى ، انى عندما أفكر فى هدوء .. يبدو لى أنك كنت ألعوبة فى يدها .. ولكن أين عقلك .. وكيف يصل بك البله الى الحد الذى

تغمض عينيك عن تأثير ذلك الاغراء فى .. فتنساق معها وتجاريها ؟

لقد كانت خطة محكمة موضوعة لاثارتى واغرائى وتمزيق أعصابى وتحطيم قواى واطاشة صوابى ، وقيادتى الى الجنون ، ولقد أفلحت الخطة ، أو كادت ، لولا أن أنقذت نفسى وأوديت بك .

بدأت الخطة .. بعرض منها لفتنة جسدها .. عرضا يبدو غير مقصود .. وان كنت أقسم أنها كانت تعنى منه كل حركة .

كان لا يحلو لها الانحناء الا أمامى .. وهى ترتدى قميصا متسع فتحة الصدر .. وأنت تعرف صدرها المكتز وثدييها الممتلئين .. فلا تكاد تنحنى حتى تتسع فتحة القميص ويسقط ثدياها الثقيلان ككراكتين من العجين . وأحس بريقى يجف وبالدم يتصاعد الى وجهى ولا أملك الا الفرار وأنا ألهث اضطرابا ونشوة .

أما جلستها فقد كانت تحكمها فوق الأريكة ، ثانية احدى ساقيها تحت ردفها ، ثانية الساق الأخرى وركبتها الى أعلى بحيث أستطيع أن أبصر بسهولة باطن فخذيها حتى حافة السروال المشغول بالتنتنة .

وهكذا بدأ الهجوم بعرض الأوضاع .. الفاتنة الفاتكة .. ثم أخذ يتدرج .. باشتراكك معها .. فى فتنتى واغرائى ..

كنت أستيقظ فى الصباح فأسمعك تنادينى من حجرتك طالبا كوب ماء .. تنادينى أنا وحدى .. دون سائر الخدم .. فلا أكاد أدخل عليك بالكوب حتى أفاجأ بك فى الفراش وهى فى أحضانك وقد تبعثرت ثيابها الداخلية على الأرض .. مفسرة قطعة قطعة ، فلا أكاد أغادر الحجرة .. حتى آخذ فى تصور كل شيء . أكنت تظننى طفلا .. أم أبله .. أم كنت تعنى تدميرى ؟

لقد كانت تدخل الحمام لتستحم .. فلا تكاد تمضى بضع دقائق حتى

تصفق بيديها فى طلب حاجة .. لوفة .. أو صابونة أو قطعة من الملابس .. فاذا لم تجبها الخادمة .. أمرتنى زجرا بأن أذهب لأعطيها ما تطلب . وأقف على باب الحمام أطرقه وجلا ، فاذا بها تأمرنى بالدخول ، فأدخل لأجدها عارية تماما وقد جلست على كرسى الحمام وأخذت تصب الماء على جسدها البض المتكنز ، وتمديدها فتأخذ الثياب ، وأخرج بعد ذلك ملوما محسورا ..

تلك هى سلسلة التعذيب التى كانت تحطم أعصابى وتطيش لبى ..

ولم يكن أمامى سوى مسلك واحد أندفع فيه .. وهو المسلك الذى يندفع اليه الصبية فى دور المراهقة .. وكان اندفاعا جنونيا ، لا يخطر على عقل بشر .. حتى صرت كما أنا الآن .. حطام ذهن وبقايا جسد ..

وكان الشيطان كثيرا ما يهيىء لى أن أقدم عليها .. وأن أندفع فأقضى منها بغيتى .. ولم يكن يبدو لى أن ذلك يغضبها أو أنها تمانع فى ذلك .. ولكننى كنت أخشاك .. كنت أخافك جدا .. فقد كنت أراك عاتيا جبارا .

وهكذا وجدتك حائلا بينى وبينها ، بل بينى وبين كل شيء ، وكلما ازداد الاغراء ، ازدادت الرغبة ، وازداد كرهى لك ، حتى استقر بى ذهنى المجنون على أن أزيحك من طريقى ..

ولم أكن أعرف كيف أدبر الأمر .. بحيث لا تحوم حولى شبهة وبحيث أستطيع أن أتمتع بحياتى وحريتى وبمالك وامرأتك .

ومر بذهنى خاطر خيل الى أنه قد ينيلنى بغيتى وصممت على أن أجربه .. وكنت فى حاجة الى مساعدة الأقدار .. فتقدمت الى المساعدة وليس أسهل على الأقدار من المساعدة فى الشر والجرم .

كانت الخطة غاية البساطة ، فقد كنت تعود الى المنزل ليلا وكان عليك دائما أن تعبر الممر الكائن بين باب الحديقة وباب المنزل . وكان يتوسط هذا

الممر فتحة « بكابورت » ولم يكن على الا أن ارفع غطاء الفتحة وأنزل المصباح الكهربائى الذى يضىء الممر ، وأترك الباقى للأقدار .. فقد تساعدنى .. على التخلص منك .

وأنت أدرى بما حدث .. أدرى بعودتك ومحاولتك اضاءة المصباح وبسيرك وسقوطك فى الفتحة ومساعدة الأقدار لى بتهشيم رأسك وموتك فى التو والحين ..

أدرى بحملك وتغسيلك وتكفينك ..
أدرى بوضعك فى النعش والصلاة عليك ..
أدرى بوقوفى مطلق السراح أتقبل عزاء الناس فيك .

وسرت وراء النعش حتى المقبرة ورأيت اللحاد يزيح الأتربة ويرفع الحجارة عن مدخل القبر وأخذ يرش المياه حوله بقربة وراء ظهره .. ووقفت أرقب المقرئين يهتزون يمنة ويسره وهم يستمطرون عليك شآبيب الرحمة .

وأخيرا .. انتهى كل هذا .. وهبطوا بجسدك الى قرار القبر ورصوا على فتحة الحجارة المستطيلة وهالوا عليها الثرى .

ورحل الجميع ورحلت معهم .. ولكنى تسللت من بينهم وعدت اليك .. ووسط الظلمة وقفت أرفع الثرى وأزيح الحجارة ثم أدلى بجسدى فى المقبرة وأهبط اليك .. لأفضى اليك بخبيئة صدرى وأشرح لك ما خفى من أمرك وأمرى .

أيها الجبار العاتى .. ما عاد جبروتك يخيفنى .. سأصعد الآن .. وأذهب آمنا مطمئنا .. أتدرى الى من ؟

الى امرأتك .. الغضة البضة .. الطرية اللدنة .. انى أصبحت صاحب المال والحول والطول .. صاحب كل ما تركت ..

سأنام معها فى نفس فراشك .. وسأتمتع بمنظر ثيابها الداخلية .. مبعثرة فى أرض الحجرة .. اتسمعنى .. انها قد أضحت ملكى ..

لتذهب الى الجحيم .. أما أنا فانى صاعد الى ظهر الأرض صاعد الى الحياة والنعيم .

ولكن ما هذه الظلمة التى تحيط بى .. انى لا أستطيع أن أتلمس طريقى .. لقد كان ثمة ضوء ينفذ الى من الفتحة التى دخلت منها .

ويحى .. انى لا أجد الفتحة .. لقد كانت هنا .. كنت أرى منها السماء وضوء النجوم .

أين ذهبت .. لقد سدت ..

أجل سدت .. لقد عادت الحجارة الى مكانها وانهال عليها التراب .. افتحوا .. أيها السفلة .. المجرمين .. افتحوا انى أريد أن أذهب الى الحياة .. والى النعيم .

آه .. أيها الشرير .. انك أنت الذى أغلقت القبر على لأشاركك نومتك .. ولكن لا .. لا .. لابد أن أصعد .. والا لأمزقن جسدك شر ممزق .

أجل .. انك عاجز .. وأنا صاحب قدرة ان بيننا فارقا كبيرا .. بيننا حياة طويلة مديدة . انك تحت رحمتى وتحت سطوتى .

افتحوا هذا القبر .. افتحوا فأنا حى .. افتحوا .. افتحوا .. فبينى وبين هذا الميت فرق شاسع من الوقت والقدرة ..

افتحوا .. افتحوا .. أيها المجانين .. أنا حى .. أنا حى .. لا تتركونى له .. أخرجونى .. أخرجونى ..

★ ★ ★

وفى تلك اللحظة .. كان اللحاد يرقد على فراشه العتيق فى كوخه البالى وسط المقابر .. وكان صبيه يرقد بجواره وهمس الفتى فى تكاسل :

يخيل لى أنى أسمع صوت صراخ ألا تسمع شيئا .

– نم .. نم لست أسمع شيئا ؟

– لقد وجدت المقبرة التى وضعنا فيها الميت اليوم مفتوحة فأعدت الحجر الذى نزع الى مكانه .

– قد يكون أحد اللصوص فتحها ليسرق الكفن .. نم .. نم .. كفى ثرثرة .

وأغمض اللحاد عينيه وأخذ الصوت يتضاءل شيئا فشيئا حتى خفت تماما . وهكذا لحق الابن بأبيه .. وسوى العاجز مع القدير .. وصاحب الرمة مع صاحب العمر الطويل .

ياللوقت ويا للقدر ..

ياللوقت الذاهب فى غمضة عين .. وياللقدرة الضائعة بين عظام نخرة فى قبر بقفرة .

بلا عودة

﴿ الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلواة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴾ .

« قرآن كريم »

هذه قصة حياة امرأة وقعت خاتمتها فى أيامنا هذه ، أما البداية فحدثت فى زمن غبر وعهد مضى .

ولشد ما أنا حائر فى سرد قصتها ، كيف أحشرها فى بضع صفحات ، وهى تاريخ كامل لجيل بأسره ؟

لنبدأ من البداية الأولى . منذ مولدها فى عام ١٨٨٠ ، نعود القهقرى سبعين عاما الى حى المغربلين حيث كانت تقوم قصور الأعيان والتجار وأثرياء الأتراك ، فندلف فى أحد القصور لنشهد مولدها من أب مصرى وأم تركية ..

كان أبوها الحاج محمود العطار ، رجلا من كبار تجار العطارة ،

وكانت أمها امرأة جميلة من عائلة تركية عريقة النسب .

ولدت « أميرة » .. لتجد نفسها محاطة بكل مظاهر العز والثراء ، وريثة جاه عريض ومال وفير من الأب ووريثة جمال وكبرياء ودم ارستقراطي وأصل عريق من الأم .

ولا أظن الوقت يتسع لكى نتتبع طفولتها وصباها ، على مقل ولكى نخوض فى تفاصيل حياتها ، ولكن كل ما يمهنا نكره هو وفاة أبيها بعد بضع سنوات من ولادتها وقبل أن تفهم هى ماهو الموت وما هو الحزن ..

وشبت الفتاة وفى دمها الكبرياء والسيادة .. محوطة بجمهرة من الخدم والحشم ، تأمر فتطاع ، وتشير فلا تلقى سوى الانحناءات والاحترامات . ومنذ الطفولة كانت لها شخصيتها المسيطرة ، وكانت - وهى طفلة - اذا حدث ما يسبب لها البكاء ، مما يحدث لكل الأطفال ، تخجل من البكاء أمام الناس ، فتكبت مشاعرها . وتكتم صراخها ودموعها حتى تخلو الى نفسها ، وتتأكد من أنه لم يعد هناك من يراها ، ثم تطلق لدموعها العنان ..

كانت الطفلة أميرة ، أميرة بحق ، فى مشيتها ، وفى حديثها مع الناس ، وفى أوامرها للخدم وفى اصرارها على رأيها ، ولم تكن تغفر لأحد أن يتصرف معها تصرفا غير لائق بشخصها .

حدث ذات مرة فى خلال حديث لأمها مع أحد أقاربها - وهو رجل كبير محترم - أن قال الرجل عنها - البنت - فلم يكن من الطفلة الصغيرة الا أن قاطعته غاضبة :

- يجب أن تتعلم كيف تتحدث عن سادة القوم .

وهكذا كانت تحس دائما أنها من السادة ، وأن لها كرامتها التى يجب ألا تمس ، وكبريائها التى يجب ألا تخدش .

ونعدو مع الزمن عشرين عاما ، لنجد أميرة فى نهايتها وقد أضحت شابة فى أوج جمالها ونضرتها .. جمال هو خليط من الجمال المصرى والتركى .. شعر أسود كحلكة الليل ينساب على كتفيها وينبسط على ظهرها ، ووجه أبيض ناصع دقيق التقاطيع حلو الملامح ، وعينان زرقاوان صافيتان ، تكونان مع سواد شعرها مفارقه ينبعث منها سحر عجيب ، وأنف دقيق مرفوع الطرف . وجسد أهيف وقد ممشوق يبدو عليه القوة والتماسك .

ووقفت الفتاة تتطلع الى المستقبل وملء نفسها الثقة والأمل ، وقد زودتها الحياة بأمضى أسلحتها : الفتنة والجمال والثراء الوفير .

ولاح فى الأفق الزوج المنشود ، وتوأم النفس وشريك الحياة ، توأم مثالى ، وشريك نموذجى ، يلائم ما حف بالفتاة من جمال وامارة وسلطان ، وما حبتها به الدنيا من حظ سعيد .

وتقدم لخطبتها السيد محمود صديق ابن المرحوم صديق باشا صاحب أبيها الوفى وصديقه الحميم ، ولم يكن الفتى ليقل عنها حظا من الحياة ، فقد كان وحيد أبيه الراحل ، ووارث جاهه وماله وطيب أصله وكرم محتده ، وكان الفتى نبيل الخلق جميل المظهر فطنا ذكيا ، وكان - بغير مال أبيه - شخصية لها مكانتها واحترامها فى المجتمع المحيط . وتمت الخطبة وتوثقت عرى الحب بين العروسين وأخذا يستعدان للزفاف .. وسار الزورق ينساب فى هدوء واسترسال بلا أنواء ولا موج ولا رياح هوج ، ولا يشتم فى الجو رائحة غبار ولا يبدو فى الأفق أثر سحاب .. بل كان ما هنالك صحو فى صحو وصفاء فى صفاء ..

وحدد موعد الزفاف .. وكان القدر أوشك أن يفرغ من نقش أبدع لوحاته ، وينتهى من تسطير أهنأ أقاصيصه ، ويختمها أسعد خاتمة .. ووقفت أميرة (هانم) فى غرفة نومها وسط الحائكات تقيس ثوب الزفاف الدانتلا

الأبيض وتدور بكبرياء أمام المرآة ، وعلى أحد الأرائك جلست أمها ترقبها فى عطف وحنان وأغرورقت عيناها وهى تقول لها .. مبروك يا أميرة .

وتتمنى بينها وبين نفسها لو كان أبوها حيا لير أميرته الرائعة .

ولا تكاد الفتاة ترد تهنئة أمها حتى يسمع صوت وقوف عربة وصهيل جياد وطرق على الباب الخارجى ..

وتتحرك أميرة وعليها ثوب الزفاف فتقف وراء المشربية لترقب الطارق من خلال الثقوب الخشبية ، ثم تقول وهى تتجه الى باب الغرفة .. انه « عم على » خادم محمود ، ماذا أتى به ياترى ؟

وأقبلت احدى الخادمات لتقول ان « عم على » يريد رؤية الست الكبيرة ، فتصيح بها أميرة فى لهجتها الآمرة .. دعيه يصعد .

ويصعد عم على بجسده المنحنى وذقنه البيضاء المسترسلة ، وقد تثاقلت خطواته وتلاحقت أنفاسه ..

ووقف أمام السيدتين كأنه كلب يلهث ثم همس بصوت مبحوح :

أريد أن أقول شيئا للسيدة الكبيرة .

ويلوح فى عينيه احمرار وارغوراق ، ويسود الجو سكون مخيف يقطعه صوت أميرة حادا قاطعا :

– قل ما تريد قوله ، انى لا أخشى سماعه ، ماذا حدث لسيدك ؟

وينطق الرجل :

سيدى محمود بك .. الله يرحمه ..

ثم يخر متهاويا على الأرض وهكذا ينهى القدر لوحته فجأة .. فيجرى عليها بفرشاته فى عبث الأطفال .. مفسدا كل ما رسم ، ويختم أقصوصته

ساكبا المحبرة على كل ما كتب .

ويندفع القوم فى بكاء ونحيب وولولة ، الا مخلوقة واحدة لم تجد عينها بدمعة واحدة ولم يختلج وجهها ببادرة حزن .. وهى أميرة فقد وقفت شاحبة الوجه جامدة العينين شاردة البصر ، كأن الأمر لا يعنيها ، لم تقبل أميرة تعزية ولا رثاء ، وصرفت عنها القلوب الواجفة والنفوس المليئة بالحزن الفياضة بالعطف والحنان وأمرتهم أن ينصرفوا الى أعمالهم ، وأن يدعوها وشأنها ، حتى أمها أبت أن تتلقى منها كلمة عزاء وانصرف الجميع ولم يبق فى الحجرة الا هى والخادم العجوز الذى حطمته الفاجعة ، ووقفت تسأله فى لهجة هادئة عن التفاصيل .

ولم يكن هناك تفاصيل ، فلقد حدث كل شىء بغتة على غير ترقب ولا انتظار ، كما قال الخادم بصوته المتهدج المتقطع :

– لقد عاد قبل الظهر وكانت تبدو عليه آيات الصحة والهناء وأنبأنى أن الليلة هى ليلة الزفاف وأنه أعد كل شىء حتى تذكرتى السفر الى الأقصر – حيث تنويان أن تقضيا شهر العسل – قد ابتاعهما وحجز ديوانا خاصا ، وطلب منى أن أشرف على الاصلاحات التى تجرى بقصر الحلمية ، الذى ستقطنان به بعد عودتكما من الأقصر وقال لى انه يريد أن يجد القصر معدا عند عودته ، وأننى مسئول أمامه عن أى تقصير ، ثم ذهب الى حجرة نومه ليسريح وفى الساعة الرابعة سمعت تأوها يصل الى أذنى من حجرته ، وتملكنى العجب ! وأسرعت الى الحجرة فوجدته مضطجعا على احدى الأرائك وقد شحب وجهه وبردت أطرافه ، وتلاحقت أنفاسه ، كأنه مكروب الصدر أو كأن هناك من يطبق على عنقه .. وسألته عما به .. وهممت بالخروج كى استدعى طبيبا ، ولكنه أمرنى بصوته الخافت أن أبقى ، وهز رأسه قائلا : «لا فائدة» . ثم طلب منى أن أحمل اليك هذا الخاتم وهاتين التذكرتين اللتين ابتاعهما للذهاب الى الأقصر ، وأنبأنى أن أستمر فى اعداد بيت الحلمية لأنه سيتركه لك بكل ما

فيه .. لقد كان يعده لك .. وسيظل لك وبعد لحظات أسلم الروح بين يدى ، وانتهى كل شيء .

وانصرف الخادم ، وآوت العروس الى حجرتها أخيرا .

لقد كانت الضربة قاصمة ، والمصاب فادحا أليما ، وبدا لها أن الأمر كله لا يعدو حلما مروعا ، أو وهما مخيفا .

لقد هزأ بها القدر وسخر منها ، وجعلها تأمن له ثم طعنها طعنة نجلاء لكى يذل كبرياءها ، ويمرغ أنفها فى الثرى .

ولكنها لن ترضخ ولن تذل ولن تهون ..

لقد جلست فى حجرتها وأخرجت من قمطر بها صورة لعريسها الراحل ، وأخذت تتأملها فى صمت .

لقد كانت فى طفولتها تخجل من البكاء أمام الناس ، وكانت تعدو الى حجرتها وتخلو الى نفسها ثم تندفع فى البكاء منفسة عن كربها .. والآن وقد أصيبت فى الصميم ، وحرمت من رفيق العمر وتوأم النفس . وبعد أن حاولت جهدها أن تتماسك أمام الناس وتتجلد ، ألا تبيح لنفسها فترة بكاء تطفىء بها حرقة الفؤاد وتهدىء بها لوعة النفس ، وهى وحيدة فى غرفتها ، لا يرقبها أحد .

أم أن القدر ، الشامت الساخر ، يرقبها متلهفا ليرى كبرياءها تذل ، ويراها تترنح كالذبيحة .

لا ، لا .. يجب ألا تستسلم أو تخفض الرأس يجب أن تقاوم وتظل مرفوعة الهامة ، ولا تدع شيئا يحطم كبرياءها .

وأمسكت بالصورة تحدق فيها وقد شرد بها الذهن وأخذت تهمس ..

سأتصبر على فراقك وأتجلد ، لا أظننى سأجد صعوبة فى ذلك ، فاننى لا أشعر قط أن هناك من يستطيع التفرقة بيننا ، حتى ولا الموت ، انى لن أشعر بفقدك أو غيابك ، فأنت دائما معى ، فى قلبى وفى ذهنى .. ستبقى أنت كما أنت ، لن تغيب عنى لحظة واحدة ، ولكنى أحس بالحزن يفتت قلبى من أجلك أنت ، لا من أجلى .. من أجل هذا الشباب النضير والحياة المتدفقة .. من أجل آمالك الحلوة ، وأمانيك التى لا حد لها .. كيف يطوى كل هذا فى حفرة مظلمة ؟ كيف يغلق القبر على ضحكاتك الرنانة وصوتك المرح ؟ كيف تحرم من الحياة ومن النعيم ؟ كيف تصم أذنيك عن الألحان العذبة والأنغام الجميلة ؟ وكيف تغلق عينيك عن خضرة الروض ونضرة الزهر وصفو السماء وضوء القمر ؟ ما قيمة كل هذا ان لم تسمعه أذناك وتبصره عيناك ؟ ذلك هو ما روعنى ، وحطم قلبى ، ذلك هو ما ملأ نفسى لوعة وأسى ، من أجلك أنت ، لا من أجل نفسى .. أود أن أبكى ، ولكنى لن أبكى ، لن أذرف دمعة واحدة .. سأتجلد على فراقك حتى نلتقى ثانية .

وكانت الفتاة عن وعدها ، فما صاحت وما ناحت ، وما ابتلت مآقيها ، بل كانت كعود يابس أو جلمود صخر .

ودهش أهل الدار عندما أنبأتهم بعد بضعة أيام برغبتها فى الانتقال – وحدها – الى بيت الحلمية ، الذى خلفه لها زوجها الراحل .. وذهلت أمها ، وقالت لها وكأنها تخاطب انسانا به جنة :

– كيف تفعلين هذا ؟ ماذا يقول الناس عنك ؟ فتاة مثلك تعيش وحدها فى قصر متسع كهذا ، وقصر من .. ؟ قصر زوجك الذى ما زال جسده دافئا فى قبره ، كيف تحتملين البقاء فيه ؟

ومع ذلك فلم يجد معها نقاش ولم يفد معها نصح .. فقد انتقلت الى البيت الذى كان مفروضا أن تعيش فيه مع زوجها ، وجعلت كل شيء فيه كما كان

يجب أن يكون ، كأن صاحبه وصاحبها لم يفارق الحياة ولم يطوه باطن الأرض .

وفتح البيت على مصراعيه وهيىء بما يلزمه من خدم وحشم وعربات وسياس ، ولم تنطو أميرة في داخله ، بل ملأته بالحركة والحياة ، والولائم والاجتماعات والدعوات .. وأخذت تصرف عن بذخ .. وتبرز فى المجتمع .

وأحاطتها الاشاعات والتقولات .. ولدغتها السنة السوء .. فمن قائل أنها تستغل القصر والمظاهر للحصول على زوج من الأمراء ، ومن قائل أنها تهدف الى مطامع سياسية ، ومن قائل أن بينها وبين فلان أو علان علاقات خفية ، الى غير ذلك مما كان لابد أن تتعرض له وقد فعلت ما فعلت .

ومع ذلك ما لبثت الاشاعات أن تآكلت وانقرضت عندما قرعتها الحقائق الجلية ، وعندما تقدم لخطبتها بعض الراغبين فى ثراء جاهز ، وقصر معد ، وحياة هينة لينة ، ولكنها صدتهم الواحد بعد الآخر ، وأفهمتهم أنها لن تتزوج أبدا .

وخرست ألسنة السوء ، عندما وجدوا أن نشاط المرأة قد بدا يغزو نواحى الخير والاصلاح ، وأنها أخذت تكرس جهودها وأموالها وتستغل اجتماعاتها وولائمها وصلاتها بكبار القوم فى انشاء الملاجىء وعمل المنشآت الخيرية لمعاونة الفقراء .

وأخذت بعد ذلك تصدر مجلة تطالب فيها بحق المرآة ورفع الحجاب ، وأخذت جهودها تبرز فى المجتمع .

وهكذا شغلت المرآة بحياتها العامة الحافلة . ولكن اندماجها بين الناس ونزولها الى ميدان الكفاح والجهاد لم يستطيعا أن يخففا من حدة كبريائها وأنفتها وميلها الى مظاهر الارستقراطية والسيطرة والعظمة ، واستمرت فى حياتها فى البيت أميرة ، تحافظ على المظاهر والتقاليد ، وتجبر الخدم على خفض

الرؤوس وحنى الظهور والتقهقر أمامها بوجوههم .

ومرت السنون ، وأميرة هانم ممعنة فى حياتها المجاهدة ، ولست أنوى أن أسرد تاريخها الحافل فى خمسين عاما ، فهو تاريخ أمة ، ومن العبث أن أحاول - كما سبق القول - حشره فى بضع صفحات .

لندعها تحيا حياتها ، بين الجمعيات الخيرية ومشروعات البر وعمل المستشفيات والملاجىء ، ولندعها تخوض غمار الثورة المصرية وتشترك فى كل جهاد ، ولندع السنين تعدو حثيثات سراعا بحروبها وسلامها ، وثوراتها وتقلباتها ، حتى نقف أخيرا فى عام خلا لنبحث فيه عن أميرة هانم ..

انها الآن فى العام السبعين ، مازالت تقطن فى قصرها فى حى الحلمية .. حياتها كما هى ، كأن الزمن ما مر بها وكأن السنين ما ولت . تعيش فى قصرها القديم كأنها من أهل الكهف ، لم تحس بتغير الدنيا بل يخيل لها أنها لم تلبث بها سوى يوم أو بعض يوم ..

« وكلبها باسط ذراعيه بالوصيد ، ولم يكن كلبها سوى عم على خادم محمود العتيد وقد بلغ نيفا ومائة عام ، وما زال يتخذ مجلسه بجوار الباب كالكلب الأمين .

أما بقية الخدم فهم هم . لم يتغير منهم واحد ، تقدم بهم الزمن وهم فى الدار كأنهم أشجار فى الحديقة ، وقد أحبوا سيدتهم رغم امارتها وقسوة كلامها .. لم يشذ منهم أحد ، كانوا كلهم سواسية من أهل الكهف نموا معا دون أن يشعروا بالزمن ، ودون أن يشعر أحد منهم بتغير صاحبه .

عم بخيت الطاهى ، وجرمون سائق الحنطور ، وبخيت السائس وسعيد البستانى ، وهانم وأم نجية وزهرة والجارية وعديلة هؤلاء كانوا طقم الخدم الذى يتولى العناية بربة الكهف ، وأضحى القصر بأهله الارستقراطيين نشازا فى حى الحلمية الذى انحدر به الزمن فلم يعد أهلا لتلك الارستقراطية .. وقام

بجوار القصر بيوت متواضعة وحوانيت كان بينها مبيض النحاس والطعمجي وبائع اللب وعصير القصب ، التى لم تكن تتناسب قط مع أميرة هانم وعربتها المطهمة وجرمون وثيابه الأثرية المزركشة .

وخف نشاط السيدة فى المجتمع ، فقد تبدد مالها وضاع جهدها ، ولم تعد تقوى على الخروج الا لماما ، وقصرت نشاطها داخل الدار .

وشكت أم نجية ، وهى خادمتها الخاصة من ألم فى الظهر فأمرتها السيدة بأن ترقد فى فراشها ، ولكن أم نجية التى لم تتخلف قط عن سيدتها منذ خمسين عاما أبت الرقاد .. فصاحت بها السيدة غاضبة ان أوامرها يجب أن تنفذ .. رقدت أم نجية . وعلم الخدم فى الصباح أنها هى التى سهرت على خدمة أم نجية فى تلك الليلة .

وأبلت الخادم بعد بضعة أيام ، ولاحظ الخدم شحوبا على وجه السيدة ، وأخذ يقلقهم منها نوبات سعال شديد تصيبها بين آونة وأخرى .

واستمرت السيدة فى حركتها الدائبة داخل الدار وخارجها ، واستمر الشحوب والسعال فى الازدياد حتى تشاور الخدم فيما بينهم وصمموا على أن يطلبوا من السيدة الرقاد .. ويعلنوها بعزمهم على احضار طبيب ..

وتطوعت أم نجية لتبليغ القرار ، وقالت لسيدتها وقد انهمكت فى عمل بعض صديريات من الصوف لاحدى المبرات :

– يجب أن ترقدى ياسيدتى ، فأنت فى حاجة الى الراحة ..
– من قال هذا ؟ انى فى تمام صحتى .
– ولكن ..
– ليس هناك « لكن » اذهبى لعملك .
– ولكن رقدت فى الفراش عندما امرتنى بالرقاد ..
– لأن الخادمة يجب أن تستمع لأمر سيدتها .

وانصرفت أم نجية بخيبة رجائها ، وأخذ الخدم يهزون رؤوسهم اسفا ويأسا .

وفى المساء دخلت السيدة الى حجرتها ، وقبل أن تأوى الى فراشها فتحت قمطرا ، وأخرجت منه صورة عتيقة صفراء وأخذت تحدق فيها برهة ثم نظرت الى المرآة ، وأخذت تقلب البصر بين الصورتين ، صورة الشاب الملىء بالقوة والحياة ، وصورتها التى تبدو فى المرآة بيضاء الشعر مجعدة الوجه معروقته ، وقد أودى الزمن بكل ما كان بها من نضارة وازدهار فبدت كالورق الجاف . وهمست المرآة قائلة :

– آه لو كنت أعلم ، ما حزنت من أجلك قط ، لقد نجوت بنفسك من سلطان الزمن ، وخرجت عن دائرة نفوذه ، انه لم يعد له عليك سيطرة ولا تأثير .

ما أجهلنى وقد ظننت انك حرمت متع الحياة .. أفى الحياة متع أم « تعب كلها الحياة » وشقاء وتعاسة وجهد ضائع ؟

انك ما حرمت الا من التعب ، لقد وفرت على نفسك مشقة عدو السنين وعدوها وراءك ، بعد حين سأخرج كما خرجت ، سنتساوى فى النهاية ، وان لم نتساو فى طريقة الوصول . لقد خرجت سليما معافى .. وسأخرج محطمة مهدمة مكدودة منهوكة .. آه لو علمت لحسدتك على الموت .

ووضعت شفتيها على الصورة ثم همست :

– أتسمع لشفتى الجافتين أن تمسا شفتيك النضرتين ، أيمكن ان تحتمل تجاعيد وجهى ، أيمكن أن تغفر لى ما فعل بى الزمن وما جلبته السنون . ثم أعادت الصورة الى القمطر وآوت الى فراشها .

وفى الصباح ذهل الخدم عندما أنبأتهم سيدتهم بأنها مسافرة ، وطلبت

من أم نجية أن تعد لها الحقائب لسفر طويل .

وانهمر الدمع من عينى أم نجية وقالت متوسلة :

– انك لا تستطيعين السفر يجب أن ترقدى ياسيدتى .

وصاحت بها السيدة فى لهجة آمرة :

– عجبا ، منذ متى ترفضين اطاعة الأمر ؟ انبئى جرمون بأن يعد العربة للذهاب ، وأن يسأل لى عن موعد القطار الذاهب الى الصعيد ولم تجد الخادمة بدا من تنفيذ الأمر ، وعادت تسألها عمن تريد أن يسافر معها من الخدم فأجابت باقتضاب :

– سأسافر وحدى .

ولم يكن هناك فائدة فى المناقشة ، وفى الساعة الثالثة شاهد أهل الحوانيت المجاورة للقصر ، جرمون يرتدى حلته الرسمية ، وتحركت العربة تحمل السيدة العجوز ووراءها عربة أخرى تحمل الحقائب وبعض الخدم . ووصل الموكب الى المحطة ، وكان منظره غريبا على روادها ، وأخذ الناس يحملقون فى السيدة العجوز المديدة القامة المرفوعة الرأس ووراءها السائق العجوز بحلته المزركشة بالقصب وبضعة خدم عجائز يهرولون حولها ويفسحون لها الطريق .

ودلفت السيدة من الباب الحديدى المؤدى الى القطار وحولها الموكب العجيب والحارس الذى يرى التذاكر مأخوذ مشدوه ، وعندما ابتعدوا عن الباب التفت اليه جرمون ثم همس فى أذن السيدة مذكرا .

– سيدتى : انك لم تبتاعى تذكرة .

ونظرت اليه السيدة نظرة زجر وتأنيب جعلته يطرق برأسه ويخلد الى

الصمت .. واقتربت من عربة الدرجة الأولى ، ورفعت قدمها لتضعها على درج الباب .

وفجأة ترنحت السيدة ثم تهاوت على الأرض جثة لا حراك بها . واندفع اليها الخدم باكين مولولين ، وحمل أحدهم حقيبة يدها التى سقطت منها، وقد فتحت وتناثرت محتوياتها . وأخذ فى جمعها لاعادتها الى الحقيبة وكان ضمنها صورة لشاب فى مقتبل العمر ، وخاتم ، وتذكرتين للذهاب الى الأقصر بتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٩٠٥ .

لقد دفع السيدة الى الرحيل حنين لا يقاوم .. وهى لم تنس التذاكر ، وان كانت رحلتها تعدت الأقصر ، الى السماء ، رحلة ذهاب بلا اياب ، حيث لقاء التوأم الراحل مؤكد مضمون – ترى كيف يكون اللقاء أترى الزمن سيمحو عنها آثاره فيلتقيان على قدم المساواة . أم أن الكاسب هو السابق الى الرحيل .. ؟



﴿ انا من المجرمين منتقمون ﴾
« قرآن كريم »

كانت لى به صلة وثيقة فقد كان تسليتى الوحيدة فى البلدة المقفرة .. وعندما كانت تجبرنى دواعى العمل على قضاء بضع ليال فيها أنجز خلالها ما أود انجازه .. كنت ألجأ اليه كلما وجدت من وقتى فسحة فنقضى هزيعا من الليل نسمر أمام الركية التى أشعلها داخل كوخه المتواضع .

وكان محدثا ماهرا وقاصا ممتازا .. بلغ من العمر عتيا ، ومع ذلك فما زال محتفظا بمتانة بنيانه ، ومازال يقوم بعمله كشيخ للخفراء على أتم وجه .

وعندما ذهبت الى البلدة آخر مرة بدا لى كأن هناك شيئا قد تبدل فيها .. ولم يكن لدى فى بادىء الأمر فرصة للتفكير فى كنه ذلك الشىء المتبدل .. أو الذى أحسست بنقصه من البلدة .. حتى ضمنى المجلس المعتاد بالشيخ ابراهيم .. وهنا تذكرت فجأة ذلك الشىء الذى افتقدته فتساءلت فى دهش :

– أين « لهلوبة » ياعم ابراهيم ، لعلها تكون قد هربت كعادتها .
– لهلوبة .. تعيش أنت يا سيدنا البيه .. حياتك الباقية .
– ماتت ؟ عجيبة ، كيف ؟

– محروقة ، حرقت نفسها الله يرحمها ويرحمنا جميعا . الفاتحة على أمواتنا .

ومضت ثوان ونحن نتمتم بهمسات خافتة ثم رفع الرجل كفيه ومسح بهما وجهه ، ثم أطرق محدقا فى النيران التى انبعث ضوؤها من أسفل فغمر لحيته المسترسلة وأبرز تجاعيد وجهه . ثم انطلقت من صدره زفرة طويلة وقال بصوت عميق خافت : دنيا !

ووجدتنى أحدق أنا الآخر فى النيران ، فأتصور لهلوبة بعينيها الزائغتين ونظراتها الشاردة ، وشعرها الأشعث المتطاير ووجهها الدائم الفزع وقسماتها المرتاعة الوجلة وثيابها المتهدلة الممزقة التى تكشف عن صدرها وكتفيها وقد تكأكأ حولها الصبية يسخرون منها ويهزؤون بها ، متخذين منها أضحوكة وتسلية مستثيرين غضبها بكل ما لديهم من وسائل السخرية والسباب فلا تكاد تتهجم عليهم حتى يصيحوا بها فى صوت واحد .

« اوعى النار يا لهلوبة » فلا تكاد تسمع هذه الكلمة حتى تصرخ صرخة مدوية وتبدو فزعة كأنما توشك حقا أن تقذف الى جحيم مستعر ، ثم تولى الصبية ظهرها وتنطلق تسابق الريح ، كأن الجن فى أثرها .

ويصفق الصبية طربا ، ينطلقون فى أثرها صائحين مهللين حتى تختفى عن أعينهم هاربة بين المزارع وهى تعود ككلب مذعور .

وكنت أعلم أن الشيخ ابراهيم من أكثر أهل البلدة عطفا عليها وبرا بها ، وأنه كان يهيء لها المأوى ويطعمها من جوع ويؤمنها من خوف فى الفترات المتقطعة التى تظهر خلالها فى البلدة عائدة من المزارع بعد أن تحس قارصة الجوع ويزول عنها أثر الذعر الذى سببه لها الصبية العابثون .

وهززت رأسى فى أسى وقلت :

– مسكينة .. أبعد كل هذا الذعر من النار والهرب من الحريق .. تموت محروقة .. يبدو لى أن حياتها لها قصة فهل تعرف عن ماضيها شيئا يا شيخ ابراهيم ؟

– لقد كانت امرأة مجنونة .

– أعنى قبل أن تجن .. أما كنت تعرفها قبل ذلك ؟

ومضت فترة صمت تملك الرجل خلالها شرود شديد ، ثم سمعته يقول بصوت خافت كأنما يحدث نفسه :

– أعرفها ؟ أعرفها تماما ، عندما كانت أرجح النساء عقلا وخلقا وعندما كانت أسعد أهل الأرض طرا .

كانت زوجة هانئة قريرة النفس ناعمة البال .. ليس هناك ما ينغص حياتها الا أمر واحدة .. هو « ضرتها » أو زوجة زوجها الأولى فقد كانت زهرة .. الزوجة القديمة امرأة سليطة اللسان خبيثة النفس ، وكانت تبغض حسنية (وهو الاسم الحقيقى للهلوبة) بغضا شديدا ، رغم أن الأخيرة لم تتسبب فى ايذائها قط ، بل ان الرجل قد هجرها من فرط مرارتها ، ولأنه وجد أن حياته معها قد أصبحت جحيما لا يطاق .

وهكذا لم يكن هناك ما اقترفته حسنية سوى أنها أعجبت الزوج فأقدم على زواجها ، ورأى فيها طيبة نفس وجمال خلق ، فاستراح اليها ، وهدأت نفسه الى جوارها ، ولم يعد يرى الا راضيا هانئا مسرورا .

ونهشت الغيرة قلب زهرة الأسود ، وباتت تفيض بالحقد والموجدة ، وأخذت تنتهز الفرصة لتوقع بها وتكيد لها ، وكانت حسنية تصبر على أذاها ، ولا ترد لها الكيد ، متوهمة أنها تستطيع كسبها بالحسنى والمعروف .

ومرت الأيام والزوج يزداد من زهرة نفورا ، ولم يعد يذهب الى داره

القديمة الا لماماً ، فقد وجد الراحة والاستقرار فى داره الجديدة ، وزاد من ميله اليها وحبه فيها أن وضعت له الزوجة الجديدة ولدا ، ووجدت زهرة أن الأيام تمعن فى التنكيل بها فترزق ضرتها البنين وتصيبها بالعقم . فزادت من حقدها على الحياة ، وكرهها للناس ، وباتت نفسها تجيش بالثورة وأضحت كالجمرة الكاوية ، وضاق بها الرجل ، وبمرارتها وسوئها ، حتى كان ذات يوم بلغ يوم السيل الزبى ، فطلقها ثلاثا .

ولست أدرى كيف كان وقع الطلاق فى نفس حسنية ، ولكنها كانت امرأة هادئة عاقلة ، فلم تبد عليها شماته ولا فرحة ، بل على النقيض حاولت أن تهدىء من ثائرة زوجها أو تثنيه عن فعلته ، ولكن الرجل أمرها بألا تتدخل فيما لا يعنيها .

وكانت حسنية توجس فى نفسها خيفة ، وتخشى انتقام المرأة الجريحة المكلومة ، وتتمنى لو استطاعت أن تهرب بولدها وزوجها من البلدة ، حتى لا يصيبها منها أذى ، فقد كانت تعلم أنها قادرة على الشر لا تتورع عن أى منكر أو جرم ..

والتقت المرأتان ذات يوم عقب الطلاق ، وتصدت لها المرأة المطلقة ، وقالت لها والحقد يأكل قلبها :

– لقد خلا لك الجو الآن ، فاهنئى وافرحى .
– أنا ما تمنيت لك الا كل خير .

– أنت ، سأعرف كيف أريك ، الأيام بيننا ، سأحرمك منه كما حرمتنى منه ، وسأحرمه من حياته كما حرمنى من هنائى وسودِ عيشى ، سأشرب من دمه وأمزق لحمه وأفرى عظامه ، سأريه من منا أقدر من الآخر ، سأيتم ابنك ، وأجعلك تبكين بدل الدمع دما ، أنا وأنت يا حسنية والزمان طويل .

وعادت حسنية الى دارها وقد أفعم الخوف قلبها . وتملكها من تهديد

المرأة وهم شديد . وأحست بجوفها يغلى بمزيج من الفزع والحزن والتحفز والانتقام .

وسقطت الشمس وادلهم الليل . وحل موعد عودة الزوج وبدأت تعد الدقائق والثوانى . وترهف السمع لكل أقدام تطرق قارعة الطريق وكل أصوات تقترب من الباب .

وتسلط الوهم عليها ، وبدأ يراود ذهنها خليط من التخيلات المنكرة ، فتصورت زوجها أعضاء محطمة وأشلاء مهشمة .

وانتصف الليل ، ولما لم يعد زوجها ، فأحست أنها توشك أن تجن . وتركت ولدها فى الدار وخرجت تهيم على وجهها ، تسأل الناس متهدجة الصوت متحشرجة الأنفاس ، حتى عادت الى الدار قبيل الفجر دون أن تعثر له على أثر .

وارتمت على الأرض تنشج باكية .

أين غاب زوجتها ؟ وهو الذى لم يعودها الغيبة ؟ ولا سيما بعد أن طلق امرأته القديمة ؟

أيحتمل أن تكون المرأة الشريرة قد نفذت وعيدها ؟
أيمكن أن تقدم على هذا الفعل المنكر ؟
لم لا ؟ انها هى نفسها تشعر أنها تستطيع أن تقدم عليه .

أجل ، ان الحقد والكراهية والرغبة فى الثأر تهون كل شر ، انها قد باتت تتلهف على أن تطبق على المرأة المجرمة ، القاتلة ، فتقرض زورها بأسنانها وتنهش قلبها ، بل أنه ليس هناك ما يرضيها ويهدىء ثائرتها ويبل حرارتها أقل من هذا الفعل .

ومضى اليوم أغبر مدلهما ، وهى جالسة تمسك قلبها بيديها ، انها ما

زالت ترجو ، ما زال لديها بقية أمل فى عودة زوجها ، وفى أنه مازال على قيد الحياة .

وانتهى اليوم أو كاد ، وقبيل الغسق سمعت على الباب دقات فقفزت من مكانها ، وقلبها يكاد يثب من بين ضلوعها .

ترى من يكون الطارق ؟ لعله هو ! أو لعله .. ولم تجسر على التفكير .. وفتحت الباب فاذا بأحد الخفراء يقف بالباب وقد بدا فى وجهه ما روعها ، وافقدها القدرة على النطق ..

وتحدث الطارق فأنبأها أنهم عثروا على جثة طافية على سطح النهر ، وأنهم لم يستطيعوا تبين حقيقة صاحبها فقد كانت ممزقة الأوصال مشوهة الوجه ، وان كانوا يرجحون كثيرا أنها جثة زوجها .. ولم تنبس المرأة ببنت شفة ، ولم تصرخ ولم تولول ، بل علت وجهها ظلمة قاتمة وهزت رأسها ببطء وأنبأت الرجل أنها كانت تعلم ثم أطرقت ببصرها الزائغ الى الأرض ، وغمغمت قائلة :

- لقد عملتها ، سأعرف كيف أريها ..

ثم أغلقت الباب عليها وجلست برهة ذاهلة شاردة ، ثم نهضت وكأنها اعتزمت أمرا .

وأقبلت على طفلها فأمرته الا يترك الدار حتى تعود ، وأنبأته أنها لن تغيب ، فستذهب الى بيت خالته زهرة وستعود بعد دقائق .

وغادرت المرأة البيت تدب فى الظلام كالشبح ، وقد جمدت قسماتها وجحظت عيناها ولم تتجه الى بيت زهرة بل اتجهت الى الناحية المضادة ، ناحية الدكاكين والسوق ، وتوقفت أمام البدال فابتاعت صفيحة جاز وعلبة ثقاب ثم يممت وجهها صوب الناحية الأخرى من البلدة ، ساعية الى بيت زهرة .

وكان البيت يقوم فى ناحية منعزلة ، لا يكاد يحيط به سوى بضعة عيدان من الغاب وجذوع النخل ، وكانت الظلمة سائدة والجو قد سكنت ريحه ، والدار قد بدت صامتة ساكنة وتلفتت المرأة حولها ثم أنزلت الصفيحة من على كتفها ووضعتها فى وسط الغاب وأخذت تجوس حول الدار موزعة الحطب والغاب وجذوع النخل ، ثم عادت الى الصفيحة ، وبدأت تسكب ما فيها خارج الدار على الجدر والأعشاب والحطب فلم تترك منفذا لهارب ، وأشعلت الثقاب وألقت به على الهشيم .

ولم تمض لحظة حتى سرت النار كلمح البرق ، وارتفع اللهب الى عنان السماء .. وأحاطت النار بالبيت ، ثم انتقلت اليه ووقفت المرأة تبتسم راضية ، وأحست أن قلبها قد ردته النار ، وهدأه اللهب ، وعادت الى البيت مسرعة لتطمئن على ولدها .

★ ★ ★

وصمت الرجل ووجدته يمد يده بماشة يقلب بها نار الركية ، فعلا لهيبها ، وهبت الريح من الخارج تصفر وتعول ، وطال ضمته حتى عدت أستحثه : وبعد ذلك ؟

ورفع كتفيه وهز رأسه وقلب شفته السفلى ، وبدا لى أن صوته قد تحشرج وأنه لا يستطيع الكلام ، وكأنه يعانى ألما دفينا ، ولكن زفرة من صدره أعادته الى حالته الأولى ، وسمعته يتمتم :

- لا شىء هناك أكثر من هذا .
- كيف ؟ انك لم تقل لى بعد كيف جنت ..؟
- آه .. لقد عادت لتطمئن على ولدها ، فلم تجده .
- لم تجده ! وأين ذهب ؟
- لقد خشى البقاء وحده فى الدار ، فلحق بها عند خالته زهرة لقد كان

داخل الدار ، عندما اشتعلت النار ، لقد احرقته أمه ، هل عرفت كيف جنت ؟

وتملكني ذهول شديد ، وأخذت أحدق في الكهل وهو يحدق في النيران وبدت لي تجاعيد وجهه رهيبة مخيفة ورأيت عبرات تتهاوى من مقتليه الى أخاديد وجهه .. وعاد يتساءل بصوته المتحشرج :

– هل علمت كيف جنت ؟ ليس هناك في جنونها أي عجب أما العجب حقا . فهو أنني الآن لم أجن ؟

– أنت ؟ أنت تجن ؟؟ وما شأنك أنت بها ؟

– انى زوجها ، أبو الطفل المحروق ، وزوج المرأه المجنونة ، غبت عنهما يومين فعدت لأراه رمادا ، وأراها مخبولة هائمة ، لا تعرف من أكون .

– ولكن ، جثة من كانت اذن تلك التى عثروا عليها طافية فوق النهر ؟

– جثة قتيل آخر .

– وأنت ؟ أين كنت في غيبتك ؟

– كنت أقتل القتيل .. كنت أدبر الجريمة وأحكم صنعها واخفائها . غبت بضعة أيام قتلت فيها غريم لي كنت أبغضه وأحقد عليه . لقد استدرجته الى كمين ثم أطبقت عليه فأخمدت أنفاسه ونزعت روحه ومثلت بجسده شر تمثيل حتى شوهت معالمه . ولم يعد أحد يستطيع تمييزه ثم ألقيت بجثته الى النهر .

ونفضت يدى من الجريمة والثقة تملأ نفسى فى أن احدا لن يكشف أمرها . كانت جريمة محكمة عرفت كيف أخفى منها كل أثر وعرفت كيف أحبك الأطراف وأحكم التدبير وأخفى المعالم . ولم يستطع احد من أهل البلدة أن يعرف الجانى أو يدل على المجرم ولم يكتشف أحد جريمتى ، ولم ينزل بى أحد أى عقاب ، إلا واحد يرمقنى من عال : اكتشف جريمتى وأنزل بى العقاب وأى عقاب .

عويل الرياح

﴿ قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا الا ماشاء الله لكل أمة أجل اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾

« قرآن كريم »

– لا ، لا . أنا لست مجنونا . حتى اضيع يوما بأكمله من أجل « غدوة » .

– ليست المسألة مسألة « غدوة » انه واجب لا بد أن تؤديه ، انه عمك و ..

– ليس بعمى

– عم أبيك

– ابن عم عم أبى

– ليكن ما يكون .. عمل أو عم أمك أو عم أبيك . انه قريبك وليس له غيرك ، ولا أظن زيارته كل بضعة أعوام بالشىء الذى يشق عليك .. لا سيما أن الرجل قد أرسل يدعونا لزيارته .. وليس من الذوق أن نخيب رجاءه .

– أنت تعرفين رداءة الطريق وطوله وكثرة المطبات التى به ، قلت لك أنه يجب أن نعتبره واجبا . والواجب ليس دائما بالأمر الممتع السهل .

– ثم أن السماء ملبدة بالغيوم والريح تهب قبلية باردة . ولا أظن النهار سينقضى دون أن تمطر السماء . فماذا نفعل اذا انهمرت علينا سيولا فى الطريق وانقلبت أتربة الطريق أوحالا ، وأصبحت العودة ..

– أرجوك ، كفى تخمينا وتشاؤما . ان السماء لن تمطر والجو عادى . ثم هب أنها أمطرت فلن تمطر الا بضع قطرات لن تغلق الطريق ولن تجعل السير مستحيلا . اننا لم نسمع من قبل فى مصر عن السيول التى تتحدث عنها . أرجوك ، لا تكن مكسالا . انه عمك أنت وليس عمى أنا .. قم وارتد ملابسك حتى لا نتأخر .

– أمصرة أنت على الذهاب .

– قم ، قم . اننا سنتسلى بالسفر كثيرا .

وهكذا أقنعت ليلى زوجها محمود بالسفر لقضاء يوم الجمعة فى عزبة عمه عبد الفتاح بك شلبى المستشار السابق .

والواقع أن كلمة « عزبة » بها شىء من التفخيم والمبالغة ، فقد كانت الأرض كلها لا تتجاوز العشرين فدانا زرعت معظمها أشجارا للفاكهة وتوسطها البيت الذى يقطن فيه الرجل ، وهو يعتبر من أفخم البيوت الريفية . وقد ابتاع عبد الفتاح بك الأرض والبيت منذ بضع سنوات عقب احالته الى المعاش .

– وكان الرجل يرغب فى تمضية ما تبقى من حياته فى هدوء وسكينه .. لا سيما وأنه كان وحيدا عاش أعزب بلا زوج ولا بنين لا يؤنس وحدته غير أم أحمد الطباخة التى ظلت فى خدمته منذ ما يقرب من الثلاثين عاما .

* * *

وانتهى محمود وليلى من ارتداء ملابسهما وبدءا رحلتهما بالعربة فى الطريق الزراعى . وفى الطريق تساءلت ليلى ضاحكة :

– ترى أما زال بيت عمك مسكونا ؟

– أتصدقين تلك الخرافات ؟

– ألم يقل لنا عندما ابتاعه أن الشائعات تجزم بأنه مسكون وأنه لهذا اشترى البيت والأرض التى حولها – كما قال – بالتراب ؟

– لعل العفاريت تساعده فى العمل فى الأرض .. ان أجر العامل اليوم مرتفع فلعله يستعيض بالعفاريت عن العمال .

قال محمود جملته ساخرا ثم استغرق الاثنان فى الصمت مرة أخرى . وأخذت العربة تنهب الطريق وهى تقفز بين آن وآخر اذا ما صادفها مطب .

* * *

لندع العربة فى الطريق ولنسبقها الى البيت ، فتجد العجوز قد استلقى فى أحد المقاعد المستطيلة المريحة وقد ارتدى جلبابا أبيض ووضع على كتفه عباءه ثقيلة من الصوف ، وغطى رأسه بطاقية استقرت حافتها على أذنيه وأخفت كل جبينه وجزءا من حاجبيه ، وبدأ وجهه نحيلا مجعدا قد تناثرت فيه الشعيرات البيضاء .. واستقر المنظار على مقدمة أنفه وتهدل شاربه الأشيب على شفتيه ، ومن أسفل الجلباب بدت ساقاه النحيلتان وقد غطتها ساقا السروال الطويلتان .. ودست قدماه فى البنتوفلى الصوف ، وأمسك بيديه احدى الصحف يقلب عينيه بين أعمدتها ثم أخذ ينظر الى الساعة المعلقة على الحائط بين آن وآخر . وبدت بباب الصالة التى استقرت فيها العجوز أم أحمد الطباخة بجسدها السمين ورأسها المربوط بالمنديل « أبو أوية » وقالت متسائلة :

– ألم يأت محمود بك ؟

- لم يأت بعد ، لعله فى الطريق .
- أو لعله لن يأت .

- لا أظن ، فلا بد أن يكون خطابى قد وصل اليه ، وقد الححت عليه فى الحضور ، فانى أريد أن أبت فى هذه المسألة التى تشغل رأسى .
- أية مسألة ؟

- أنت تعلمين أنه وارثى الوحيد . ولا بد أن يؤول اليه البيت . وقد يبدو البيت والأرض ارثا محترما يستحق أن يشكرنى عليه . ولكنى فى الواقع عندما أخلو الى نفسى أحس بشىء من تأنيب الضمير عندما أفكر أنى سأفرض عليه هذا البيت المشئوم ، وأن هذه الشائعات التى تحيط به قد تصدق فيصيبه شؤمه وتلحق به لعنته .

- اذا كنت تخشى عليه منه فلم لا تبيعه ؟

- اننى لا أريد أن أبيعه وأنا حى ، فأنا لا أخشى على نفسى منه ، بل انى فى الواقع شغوف بأن أرى التجربة بنفسى .. وأرى ما اذا كان هذا الشؤم المزعوم سيصيبنى ، أم هو لا يزيد عن حديث خرافة وشائعة مرجف ، انى لأرى نفسى خير محل للتجربة فقد شارفت على السبعين ولا أظن نهايتى ستتأخر كثيرا . ولذا فلست أهتم كثيرا بالطريقة التى سأنتهى بها ، ولا يزعجنى بتاتا أن أموت على الفراش فى هدوء وسكينة أو أموت - كما هو مفروض على كل مالك لهذا البيت - موته عنيفة .. فسواء عندى الموت العنيف أو الطبيعى ، كلها موته ستنتهى بنا الى نفس المآل ولست أخشى النهاية لأنى قد شارفتها ولكن الذى أخشى عليه ، هو المسكين الذى سيؤول اليه هذا البيت ، انه ما زال شابا .

- اذن فليبعه هو .
- لا أظنه سيرضى ، حتى لو صدقت الشائعة على .. وانتهيت الى

مصير أسلافى من ملاك البيت ، فالانسان عندما يكون فى مثل شبابه وفى مثل حيويته يصعب عليه أن يصدق هذه الظنون ، ولا يملك الا أن يسخر بكل ما هو غير كائن ولا ملموس من أشباح وأرواح ولعنات وشؤم . ان تفكيره الواقعى يدحر أمامه كل تلك الأوهام ، ولا أظن جمال البيت الا بمغرية باستبقائه ، وأغلب الظن أنه حتى لو حاول بيعه فلن يجد له مشتريا بسهولة .

- على أية حال انه أدرى بنفسه ، وهو المسئول عما يملك ..
- ولذا قد دعوته حتى يكون على بينة من أمره .

★ ★ ★

فى تلك اللحظة كان محمود يقترب بعربته من قنطرة على احدى الترع ، وعندما شارف حافة الترعة وجد حبلا يصل بين حافتى القنطرة ويشد عليه الطريق ، وأنبأه أحد الفلاحين أن القنطرة بها خلل وأن المرور محول الى طريق جانبى متفرع من الطريق الأصلى حيث وضعت قنطرة مؤقتة تستعمل لعبور الترعة حتى يتم اجراء الاصلاح بالقنطرة الأصلية ..

وأشار الرجل لمحمود على الطريق الذى يتبعه ، فأخذ محمود فى تحويل اتجاه العربة ثم عاد أدراجه ليتبع الطريق الآخر .

وكان الطريق ضيقا شديد الوعورة اذا لم يكن يستعمل لغير الدواب . ولكن السير لم يطل به فيه حتى وصل الى حافة الترعة ووقف أمام القنطرة الثانية ..

وتردد محمود برهة قبل أن يعبر القنطرة ، فقد كان منظرها لا يشجع كثيرا على عبورها بل كان عبورها يعد مغامرة كبرى ، ومع ذلك فلم يطل تردده كثيرا ، وسرعان ما ضغط على محرك البنزين (الاكسلاتير) وسمع قرقعة الألواح تحت عجلات السيارة وفى ثانية عبرت السيارة بسلام .. وضحك محمود قائلا :

- ربنا يستر في العودة ..

ثم أخذ يخوض في الطريق الضيق مرة أخرى حتى وصل الى الطريق الأصلي ..

ولم يطل بهما السير كثيرا حتى أشرفا على الدار ولاحت لهما الصفوف المتكاثفة من أشجار الجازورينا التي تحيط بأشجار الفاكهة والتي تحدد الأرض من الخارج وتشقها في صفوف متقاطعة لتحجب عنها الريح .. ودارت العربة يمينا لتدخل في بوابة كتب عليها ، طريق خاص ، وسارت بين أشجار الجازورينا الكثيفة العالية .

وكانت السماء مليئة بالسحب السوداء الداكنة .. والريح تهب وقتذاك صرصرا عاتية .. فتنفذ بين أوراق الجازورينا الرفيعة لتحدث بها صوتا عجيبا أشبه بالنواح والأنين .

وأنصتت ليلى في دهش وتساءلت :

- محمود ، أتسمع هذا ؟
- ماذا تقصدين ؟
- هذا الصوت العجيب الشبيه بصوت امرأة تولول وتنوح .
- أتعنين صوت الرياح تنفذ خلال أشجار الجازورينا ؟
- أجل .. اني ما سمعت الريح تولول بمثل هذا الصوت الحزين .

وأخيرا وصلت العربة .. ووقفت أمام الباب الخشبي للحديقة التي تحيط بالدار ، والتي تكاثفت فيها الأشجار حتى حجبت كل ما حولها .. فاستقبلهما بستاني كان يعمل بالحديقة وقادهما الى الباب الداخلي حيث وقف العم يحييهما مرحبا .

وعند الانتهاء من الغداء والبدء في احتساء القهوة بدأ الحديث في

موضوع البيت والشائعات التي تحيط به .

قال العجوز مجيبا على سؤال وجهته ليلى :

- الواقع انه ليس مسكونا بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة وأظنني أدرى الناس بذلك . فاني أستطيع أن أؤكد انني خلال كل هذه السنين التي قضيتها فيه لم أر به شيئا يثير الوساوس أو يبعث على الشك . لا أصوات ولا أشباح ولا أي شيء من هذا القبيل . وأستطيع أن أجزم أن كل ما يلصق به من هذا القبيل لا يعدو الخرافات أو الاشاعات الكاذبة التي لا أصل لها والتي يتناقلها الناس بعضهم عن بعض .

وصمت الرجل برهة حتى بدأ كأن حديثه قد انتهى .. ولكنه جذب من سيجارته نفسا طويلا نفخه في الهواء ثم عاد يقول :

- ولكن ذلك لا يمنع من أن ثمة شيء آخر يلصق بالبيت . قد يكون حقيقة أو مصادفة .. وهو أنه بيت مشؤوم ما من انسان تملكه الا وانتهى بفاجعة ومات قتيلا .

وتساءلت ليلى في دهشة :

- أو حدث ذلك حقا ؟

- الى حد ما أعلم ، نعم ، فأنا أعرف ثلاث فواجع حدثت لثلاثة من ملاكه .

- أمر عجيب !
- الأول علي بك هاشم .. والثاني رجل ثري ايطالي يدعى مسيو سكارابي ، أما الثالث فكان رشاد بك زكي .. ولقد كانت الاصابة - اصابة الشؤم - في ولديه وليس فيه .

وعادت ليلى تسأل في صوت خائف ولهجة وجلة :

– كل هؤلاء تظهر عفاريتهم فى البيت ؟

– لم أقل ذلك.، ان ذكر العفاريت لم يجر على لسانى . كل ما قتله هو أنهم قتلوا !

وهز محمود رأسه متسائلا :

– وكيف قتلوا ؟

ووضع الرجل كفه على جبينه كأنما يعتصر ذهنه أو كأنه يجمع شتاته ليقص القصة . وبعد فترة من الصمت بدأ حديثه قائلا :

– الأول ، على بك هاشم ، هو الذى شيد البيت وزرع كل هذه الأشجار المتكاثفة حوله . ويبدو لى أنه كان مخلوقا مقتدرا وأنه لم يكن يبغى من هذه الأرض ربحا وانه شيد البيت لمزاجه الخاص فقد أنفق عليه مبلغا طائلا ، حتى لم يعد البيت بيتا ريفيا بل قصرا منيفا . كما تفنن فى عمل حديقته .

وكان الرجل يعيش مع زوجته وحدهما ، ولم يكونا قد أنجبا أبناء ، وكانا يقضيان معظم وقتهما فى هذا البيت رغم أنهما كانا يملكان بيتا فى القاهرة ، وقد تعود الرجل خلال نزوله فى البيت أن يدعو الكثير من الأصدقاء والأقارب لزيارته ، وكان كثيرا ما يقيم الولائم والحفلات ، فقد كان مخلوقا كريما محبوبا .

وفى ذات يوم دعا أحد أصدقائه وزوجته لقضاء بضعة أيام فى البيت ليتمتعا بالمناظر الريفية ، وعندما جلس الأربعة للغذاء فى أول يوم وجدوا الطباخ قد أعد لهم مائدة حافلة بأشهى الأطعمة ، وكان أهمها قارب طويل به سمكة أعدت بالمايونيز .

وقبل أن يبدأ الطعام قال الصديق ضاحكا وهو يشير الى السمكة :

– يقولون ان المايونيز كثيرا ما يسبب التسمم ولكن منظر السمكة – مع ذلك – يغرينى بالانتحار .

ثم دفع ملعقته فى السمكة وهو يقهقه قائلا :

– آل يا روحى ما بعدك روح ، اقرأ الفاتحة على روحى يا هاشم بك واكتب على قبرى « مات شهيد المايونيز » .

وجاوبه هاشم على قهقهته بقهقهة أعلى منها وقال وهو يغترف من المايونيز فى طبقه . والله لن أعيش بعدك ثانية .

وصمت عبد الفتاح بك برهة ثم أطلق من صدره تنهيدة حارة وأردف قائلا :

– وفعلا لم يعش بعده ثانية ، لقد مات الأربعة ، الرجلان وزوجتاهما ماتوا جميعا متسممين من طبق المايونيز .

وقد تبدو لنا الحادثة طبيعية ولكن أهل الناحية أبوا الا أن يلصقوا النحس بالبيت فقد استكثروا على طبق المايونيز أن يصرع أربعة . ولو كان التسمم قد اقتصر على صاحب البيت وزوجته لكان أمرا معقولا ، اما أن يصرع الأربعة مرة واحدة فهذا لم يكن فى نظرهم بالأمر الطبيعى .

ومرت الأيام بعد ذلك والدار خاوية على عروشها ، اذ لم يجسر أحد من الورثة على أن يغامر بسكناها ، حتى هيأ الله لها مالكا جديدا ، هو مسيو سكارابى ، أقدم على شرائها ساخرا من تلك الشائعات التى يثيرونها حولها ، فأقسم أن أول أكلة يتناولها فى البيت لابد وأن تكون طبقا من المايونيز .

وفعلا افتتح البيت بأكلة مايونيز ، ولم يمت بالطبع ، رغم أن أهل الناحية ظلوا يتوقعون موته بين آونة وأخرى .

لم يمت الرجل بالمايونيز ، اذ لم يكن الشؤم يحل بنفس الطريقة ومع

ذلك فان نهايته سرعان ما حانت ولقى الرجل مصرعه بطريقة جديدة .

كان مسيو سكارابى من أثرياء الأجانب الذين يقطنون مصر ، وأظنه كان يمتلك مصنعا للسجائر ، وكانت هوايته المحببة هى ركون الخيل ، وقد تتوهمون من مجرد قولى انه كان يهوى ركوب الخيل ، انه لابد قد سقط من فوق جواده ودق عنقه ، وهذا ما كان يتوقعه فعلا كل من حوله ، ولكنه مع ذلك لقى مصرعه بطريقة مبتكرة لا تخطر على بال .

كان الرجل يخرج لتدريب جواده على القفز ، وقد رغب فى أن يهىء فى الحديقة ساحة للتدريب يقيم فيها بضعة حواجز . وكانت توجد فى ركن الحديقة ، الساحة التى ينشدها ولكن احدى شجيرات الكافور الضخمة كانت تقف عقبة فى سبيل اعدادها ، فأمر رجاله من الفلاحين بازالة الشجرة .

وقد تكون لديكم فكرة عن كيفية قطع الشجرة . ان أول ما يفعلونه هو ازالة الفروع العالية حتى يبقى الجذع وحده ثم يحفرون حول الجذع ويقطعونه من جانب واحد ويربطونه من أعلاه بالحبال ثم يجذبونه تجاه الجانب المقطوع فيهوى الى الأرض .

ولقد قام الرجال بقطع الفروع كلها تقريبا فلم يبق سوى فرع كبير لم يكد يضربه الرجال بضع ضربات حتى هوى ، ولكنه لم يسقط الى الأرض بل ظل طرفه الأعلى مسندا الى شجرة مجاورة وظل الفرع معلقا بين جذعه الأصلى والشجرة الاخرى ، وترك الرجال الفرع المعلق ، فقد كان من العسير أن يقطعونه للنهاية حتى يهوى ، وأخذوا يضربون الجذع الأصلى من أسفله .

ولكن سكارابى كان من نوع عجول حامى الطبع لا يعرف الصبر ، وساءه أن يظل الفرع معلقا ، فسرعان ما أخذ من أحد الرجال الفرع المعلق ، فقد كان من العسير أن يقطعونه للنهاية .

وكان الرجل خفيف الحركة مفتول العضل ، وسرعان ما كان يقف عند

أول الفرع وأخذ يضرب ببلطته الجزء الذى لم يتم قطعه وبعد بضع ضربات أوشك الجزع أن يهوى ، ورفع سكارابى يده بالضربة الأخيرة ولكن توازنه اختل فهوى الى الأرض .

ولكى يتم المنظر ، هوى الفرع المعلق فوقه ، فهشمه تهشيما ومزق جسده اربا .

وأخلد العجوز الى الصمت برهة ريثما يتمالك أنفاسه ويستعيد فى ذهنه الجزء الثالث من القصة .

وبدأ على ليلى القلق والخوف مما يوشك أن يقص ، فقد كانت تعرف أنه سيقص مصرع الطفلين ، وليس أشق على النفس من حواث الأطفال .

وأخيرا عاود الرجل حديثه قائلا :

– أما رشاد بك زكى وهو المالك الثالث فقد كان من كبار التجار ، ويبدو لى أنه لم تكن لديه فكرة عن الشؤم الذى يلازم البيت ، فقد تمت الصفقة بسرعة ، وكانت قد مضت مدة طويلة على الحادثة الأخيرة ، وظل البيت خاليا حتى نسى الناس أمره .

وكان رشاد بك من كبار تجار القطن ، رجلا مقتدرا ثريا ، وقد ابتاع البيت لزوجته وأولاده ، وأخذ فى تهذيب الحديقة وتقليم الأشجار ، وسرعان ما عاد الى البيت منظره ورونقه وبهجته .

وكان أول تجديد قام به هو بناء حوض للسباحة لولديه خالد وابراهيم اللذان لم يتجاوزا التاسعة .

وكان حوض السباحة هو السبب فى هذه المرة .

لم يغرق الطفلان ، لان الغرق ميتة معقولة . فضلا عن أنه لم يكن هناك

مبرر للغرق والطفلان يجيدان السباحة .

ولكنهما مع ذلك ماتا فى حمام السباحة .

وقعت الحادثة فى احدى الليالى ، وقد خطر لأحد الطفلين أن يذهب للسباحة ليلا ، فعرض على أخيه الفكرة وتسللا الاثنين من البيت دون أن يشعر بهما أحد ، وذهبا الى الحوض فى الظلمة المدلهمة ووقفا على سلم القفز ، وقفزا .

وكان الحمام فارغا ، وهبط الطفلان على رأسيهما الى أرض الحمام ، ولم يكتشف أحد الحادث حتى الصباح عندما ذهبت الأمم تبحث عن طفليها فلم تجد سوى الجثتين وبقع الدماء وفتات المخ المتطاير .

ولم يكد الرجل ينتهى من حديثه حتى اندفع الباب المؤدى الى الحديقة والذى لم يكن قد أغلق جيدا تحت وطأة الريح وهبت الريح عاتية تعصف بالستائر وأغطية الأثاث ، وتدفع أمامها أوراق الصحف الملقاة على الأرض .

أرهفت ليلى أذنيها وأخذت تنصت فى عجب مشوب بالخوف وقالت فى صوت خافت :

– أتسمع ؟

وتساءل عبد الفتاح بك فى اهتمام : ماذا ؟

– هذا الصوت .

– أيو صوت ؟

– صوت العويل والنواح الذى يصاحب هبوب الريح .

– أتسمعينه أنت أيضا ؟

– أجل ، أجل .

وكان محمود قد نهض فأغلق الباب وعاد يقول فى هدوء :

– انه صوت الرياح تعبث بالجازورينا .

وصدق العجوز على قوله وهو يهز رأسه فى تؤدة قائلا :

– أجل انه صوت الرياح ، انه لا يمكن أن يكون سوى ذلك وصمت برهة ثم أردف قائلا كأنه يتم بقية حديثه :

– هذه هى المآسى التى حدثت لاصحاب البيت ، لم تكن هناك أشباح ولا أرواح . ولكن الفلاحين يأبون أن يصدقوا ذلك .

ولم يكن من المستطاع صد تيار الشائعات التى أخذت تنسج القصص المحكمة عن الجنية التى تطوف بالدار مولولة نائحة ، لاسيما وأن هذا الصوت الذى سمعتموه الآن كان يصاحب كل حادثة .

أجل ، ان هذا النواح والعويل الذى يصدر من عبث الريح بأشجار الجازورينا قد سمع فى كل حادثة ، لقد تحدث عنه الخدم فى يوم أكلة المايونيز ورواه الرجال يوم حادثة الشجرة ، وجزم به الخفير ليلة سقوط الطفلين .

وضحك محمود واعترض قائلا :

– ان الصوت لابد أن يصدر كلما هبت الريح ، ولابد أن صادفت الحوادث الثلاث أياما ذات ريح .

– قولك معقول ، ولكن لا أحد يقبل تصديقه هنا . انهم يأبون الا أن ينسبوه الى الجنية الباكية المعولة ؟ على أية حال ليقل الناس ما يقولون ، لقد صممت أنا على أن القى التجربة بنفسى . انى لست صغيرا ، وانى لأتوقع النهاية بين آونة وأخرى ، وسواء عندى مت قتيلا أو مت موتا طبيعيا ، ولكن الدور عليك أنت انك أنت الذى سترث البيت وانى أخاف عليك أن تبتلى به .

ولم يتسطع محمود أن يكتم ضحكته وقاطعه بقوله :

- لا تخش شيئا . ان شاء الله ستتمتع بعمر طويل وسأتمتع بعدك بعمر أطول ما دمنا لا نأكل المايونيز المسموم . ولا نتسلق فوق قمة شجرة ولا نقفز في أحواض السباحة الفارغة .

- أوافقك على كل ما تقول ، ولشد ما يسرني منك شدة ايمانك وتفاؤلك وعدم اعتقادك في هذه الخرافات .

وكانت الساعة الرابعة عندما بدأت العربة تتحرك بمحمود وزوجته عائدة بهما الى القاهرة وكان عصف الريح واكفهرار السماء يشتد . بل ان الرذاذ قد بدأ يتساقط فعلا .

وبعد برهة قال محمود وقد اقتربا من مفترق طريق يؤدى من اليسار الى طريق ضيق :

- أظن أن هذا هو الطريق الذى يوصل الى القنطرة الجديدة الذى عبرناه في المجيء .

وأجابت ليلى دون تفكير وهى ترقب المطر الذى أخذ يشتد :

- أظن ذلك .

ودلف محمود في الطريق الضيق ، وأخذت العربة تهبط فوق المطبات واشتد انهمار المطر . وتساءلت ليلى :

- لماذا لا تشغل مساحة الزجاجة حتى تكشف الطريق أمامك .

- انها لا تعمل . والطريق واضح .

ومضت فترة طويلة دون أن تصل العربة الى القنطرة ، ودون أن يبدو أثر للترعة ، وقال محمود :

- أظن من الخير أن نقف لنمسح الزجاج فانى لا أكاد أبصر شيئا أمامى ..

وغادر محمود العربة وأخرج منديله ومسح الزجاج ثم عاد الى مقعده وواصل السير .

ومضت فترة أخرى دون أن يبدو للقنطرة أثر ، وقال محمود :

- الظاهر أننا قد أخطأنا الطريق .

- انى أرى طريقا على يميننا ، اتجه اليه .

- لا . لا ان من الخطر التخبط ، وانى أرى من الأفضل أن نعود من نفس الطريق الأصلى ، ثم نأخذ الطريق الصحيح .

وأخذ محمود يغير اتجاه العربة ثم عاد القهقرى مرة أخرى .

وبدأ الظلام يسقط ، فلم تعد العربة الى الطريق الأصلى الا والظلمة قد اشتدت والنهار قد ولى

وكان المطر مازال ينهمر في قوة ، والريح تشتد والعويل يأتى من بعيد حتى يكاد لا يسمع .

وتمهل محمود في السير ، وتساءلت ليلى :

- لماذا لا تضيء النور الكبير ؟

- الظاهر أنه يوم نحس . انه لا يضيء ، ربما قد حدث تماس أو ربما تكون المصابيح قد احترقت .

وبعد برهة توقف محمود وأخذ يمسح الزجاج مرة ثانية وقال لليلى :

- أظن هذا هو الطريق الصحيح ، انى أذكر أن شجرة الكافور هذه كانت على يمينه .

ومرة أخرى دخل محمود فى الطريق الضيق ، وسارت العربة الهوينا ، وقال محمود فى ضيق :

– انى لا أكاد أبصر شيئا أمامى ، لقد عاد المطر يغطى الزجاج ما العمل ؟

– سأفتح زجاج النافذة وأطل برأسى منها لأرشدك على الطريق وعليك أن تسير بمنتهى البطء .

– ولكنك ستتعرضين للبرد .

– ليس أمامنا سوى ذلك ، والبرد محتمل .

وبدأت ليلى الحملقة من النافذة وقد أطلت منها مائلة بجذعها مادة عنقها الى الخارج وهى تقول بين آونة وأخرى : يمينك أو يسارك أو رويدا رويدا . وفجأة صاحت ليلى بصوت ملؤه الفزع :

– قف . قف . ان أمامك حفرة كبيرة توشك أن تهوى فيها وضغط محمود الفرامل بعنف فتوقفت العربة مرة واحدة .

واضطجعت ليلى على مقعدها وقد تلاحقت أنفاسها واشتدت دقات قلبها . وغادر محمود العربة وسار بضع خطوات أمامها ليستكشف الهاوية التى كان يوشك أن يتردى فيها ، فلم يجد شيئا ، ووجد الطريق معبدا أمامه .. فصاح بليلى :

– أين هى تلك الحفرة ؟

– لقد رأيتها تفغر فاها وهى توشك أن تبتلعنا يجب أن نعود يا محمود . انى خائفة ، انى أرتجف .

– خائفة مم !

– خائفة من كل شيء .. من الظلمة والمطر ومن عويل الرياح ان من

الجنون أن نحاول العودة هذه الليلة . يجب أن نعود الى بيت عمك ونقضى ليلتنا به ثم نرحل فى الصباح ، انى أخشى أن يكون شئوم الدار قد لحقنا ، فان صوت العويل والنواح يطن فى أذنى طنينا مفزعا .

– ما هذا الجنون الذى تهرفين به ؟ ما لنا وللدار ، والعويل والنواح ، أخرجى من رأسك كل هذه الخرافات . لا تدعى قصص العجوز تؤثر على أعصابك ، انك امرأة متعلمة وعيب عليك أن تفكرى هذا التفكير .

– أرجوك يا محمود أن تعود بنا . ان اليوم يبدو نحسا من أوله انهم كلهم كانوا يسخرون من الشائعات كما تسخر أنت وكلهم راحوا ضحية سخريتهم .

– ليلى ، أرجوك أن تكفى عن هذا الهذيان .

– أى هذيان ؟ ألم تسمع قول عمك ان كل حادث كان يصاحبه هذا العويل والنواح الذى يسمع من هبوب الرياح ؟

– ولكن مالنا نحن وكل هذا ، حتى لو صدق كل ما تقولينه فاننا أبعد ما نكون عن شئوم هذه الدار . انه لا ناقة لنا فيها ولا جمل . أنسيت أن صاحبها مازال على قيد الحياة ؟ وانه اذا كان هناك شئوم واذا كان عويل الرياح ينذر بحادث فانه هو الذى سيتعرض له لا نحن . اننا لم نرث الدار بعد . وما دام عبد الفتاح بك مازال على قيد الحياة فيجب أن نضع فى بطنينا بطيخة صيفى وألا نخشى من هذه الخرافات التى يزعمونها ، هيا أيتها البلهاء وأدع للعم العجوز بطول العمر حتى يقينا لعنة الدار . هيا ولا تكونى حمقاء .

واتخذ محمود مكانه أمام عجلة القيادة وهو يحاول التضاحك وعادت السيارة من جديد متجهة صوب القنطرة التى يفضى اليها الطريق الضيق وعادت ليلى تطل برأسها من باب العربة لترشد محمود فى سيره .

وبعد برهة قالت ليلى .. يبدو أننا نقترب من الترعة . حمدا لله اننا اهتدينا الى الطريق خذ حذرك جيدا حتى نعبر القنطرة بسلام . لا تنحرف هكذا الى اليسار ، أمسك يمينك . أجل هكذا . يمينك ، يمينك . تمهل . تمهل اننا نقترب من القنطرة .

واستمرت العربة تتقدم . وعلى حين غرة صرخت ليلى صرخة فزع : محمود ، قف ، قف .

وصاح بها محمود ناهرا :

– ليلى .. كفى عن هذا الصراخ انك ستقذفين بنا الى الترعة ، ان أعصابك متعبة فأرجوك أن تنامى . أو تغمضى عينيك حتى أعبر الترعة . انك بصراخك تجعلين عجلة القيادة تضطرب فى يدى .

ولكن ليلى كانت مستمرة فى صياحها كأنما قد أصابتها جنة :

– قف ، قف ، قف .

وهبت الريح معولة نائحة . واستمرت هى تصيح بملء فيها :

– قف ، قف . لقد ضللت الطريق . ليس أمامنا قنطرة .

وفى تلك اللحظة هوت العربة الى جوف الترعة .. وضاع صراخها بين القرقعة وعويل الرياح .

★ ★ ★

وأفاقت ليلى لتجد نفسها راقدة على الفراش فى أحد المستشفيات ، ولتعلم انها نجت بأعجوبة وأن زوجها قد قضى عليه فى حادث انقلاب العربة فى الترعة . واندفعت تصرخ كالمجانين وتصيح بمن حولها :

– مستحيل ، مستحيل . لقد قال اننا أبعد ما نكون عن لعنة الدار . ان

البيت لم يصبح لنا بعد ، وان عمه مازال على قيد الحياة ، وهو الذى يجب أن يحل به الشؤم لانحن . أجل ، أجل . ان عويل الرياح لا يعنينا . فليس لنا بكل هذا أية صلة .

ولكنها عندما أفاقت مرة ثانية علمت أن المسألة ليست مستحيلة كما كانت تظن ، لان سقف البيت قد خر على صاحبه فأرداه قتيلا فى جلسته .. وعندما أخرجت جثته من بين الأنقاض تبين أن ساعته قد وقفت على الساعة السابعة ، الساعة التى انقض عليه فيها السقف فحطم جسده .

وعندما أخرجت جثة محمود من الترعة كانت ساعته قد وقفت على السابعة والخمس دقائق .

لقد ورث الدار لمدة خمس دقائق .. كانت كافية لأن يحل به شؤمها ..

نفحة من الإيمان

﴿ قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكـاة مادمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلى جبارا شقيا والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾ .

« قرآن كريم »

ارتد الراعى ببطء حذرا من حافة الهاوية ، وقال مشيرا بعصاه الى جوفها النائى السحيق :

– لا فائدة هنالك .. لقد ضل سبيله بين الأشواك فى جوف الهاوية .. خير لنا أن نعود الى القطيع ، وليدبر الله أمرنا وأمره .

وعلى الصخور الصلدة وقف بجواره رجلان : رجل مثله فى مقتبل عمره وميعة صباه .. وآخر قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا .. وهز

أولهما رأسه مؤمنا على قول صاحبه ، وأدار ظهره الى الهاوية وقد هم بالعودة معه .. ولكن الكهل لم يتحرك ، بل استمر يحملق فى الهاوية ببصره ، وقد اتكأ بجسده الضامر الناحل على عصاه ، وأرهف أذنيه إلى صوت قد انبعث من أسفل وسرى فى ذلك الهواء الراكد الحار ، فلم يكد يصل الى الأسماع حتى التقطته همسا خفيفا وأنينا خافتا .

وأبطأ الشابان الخطى ، وتلفتا الى الراعى الكهل ، وأعاد أحدهما القول مرة أخرى :

– لا فائدة يا أبتاه .. نحن لا نملك له نفعا .. وخير لك أن تعود معنا .

ثم جذبه برفق من ذراعه وأردف قائلا :

– هيا بنا .. ان الأمر لا يستحق كثير حزن ولا أسف .. فهو على أية حال أصغرها ..

وأطرق الكهل برأسه وتمتم كأنما يحدث نفسه :

– أنا أعلم أنه أصغرها .. بل أشدها حمقا .

وصمت برهة قصيرة ثم ضرب الأرض بعصاه فجأة ورفع رأسه قائلا فى حزم واصرار :

– سأذهب خلفه .

انك لا تستطيع .. فلا سبيل لك اليه ..

ثم ان هذا ليس بعملك .. فما كنت راعيه ولا مسئولا عنه وسنخبر السيد أنه لم يكن من العقل فى شىء أن نترك القطيع كله لنلقى بأنفسنا الى الهاوية خلف هذا الصغير الأحمق .. هيا بنا يا أبتاه فان الله لم يهبنا بعد أجنحة ..

– سأسير حتى نهاية الوادى ثم أهبط من الممر الأسفل كى أخلصه .

– أتدرى أن المسافة ليست أقل من تسعة أميال .. وفوق ذلك لن تستطيع الوصول اليه .. فالمكان هناك شديد الانحدار بحيث لا يمكن السير عليه .. ولكن الكهل كان قد حزم أمره فلم يجبهما بكلمة .. وأولاهما ظهره .. وسار فى سبيله آخذا فى الصعود على المنحدر المترامى فوق الأرض الصلبة الملاصقة لحافة الهاوية .

وكان الصوت الخافت يطرق سمعه بين لحظة وأخرى ، وقد أخذ يدب متكئا على عصاه والشمس قد توسطت كبد السماء وامتدت منها ألسنة من السعير تلفح وجهه وتلهب جسده ، وبدا الطريق أمامه شاقا طويلا .. وساقاه النحيفتان المتخاذلتان لم تعودا تحتملان بعد مشقة السير ووعورة الطريق .. فكان يحس فيهما برجفة كلما أوغل فى السير .. ولكنه كان قد صمم على أن يصل اليه ، وأخذ يدبر فى رأسه خطة الوصول .. لقد كان عليه أن يصل أولا الى مجموعة الشجر القائمة عند رأس الأخدود ، ثم يتناول غذاءه ويستريح برهة قبل أن يعاود السير للهبوط من الممر .

وأخيرا بلغ هدفه الأول .. منهوك القوى .. مبهور الأنفاس وقد سرت الرجفة من ساقيه الى كل جسده . فارتمى كأنه كومة من الحطام مستظلا بتلك البقعة الضئيلة التى خلفتها الشجيرات الخشنة الضامرة .. وبعد هنيهات استعاد الرجل بعض ما وهن من قواه وما فتر من عزمه .. ومد يده الى الحافظة التى تعود أن يضع فيها قوت يومه .. فلم يجدها .. فأحس بالعرق البارد يتصبب من وجهه .. انه لم يذق طعاما طيلة يومه .. وقد برح به السغب عقب ذلك السير الشاق المتواصل .. وهو فى حاجة الى ما يقيم أوده حتى يستطيع مواصلة السير والا سقط اعياء فى منتصف الطريق .

ولم يحسن الرجل بألم الجوع قدر ما أحس بمرارة الفشل .. فقد أوجع قلبه أن تقعده حاجته الى الطعام عن انقاذ ذلك الحمل الصغير الأحمق الذى دفعه طيشه الى أن يتسلل من بين القطيع ويضل فى جوف الهاوية ..

وسبح الكهل ببصره فى الوادى المترامى الأطراف وأحس بالهواء يتراقص أمامه من فرط الحرارة التى يتأجج أوارها .. ثم مد يده الى عصاه ببطء وتحامل على نفسه وانتصب واقفا .. لقد صمم على أن يعصب بطنه ويعاود السير .. وليهبه الله من لدنه رحمة ويهيىء له من أمره رشدا .

وتحرك قدماه على الصخور .. وفى حركتهما بطء وتثاقل .. وكان سيره وئيدا كأنما ينتزع ساقيه من الأرض انتزاعا .. وكانت ساقاه مع ذلك تتحركان خطوة فخطوة .

وأخيرا .. وصل الى مسامع الرجل صوت خافت ، ولمحت عيناه بقعة بيضاء ضئيلة فى وسط الجرف الموحش الأسود .. فتجددت قواه .. وأخذت قدماه تتخبطان فى الصخور حتى وصل الى حافة الجرف ولكنه لم يستطع التقدم أكثر من ذلك ، فقد ارتد بصره حسيرا أمام ذلك الانحدار الشديد الذى كانت قدماه أعجز من أن تحاولا تسلقه .. ووقف يرقب الشبح الأبيض الضئيل وقد رفع عقيرته بالصياح وهو لا يستطيع الهبوط أو الصعود .

وأحس الرجل بلهيب الشمس يكاد تحرقه شواظه .. وأدرك أن قواه لا تكاد تساعده حتى على أن يبلغ ظل صخرة يقيه وهج الشمس .. فخر مغشيا عليه فى مكانه .

ولم يعرف كم مضى عليه من الوقت قبل أن تأخذ تلك السحب فى الانقشاع عن رأسه .. ولكنه أحس بذهنه قد عاد يكافح مرة أخرى .. ورأى نفسه يرهف السمع عله يسمع ذلك الصوت الذى كان آخر ما سمعه قبل أن يفقد وعيه ، ولكنه لم يسمع شيئا وفتح عينيه بمشقة ، ونظر الى الجرف الأسود .. الى حيث كانت البقعة البيضاء .. ودهش الرجل ، فقد ابصر البقعة فى مكانه .. ولكن كانت هناك بقعة أخرى .. أكبر من الأولى حجما .. وقد أخذت تتحرك صاعدة تجاه البقعة الأولى .. يا للعجب ترى أهناك حمل آخر .

ورفع يده يظلل عينيه ، وأخذ يحدق فيما رأى .. فلم يستطع أن يميز حقيقة ذلك الشيء الذى أخذ يتجه نحو الحمل الصغير .. وان كان قد استطاع أن يجزم أنه ليس بحمل آخر .. وبدأ يرقبه وهو يتسلق الجرف بمهارة عجيبة دون أن يجد فى تحركه مشقة ولا عناء كأنما يجد فى كل بقعة موطئا ممهدا لقدميه .

وشعر الرجل بضعفه يعاوده .. وأخذت تلك السحب تتراكم على رأسه مرة أخرى .. وأحس بصوت الحمل يطرق أذنيه .. ولكنه كان فى هذه المرة أشد ارتفاعا وأكثر وضوحا .. ثم فقد وعيه وراح فى غيبوبة . وأفاق مرة أخرى على صوت أقدام تقترب منه .. وفتح عينيه فاذا بصبى يكتسى بثوب أبيض قد أقبل عليه حاملا الحمل الصغير برفق بين يديه ، ونظر اليه من خلال عينين زرقاوين شديدتى الصفاء ، وقال باسما :

– لقد أصبح الحمل آمنا يا أبتاه .. وتستطيع أن تستريح فى ظل هذه الصخرة الكبيرة .

وقام الراعى يتبع الطفل ، فاذا بصخرة كبيرة على قيد خطوات قد ألقت ظلها الداكن على بقعة من الأرض نضرة خضراء كساها العشب الرطيب ، وهبت منها نسمات رقيقة عليلة .

وافترش الكهل الأرض وقد أحس بالغبطة تملأ قلبه وبالهدوء والراحة تحلان فى جسده محل التعب والعناء ونظر الى الصبى متسائلا فى كثير من الدهشة : كيف عثرت عليه ؟

– لقد سمعت صياحه وكنت قريبا منه .

ووضع الرجل يده على رأس الحمل وربت عليه فى عطف وحنان ، ثم قال له مؤنبا .. هكذا تأبى دائما الا أن تلقى بنفسك الى التهلكة .. ما ضرك لو سرت فى الطريق وكففت عن الوثوب هنا وهناك .. ان أكثر ما يشق على

فى نصحك أن النصح لا يجديك نفعا وهكذا النصيحة دائما .. ليست أكثر من كلام يسهل قوله ويصعب سماعه . وقهقه الرجل ثم قال موجها الحديث الى الفتى .

لقد نسيت طعامى .. ولولا ذلك لما وهنت قواى .

– ان معى خبزا .. وخلف هذه الصخرة ينبوع ماء .. وشبع الرجل من جوع وروى من ظمأه ، فتمدد على العشب وقد ملأت السكينة نفسه ، وسادت فترة سكون استغرق خلالها فى أحلام حلوة هادئة حتى أفاق على صوت الصبى يسأله مترفقا :

– كم مضى عليك من الوقت وأنت تعمل راعيا ؟

– منذ ولدت يابنى .. انى لأكاد أذكر نفسي الا راعيا . ولكن كان خيرا لك لو سألت .. منذ كم تركت الرعى ؟ فاننى لم أعد بعد راعيا .. لقد أضحيت فى نظرهم كهلا لا يصلح للرعى ، بل يحتاج الى من يرعاه .. أو كما يسموننى « الحطام » ..

وشرد ذهن الرجل برهة .. ثم عاد يقول فى مرارة :

– كان ذلك منذ اثنى عشر عاما .. عندما سمعت السيد يقول انه لم يعد يطمئن الى فى رعى القطيع . لأننى قد أصبحت حطاما باليا . فرفعت كمى لأخفى دمعتين اعتصرهما الحزن من قلبى ودفعهما الى عينى .. وخرجت القطعان وبينهما القطيع الذى تعودت أن أرعاه . وقد استبدل بى راع أكثر فتوة وأشد قوة .. ورأيتنى أتسلل خلف القطيع .. لأننى لم أستطيع سوى ذلك .. فقد عزت على الفرقة .. وشق على البعاد .. لقد منعونى من أن أكون راعيه .. ولكنهم لا يستطيعون حرمانى من أن أكون فردا فيه .

ومع ذلك يابنى .. لقد أبى القدر ألا أن ينصفنى .. وأن يريهم أنى لم أصبح حطاما بعد ، وأنه مازال فى بقية من رمق .. انى لأذكر ذلك اليوم كأنما

بالأمس فقط .. وقد أقبل الليل وادلهمت الظلمات .. واستغرق الكل فى نوم عميق .. وكنت أحس بقلق خفى فلم يغمض لى جفن . وعلى حين غرة شعرت بالخطر يوشك أن يحل ، فقد حملت الى الريح رائحته .. وميزت أذ ناى أصوات ذئاب تقترب .. ورأيتنى أقف وحدى وسط القطيع الراقد دون أن أجد أثرا لبقية الرعاة .. ولم أك أدرى كيف أستطيع دفع الخطر وحدى .. ولكننى كنت أحس فى نفسى بأنى سأدفعه . وأخذت الذئاب فى الاقتراب .. وقلبى يخفق فى ضلوعى خفق شديدا .

ونظرت الى السماء فجأة .. فرأيتها مرصعة بالنجوم .. ولكن أحدها كانت تلمع بشكل لم أعهده .. أجل ما رأيت فى حياتى نجمة تضىء كما كانت تضىء تلك النجمة العجيبة .. ونظرت الى الأرض فاذا بالظلمة انقشعت .. واذا بها قد غمرت بضوء مشرق ذهبى هبط عليها من النجمة الوضاءة .

وخيل الى أنى أسمع فى ذلك الوقت صوتا عجيبا .. أشبه بصوت طفل حديث الوضع .. وأحسست بالسكينة تملأ قلبى والاطمئنان يغمر نفسى .. وتلفت حولى فاذا بالذئاب قد ادارت رؤوسها ببطء وعادت فى سكون لا تلوى على شىء كأنما قد مسها سحر . وصمت الكهل برهة ثم رفع بصره الى الصبى وقال فى صوت يملؤه الرضا والغبطة .. ومنذ تلك الليلة وأنا أحس بالكثير من العزاء .. وأقسمت بعد ذلك ألا أفارق القطيع قط .. حتى يخمد منى النفس وحتى يحملوا الحطام الى جدثه .

ونظر اليه الصبى وقد أشرق وجهه بابتسامه حلوة ثم قال :

– يا أبتاه .. انك لست حطاما .. انك رجل قوى .. فقوة المرء ليست فى جسده .. بل فى قلبه وفى ايمانه .. ان هناك أناسا يولدون حطاما ويعيشون حطاما ويذهبون الى الأجداث حطاما . أما أنت فقد كنت بالايمان قويا . يوم ولدت . ويوم تموت . ويوم تبعث حيا . وأخيرا نهض الرجل وهم بتوديع

الصبى قائلا ان أمامه مرحلة شاقة للعودة ولكن الصبى أنبأه أنه سيعود معه ليحمل له الحمل وليقوده الى طريق قصير يوفر عليه عناء السير .

وسار الرجل خلف الصبى وقد أحس أن قدميه قد ذهبت عنهما تلك الرجفة .. ولم يطل بهما السير حتى أبصر الرجل بنفسه فى مكان تحف به الأشجار الباسقة ، وسمع صوادح الطير تغرد على أغصانها وأحس باشراق فى نفسه وضياء فى قلبه .

ومد الرجل يده مودعا الصبى وقال له فى صوت يفيض بالشكر :

- أنت ولد طيب قوى .. وعندما تصبح رجلا ستكون من خير الرعاة .. كم عمرك الآن ؟

وأجابه صوت الصبى وقد أخذ فى الابتعاد : اثنا عشر عاما !

وأحس الرعاة أن الكهل قد طالت غيبته وخشوا أن يكون قد مسه ضر فعادوا للبحث عنه ، فوجدوه قد رقد فى منتصف الطريق فى تلك البقعة التى خارت فيها قواه من الجوع والتعب . وأبصروا به جثة هامدة تتلظى فى هجير الشمس .. فرثوا له .. ولكنهم لو أدركوا أن روحه تنعم فى ظلال الجنان .. لرثوا لأنفسهم ..


صور طبق الأصل

الإهـــداء

الى خير من فرج عنى الهم .. وأزال الكرب .. الى أحد أصول هـذه الصور .

الصديق

عبد المنعم الشاذلى

«يوسف السباعى»

مقدمة

هذه القصص أخذتها من الناس .. صور طبق الأصل لهذا وذاك .. لا أدعى لنفسى فيها حق ولا فضل .. ولا أحرم على أحد أن ينقل منها أو يقتبس – لو وجد فيها ما يستحق النقل والاقتباس – وكيف أحرم شيئا مشاعا .. شيئا أنا نفسى ناقله من الأصل المجسد .. كيف أحرم على الناس ما أخذته من الناس .

أأستطيع أن أدعى لنفسى حقا فى «امام الفك» و «خال علام» .. وهى مخلوقات حية تسعى بيننا ؟

أم يكفنى أن أضع اسمى عليها .. كأنى قد شاركت الرب فى خلقها .. حتى أحاول أن أدّعى لنفسى عليها حقوقا محفوظة !!

حرام والله .. انى أحس من هذه القصص بمنتهى الخجل .. فلو استطاعت النطق لصاحت بى ..

« أيها المؤلف المدّعى .. رفقا .. ما أنت الا غبى .. مغرور .. محتال .. غبى كغيرك من البشر .. هيأ لك الغرور أنك أفضل من سواك طينة وأطيب معدنا .. فجلست ترقب وتكتب .. وسوّلت لك نفسك المحتالة أن تبيع الناس ما كتبت عنهم .. فتنال منهم النقود .. وربما الاعجاب» .

انها على حق .. انى خجل .. ولولا يقينى بأنى لست المحتال الوحيد فى هذا البلد .. لما أقدمت على نشرها .

« يوسف السباعى »

خال علام

وخرج خال علاَّم من الحمام وهو يصرخ ويتأوه ... ويسأل علام : لم لم يخبره أن الاستحمام عندهم جناية . واندهش علام ، ووقف يستمع لما حدث .

حدثت الواقعة فى ميس السوارى منذ ما يقرب من عشر سنين ، ولست أدرى أى شيطان ضاحك يدفع بها الآن فى رأسى وأنا أجلس للكتابة فيرغمنى على أن أسطرها وأنشرها لتتخذ مكانها بين ما تعودت أن أكتب من أقاصيص . ويبدو لى أن من الخير - قبل أن أروى الواقعة - أن أعطى للقارىء فكرة عن حياتنا وقتذاك ... فأرسم له ما يسمونه « الباك جراوند » التى ستتخذ الواقعة محلها فيه .

كنا ثلة عزَّاب نقطن الميس . والميس - لمن لا يعلم - هو سكن الضباط الذين يعيشون فى التكنات . وكان ميس السوارى مكونا من ست حجرات ، يسكنها دائما أحدث ستة ضباط ، وهو مكون من طابق واحد على شكل مستطيل ناقص أحد الأضلاع .. يشغل الجناح الأيمن منه حجرات السكن .. والجناح الأيسر يشغله صالون الجلوس وحجرة الأكل . ويقوم وراءه بناء منفصل يقع به المطبخ والحمام ، وعنبر لنوم المراسلات وحمام آخر لهم .

هذا عن الميس من حيث البناء .. أما من حيث السكان فاني أجد من العسير على وصفهم .. فان نوادرهم تتكأكأ على ذهنى ، فلا أدرى بأيهم أبدأ ، وقد كانوا كلهم أناسا ظرفاء .. عزازا لطافا .. وكان لكل منهم شخصيته المرحة المستقلة .

انى لأجد الذهن يعود بى القهقرى فيقطع السنين الطوال فى لمح البرق ، وأجد نفسى مرتديا الحذاء الطويل وبنطلون الركوب والقميص ، وقد عدت الى الميس بعد المغرب عقب تمام المساء والهتاف .. وقد أحسست بساقى قد كلتا من فرط السير واللف فى التكنات ، وأدخل الى الصالون لأرتمى على أقرب مقعد .. وليس لى من أمنية سوى أن أنزع الحذاء الطويل لحظة لأريح قدمى .

والتفت حولى فأفاجأ بالبارودى - أحد زملائى - وقد اضطجع فى أحد المقاعد ومدد ساقيه وهو ما زال برداء الطابور وبالحذاء .

وتصيبنى الدهشة من منظره .. ترى ماذا أجبره على البقاء الى هذه اللحظة .. سجين القدمين معذب الجسد ؟ ولم لم يلق عنه ملابسه وينطلق بعيدا الى الخارج ليروح عن نفسه ؟ !

ولا تمضى فترة قصيرة حتى أعرف العلة وأستجلى السبب .

انه اللمونى .. ولا أحد سواه .

أجل ! ان اللمونى هو السبب بقاء أنور البارودى بهذا المنظر حتى الآن .. فلقد كان يناقشه الحساب .. وحساب اللمونى - لو تعلمون - عسير .

ولكنكم لم تعرفوا اللمونى بعد - فيجب على أن أقدمه لكم أولا .

اللمونى هو حكمدار الميس وقائد الطباخين والسفرجية والمراسلات . هو الذى يتولى عملية شراء لوازم المطبخ من السوق .. وهو المسئول أمام ضابط الميس عن تقديم حساب الميس ..

ولا أظنكم تجهلون مبلغ مهارة الطباخين فى المغالطة فى الحساب . وكما كان اللمونى قائد الطباخين .. كان - بحكم المهنة - شيخ المغالطين .

لننظر الى البارودى - وقد كان وقتذاك ضابط الميس - وقد اعتدل فى مجلسه وأوقف اللمونى أمامه يحاسبه حساب الملكين .

- ها .. وجبت ايه كمان ؟

- ست ارطال لبن وأقتين سكر .

- عشان ايه دول ؟

- عشان الرز أبو لبن .

- ست أرطال لبن وأقتين سكر عشان ست أطباق رز بلبن ؟ يعنى قصدك تقول ايه ؟ قصدك تقول ان كل طبق خد رطلين لبن ؟

- مضبوط .

- مضبوط ازاى بقى ؟ ! . طب أنا حاجيب رطل لبن وأفرغه فى الأطباق وأشوف يملا طبق واحد بس زى ما بتقول والا لأ .

ويبدأ البارودى تجربته .. فاذا بالرطل يملأ أربعة أطباق . وينظر الى اللمونى وهو يحاول أن يكتم ثورته ويصيح به :

- ايه رأيك ؟

وبمنتهى الهدوء يجيب اللمونى :

- أصل اللبن بيتبخر ، يقوم يخس .

- طيب بلاش كده .. تعرف الطبق الواحد على حسابك يكلف كام ؟

- كام ؟

- خمسة صاغ .. الطبق اللى بناكله عند استرا أو أسديه بتلاتة تعريفة .. بتعملة انت بخمسة صاغ ، ايه رأيك بقى ؟

- وهو اذا زى بتاع أسدية ؟

- لا العفو .. زيه ازاى ؟ مش ممكن .. على العموم يالمونى من هنا ورايح ما تعملش رز بلبن أبدا . مش ضرورى ناكل رز بلبن .. هات حلو أى حاجة .. هات بلح أمهات .

- كل يوم ؟

- أيوه كل يوم .

- وينتهى حساب الرز أبو لبن ، ويبدأ حساب آخر لا يقطعه سوى دخول الشاذلى مصفقا بيديه منشدا بأعلى صوته : « يا تلتميت مرحبا وسلامات ياخلى .. ياللى تكيد العواذل وانت داخل لى » .

والشاذلى كان فى ذلك الوقت عاشقا .. وقد كان هذا العشق هو سر بقائه فى الميس . فقد كان يقضى جل وقته يهز رأسه ويترنم بأناشيد الهوى .

ويبصر الشاذلى اللمونى وهو يهم بالانصراف من أمام البارودى فينادى عليه :

- لمونى الكلب .. تقدر تقول لى اللحمة اللى جبتها النهارده جبتها منين ؟

- من الجزار .

- مش ممكن ، لازم جبتها من العنقى .. تعرف أنا متهيأ لى أنك انت لما بتروح تشترى لنا الأكل بتعمل ايه ؟ تروح للخضرى وتقول له : عندك كوسة شايخة ؟ يقوم يقول لك لأ . تقول له : ولا بطاطس معفنة ؟ يقول لك برضه لأ .. تقول له : طيب عندك قوطه حمضانه ؟ يقول لك عندى شويه . تقول : طيب لمهم لى ..وبعدين تروح عند الجزار تسأله على لحمه بايته والا منتنة .. وتفضل تلم الزبالة اللى فى السوق وتيجى تطبخها لنا .

- ازاى بقى يا فندم ؟

- أهو كده .. اليوم اللى ماتطبخش فيه يبقى لازم مافيش فى السوق حاجة وحشه .

وبعد لحظة يدخل علام ، فينظر الى اللمونى أيضا ويصيح به :

- لمونى .. من بكره تطلع طابوز ركوب .

وهنا ينهار اللمونى .. فقد كانت تلك أكبر كارثة يمكن أن يصاب بها .. فقد كان بجسده الأبيض السمين المربرب لا يصلح قط للركوب . وكان يعتبر طابور الركوب العذاب الأكبر .

وينصرف اللمونى ، وتتوافد الشلة الواحد بعد الآخر حتى يكتمل العقد وتنطلق الضحكات الخالصة من صدور لا تحمل الهم ولا تعرف الحزن .

وتبدأ الشلة فى التفكير فى العشاء ، فيصيح علام بعثمان شديد :

- وله يا شديد !

- عايز ايه يا علام ؟

- تشاركنى فى أقة عنب ؟

- عنب ايه يا عم .

- طيب تشاركنى فى بطيخة ؟

- لا يا عم أنا ما أحبش البطيخ .. أنا حاتعشى عسل وطحينة .

- ايه ؟ ! وبعدين لما أجيب البطيخة تبقى تقول لى اديني شقة ؟

- يا أخى بلاش دوشه .. ابعد عنى .. بطيخ ايه .. وعنب ايه .

ويشترى علام البطيخة .. ولا يكاد يشقها حتى يهجم عليه شديد خاطفا قلبها .. فيمسك علام البطيخة ويلبسها رأس شديد .

★ ★ ★

ولكن ما لى قد استرسلت فى الدردشة وقص الذكريات ورسم « الباك جراوند » حتى كدت أنسى القصة نفسها ؟

هل يسمح لى القارىء بأن أسترسل به فى مجرد حديث ويغفر لى هذه المرة ألا أعطيه قصة ؟

لا أظن .. فقد ابتليت بأنى قاص ، والقارىء لن ينتظر منى ولن يستسيغ سوى قصة .

حسن .. لنبدأ القصة اذن .. وعوضنا على الله .

★ ★ ★

تلك كانت ثلة ضباط الفرسان الذين يقطنون الميس وقتذاك .. أنا والشاذلى والخضيرى وسعد الدين وعلام وسليمان وشديد وعبد العزيز مصطفى والبارودى .. ثلة مرحة ضاحكة .. نضحك من كل شىء وعلى كل شىء .. لم يكن يشغل بالنا وقتذاك سوى شىء واحد :

هو الحمام المبتل ! !

كنا نخرج مبكرين الى طابور الركوب ، فاذا ما عدنا للفطور بعد الطابور ودخلنا الى الحمام لكى نغسل أيدينا أو وجوهنا وجدنا أرض الحمام مغرقة بالمياه ، وأن هناك من استعمل الدش .

ويرفع علام عقيرته بالصياح :

– يالمونى .

ويأتى اللمونى مرتجفا ، فيصيح به علام :

– ايه الميه دى ؟

ويهز اللمونى رأسه فى دهشة ولا ينبس ببنت شفة . ويستمر علام فى صياحه :

– فيه حد يستحمى هنا واحنا فى الطابور ؟

– لا يا فندم .

– لأ ازاى ؟ .. مش ممكن ، لازم يكون فيه حد استعمل الدش .

ويقسم اللمونى أيمانا مغلظة بأنه لم يستعمله ولم ير أحدا يستعمله .

وأخذت الواقعة تتكرر كل يوم .. نعود من الطابور فنجد أن الحمام مبتل وأن المياه قد أغرقت أرضه .

من ذا الذى يستحم يا ترى ؟

وأقسم علام أن يضبط المستحم فى حمام الضباط متلبسا بجريمته ، وأن يريه نجوم الظهر .

ومرت الأيام ونحن نحاول أن نجد الفاعل عبثا ، حتى كان ذات يوم حضر أحد أقارب علام لزيارته وأظنه خاله .

ورجانا علام أن نحترم أنفسنا أمام الرجل .. وأن نتمسك بأهداب الآداب ونكف عن التهريج ، حتى نظهر أمامه بمظهر محترم .

ولم يكن طلب علام بالمطلب اليسير ، فقد كان من أصعب الأمور أن نتكلف الجد وأن نكف عن المزاح ، ولكننا – مراعاة لخاطر علام وقريبه المحترم – صممنا على أن نكلف أنفسنا ما لا طاقة لنا به ، وأن نتحلى بالجد والأدب .

وكان قريب علام قد حضر من أوربا ، وقد نوى أن يبيت ليلته مع علام حتى يسافر فى غده الى الاسكندرية .

وقلنا لأنفسنا : لا بأس .. ليلة واحدة من الأدب يمكن احتمالها فى سبيل علام ، وفى سبيل أن يأخذ الأغراب عنا فكرة حسنة .

وهكذا تذرعنا بالأدب والتزمنا الجد ، وجلسنا الى العشاء فى سكون وخشية أن ينبو عنا لفظ جارح ، أو كلمة خارجة ، ودون أن نخاطب بعضنا بعضا الا بالرتب والألقاب .

ولست أشك فى أننا قد نجحنا فى محاولتنا أيما نجاح ، وأن الرجل

أعجب بنا أيما اعجاب ، وأننا رفعنا رأس الفرسان عاليا فى نظر الرجل .

وفى الصباح خرجنا كعادتنا الى الطابور ، وعدنا كلنا الى الميس بعد الطابور الا واحدا . هو الشاذلى .. فقد عاد قبلنا وترك الطابور فى منتصفه ، لأنه كان متعبا ، اذ كان على سفر فى الليلة السابقة .

أتسمحون لى ببضعة أسطر أصف فيها الشاذلى ؟

انه انسان يستحق الوصف .. اذ هو بطل الواقعة .

هل تسمحون ؟

سمحتم أم لم تسمحوا .. سأصفه وأجرى على الله .

ان خير ما يوصف به الشاذلى هو أنه رأس وحنجرة ، وهو يستعمل حنجرته أكثر من رأسه .. زعموا أنه كتب له فى تقريره السرى ذات مرة أنه « ضابط لا يحتاج الى بروجى » ، وهو فعلا لا يحتاج الى بروجى .. لأنى أسمع صوته أحيانا وهو يتكلم وأكون جالسا فى مكتبى فى كوبرى القبة ، وأقوم لأبحث عنه فلا أجده ، ثم يتضح لى فى النهاية أنه يتكلم فى مصر الجديدة ، مجرد كلام .

لا أظن أن به ما يوصف أكثر من هذا . اللهم الا أنه حاضر البديهة ، سريع النكتة حاضرها ، ويقولها ولو على نفسه وذويه .. ويفضل أن يقولها ثم يعدم أو يسجن على أن لا يقولها .

وهو مخلوق شديد الذكاء والوفاء ، باطنه خير بكثير من ظاهره ، والفضل فى تشويه ظاهره له وحده فهو خير من يشنع بنفسه ، ولقد قلت له ذات مرة أن خير طريقة لتحسين سمعته هو قطع لسانه ، وهو يتلهف الى سماع الاشاعات وترويجها ويجيد المبالغة لغير ما سبب ولا فائدة .

عاد الشاذلى من الطابور ، واتجه أول ما أتجه الى المطبخ ليسأل اللمونى عما أعده من افطار .. والتهم فى فمه « اللى فيه القسمة » على سبيل التذوق .. وشتم اللمونى بما فيه القسمة أيضا ، ثم اتجه بعد ذلك الى الحمام .

ودفع باب الحمام فاذا به مغلق من الداخل .

ثم دفعه مرة ثانية .

جالك الموت يا تارك الصلاة ، والله وقعت واللى كان كان ..

أجل ! لقد سمع الشاذلى بأذنيه صوت « الدش » وهو ينهمر .

أخيرا وقع المجرم ، وفى حالة تلبس .

شهر بأكمله وهو يستغفلنا جميعا .. ويتسلل الى الحمام ليأخذ دشا أثناء غيابنا فى الطابور .

أنه أحد الطباخين أو أحد المراسلات .

وصاح الشاذلى وفى صوته رنة انتصار :

– افتح يا حيوان .

ولم يسمع أى رد .. بل استمر صوت « الدش » ينهمر ، وقطرات الماء تطرق الأرض وجسم المستحم .

وعاد الشاذلى يصيح مهددا :

– افتح بقول لك .

ولكن لم يجب أحد .. ولم يفتح الباب .

وتراجع الشاذلى عن الباب قليلا .. وبكل قوته دفع الباب بكتفه .. فانفتح .. واندفع هو الى الحمام .. رافعا سوط الركوب بيده .. ليهوى به على الجانى .. ويؤدبه تأديبا سريعا .

تعالت الصيحات ، وتعالت الضربات :

– آى .

– آى يا ابن الكلب .. امال فالح كل يوم تخش تستحمى وتغرق الحمام .

- أنا أصلى ..

- أصلك ايه ؟ ! أصلك حيوان .

- أنا ..

- انت ايه ؟

- أنا قريب علام .

- قريب مين ؟ !

- قريب علام .

- يانهار اسود .. وايه اللى جابك هنا .

وفى تلك اللحظة سمع الشاذلى صوت علام .. وأدرك ماذا يمكن أن يحدث له من علام اذا عرف ما فعله بقريبه ، فترك الحمام .. وانطلق يعدو فى الاتجاه الآخر .. هاربا من الميس .

وخرج قريب علام من الحمام يصرخ ويتأوه ، ويسأل علام لم لم يخبره أن الاستحمام عندهم جناية .. واندهش علام ووقف يستمع الى ما حدث ثم انطلق يعدو فى أعقاب الشاذلى .

ويعلم الله ما فعله به .

ويعلم الله كذلك ماذا كان رأى قريب علام فينا بعد العلقة التى أخذها لمغامرته بالاستحمام .

أغلب الظن أنه كان يفضل المبيت على قارعة الطريق .. فقد كان يصبح أكثر أمنا ! !

★ ★ ★



وصلنا الفرن سوا .. الواد سلّم الورقة بتاعته للفران ، وأنا سلّمته ورقتى .. ورجعت له قرب الظهر كانت اللحمة استوت .. وروّحت البيت أكلت أكلة عمرى ما كلت زيهـــــــــــــــا ..

- هفقت مفتاح !! .

- رحت الفرن ؟ ! .

تلك كانت الصيحات التقليدية التى كانت تنطلق كل يوم في شارع خيرت متبادلة بين حنجرتين قويتين مجلجلتين ، الأولى مستقرة على أحد مقاعد ترام رقم ١٢ ، والثانية قابعة على مقعد على رصيف الشارع أو ممسك صاحبها بأحد الأمواس أو ماكينات الحلاقة يجول بها ويصول فى أحد الذقون أو الرءوس .

كان صاحب الحنجرة الأولى هو أبى .. المرحوم محمد السباعى .. أما صاحب الثانية فقد كان الأسطى محمود المزين ! .

كان أبى يركب الترام من ميدان السيدة ويجلس على مقعده مهيبا محترما

بين الركاب بجسده الضخم القوى الممتلىء ووجهه الأبيض المشرب بحمرة وبذلته الأنيقة المنشاة والطربوش الطويل يحجب معظم جبينه ويستقر على حاجبيه . كان يجلس بين الركاب فى نفخة واعتداد .. ويتحرك به الترام فى شارع خيرت .. حتى يمر بالبقعة المعينة فتنطلق منه صيحة مدوية فى جد واهتمام :

- هفقت مفتاح ؟ ! .

وفى لمح البصر ترتد اليه الصيحة كأنها صدى الصوت منطلقة من الأسطى محمود ، وقد وقف بقميصه وبنطلونه وصلعته اللامعة بصيح متسائلا فى مثل جد أبى واهتمامه :

- رحت الفرن ؟ ! .

وهكذا تنطلق الصيحتان المتسائلتان المتبادلتان والترام ممعنا فى سيره .. كأنهما رصاصتان طائشتان لا تنتظران جوابا .. وترتسم على وجوه الركاب دهشة ويحاولون عبثا أن يفهموا سببا لما حدث أو معنى لما قيل .. وقد يتساءلون فيما بينهم عما قال أبى وعما قال الأسطى محمود .. وقد ينبئهم خبير سبق له الركوب مع أبى من قبل بأن ما قيل هو : « هفقت مفتاح » و « رحت الفرن » ، ولكنه يعجز عن تفسير معناهما وعما يقصد بهما .

ولست أشك فى أن القارىء مهما بلغ به الذكاء الا يتساءل فى عجب وحيرة مثل الركاب ولا أظنه واجدا لسؤاله جوابا شافيا .

ان كلمة هفقت (بفاء مشدَّدة) تعنى فى لغة محمود المزين وفقت .. وللأسطى محمود لغته الخاصة التى تحتاج الى قاموس لتبيانها .. وهى تبدو فى نطقها كأنما يقصد بها الهزل والدعابة فى الوقت الذى ينطقها الرجل فى منهى الجد .. ولا يقصد بها هزلا قط .. لسبب واحد هو أنه لا يستطيع أن ينطبق سواها لأنه أصيب بنزلة جعلت لسانه ملووقا فتعذر عليه النطق السليم .

وكان الرجل من تلقاء نفسه مخلوقا خفيف الدم مرحا مهزارا .. وزاده

ثقل لسانه واعوجاج نطقه خفة فوق خفة .. وأصبح حديثه مهما حاول أن يكون جادا حديثا فكاهيا مضحكا .

كان الأوسطى محمود ينطق « الملوخية » « ملوخله » .. فاذا أراد أن يقول انه سيتغدى ملوخية بالفراخ .. كان قوله : « ملوخله » بالفيران » .. واذا أراد أن يضيف أن الحلو « كنافة » قلبها لسانه الى « كناسة » فأضحى غداؤه الذى يصفه على سبيل التفاخر هو « ملوخله بالفيران والحلو كناسة » ! .

ولم يكن أبى يتخذ الأوسطى محمود مجرد حلاق .. بل كان يتخذه سميرا ومهرجا وصديقا وفيا ، ولم يكن يذهب اليه لمجرد الحلاقة ، بل كان يتخذ حانوته أشبه بمقهى ، يقضى فيه معظم أوقات فراغه فيتلهى بمشاهدة الرائحين والرائحات والغادين والغاديات ويتبادل النكات الطائرة مع الأوسطى محمود اذا كان منهمكا فى الشغل ، فاذا ما شطب جلس معه يسامره ويسليه .

وكان أول عثور والدى على الأسطى محمود .. أو اكتشافه له .. أقول عثورا أو اكتشافا .. لأن والدى كان يعتبر الأسطى محمود لقطة أو كنزا .. وكان يفضل صحبته على صحبة رئيس وزراء ، ويعتبر عن ايمان أنه خير وأفضل وأذكى وأظرف من معظم مشاهير البلد الذين كان يسميهم بالأدعياء .. أقول ان أول عثور والدى عليه كان بصالون الأسطى ابراهيم الحلاق على ناصية شارع السد البرانى وشارع التلول والملاصق لحانوت الفكهانى الكائن فى شارع التلول .

وكان الأسطى محمود وقتذاك عاملا فى صالون الأسطى ابراهيم .. فاكتشف فيه أبى مواهبه .. و تخذ من الصالون مكانه المختار .

والمدهش أن الأسطى محمود - باعتراف أبى نفسه - لم يكن حلاقا ماهرا بل كان أبى دائما يتهمه بثقل اليد .. وكان كثيرا ما يسبب له جروحا فى ذقنه حتى انتهى به الأمر الى أن يتخذ له حلاقا آخر للحلاقة مع بقاء الأسطى محمود فى مركزه الممتاز كسمير ومضحك وصديق .. ومع استيلائه على أجرة الحلاقة الدورية المنتظمة دون أن تمس موساه ذقن أبى أو يمس مقصه شعر رأسه .

وفى ذات يوم فوجىء أبى بخلو صالون الأسطى ابراهيم من الأسطى محمود .. فأصابه الدهش وتساءل عنه .. فأنبأه صاحب الصالون بأنه طرده .. وأنه أحضر بدله صنايعيا ممتازا أكثر منه مهارة وطلب منه أن يجربه .

ولكن أبى لم يكن يعتبر الأسطى محمود حلاقا .. بل كان يعتبره عبقريا ممتازا .. وفيلسوفا كبيرا لم يجد الدهر بمثله .. وتعجب كيف لم يقدر الأسطى ابراهيم مواهبه وكيف طرده بمثل هذه السهولة .. دون أن يبدو عليه أسف ولا حزن .. ودون أن يغلق الحانوت حدادا على ذهابه .. وكيف يدعى أنه أحضر بدلا منه انسانا ممتازا أكثر منه مهارة ؟ .

ولم يجب أبى على دعوة صاحب الصالون .. بل هز رأسه فى حسرة وأسى .. وغادر الصالون دون أن يحاول أن يخطو به بعد ذلك مرة واحدة .

وذهب يبحث عن الأسطى محمود طيلة يومه حتى عثر عليه فى بيته بأحد أزقة البغالة .. ولم تمض بضعة أيام حتى كان الأسطى محمود قد افتتح صالونا خاصا به فى الناحية الأخرى من شارع السد لا يبعد كثيرا عن صالون الأسطى ابراهيم .. وكان أبى يتخذ منه مكانه المختار واضعا ساقا على ساق فى مدخل الصالون .

وسأل أبى الأسطى محمود عن سبب طرده من صالون الأسطى ابراهيم ، فهز الأسطى محمود رأسه وقال أسفا :

– مالهش فى الطين (يقصد الطيب) نصيب . راجل ضلالى ونيته وحشه .

– أيوه مفهوم .. لكن إيه السبب اللى خلاه طردك ؟

– آل ايه بيقول انى هفقت مفتاح .

– بيقول ايه ؟

– هفقت مفتاح .

وبعد الشرح فهم أبى ان الأسطى محمود طرد لأن صاحب الصالون

وجد النقدية فى صندوق المحل ناقصة فاتهمه بأنه وفق مفتاحا فتح به الصندوق وأنه سرق ما به .

واستغرق أبى فى الضحك على تهمة التهفيق التى اتهم بها الأسطى محمود والتى كانت السبب فى طرده وقطع عيشه .

ومن ذلك الحين والكلمة لا تفارق لسان أبى .. فهو لا يكاد يلقى الأسطى محمود ، حتى يصيح به :

– هفقت مفتاح ؟

حتى أضحت بينهما كأنها سلام عليكم !

وكان أبى يأخذ فى شرحها كل مرة لمن لا يعرفها ، حتى ضج الأسطى محمود وقال لأبى :

– يا سى سباعى .. اللّه لا يسيئك كفاية فضايح .. مابلاش السيرة المهببة دى ! دى ماكانتش كلمه .

ومع ذلك فقد استمر أبى يستعملها كتحية للأسطى محمود حتى وجد الأسطى محمود ردا لها .

كان ذلك عندما أقبل عليه أبى ذات عصر متهلل الاسارير ، ضاحك السنّ ، وصاح بالأسطى محمود :

– هفقت مفتاح ! .

فأجابه الأسطى محمود :

– وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته .. مالك مبسوط قوى كده ؟ خير انشا للّه .

– خير قوى .. مافيش بعد كده خير .

– حصل ايه .. أخدت درجه ؟

- أحسن .

- أخذت فلوس من الحاج مصطفى (الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الذى نشر له معظم كتبه ومنها رباعيات الخيام) .

- أحسن .

- شفت بنت حلوه ؟ .

- أحسن .

- فيه ايه أحسن من كده ، يا أخى قوللى بقى وريحنى !

- أكلت ورقة لحمه معتبره .

- ودى حاجه غريبة .. ! ما أنت كل يوم والتانى بتاكل ورقة لحمه .. هوا انت وراك حاجة غير ورق اللحمه وورق الكتب ؟ .

- لا .. لا .. دى حاجه تانيه خالص .. دى ورقة لحمه ممتازه غير اللى كنت باكله خالص .. حاجه ما تخطرش على البال .

- يعنى ايه ؟ مش ورقة لحمه ، والا ورقة بنكنوت ؟ .

- لحمه .. لحمه ياغبى .

-يعنى لحمه من السما ! .

- من الجزار ياحمار .

- طيب كل مره ما انت بتجيبها من عند الجزار .. والا بتجيبها من عند باتا ! .

- دى ورقه ملوكى .. ما وردتش .

- ايه بس حكايتها ؟ .

- أنا أقول لك حكايتها .. النهارده رحت عند سلامه الرباط الجزار

وقلت له يوضب ثلاثة أرطال فى ورقة زى العادة علشان أوديهم الفرن .. قعد يلم من هنا ومن وهنا ، حتة من بيت الكلاوى وحتة من الفخده ، وايشى عضم ، وايشى شغت لغاية ما كمل الثلاثة الأرطال وابتدأ يوضبهم وخرط عليهم البصلة وحط البهارات والتحابيش ولفهم فى الورق وقال لى اتفضل .. حاجه معتبره قوى .

- هى دى الورقة المعتبرة ؟ .

- لا .. مش هى .

- أمال منين الورقة المعتبرة ؟ .

- الورقة المعتبرة لقيته عمال يوضب فيها على جنب .. حتة قطعية نظيفة زى اللوز .. تلاقى حتة العضم ملبسه باللحم وفيها راق دهن زى القشطه .. وقعد يقسم فيها ويوضب ويخرط عليها ويرش ويحبش فاستعجبت وسألت الواد الصبى :

- الورقه دى لمين ؟ .

فرد الواد بصوت واطى :

- دى له .. للمعلم سلامه نفسه .

- وقال الأسطى محمود معلقا على قوله : أظنك اتحسرت .

- قوى .. وفضلت واقف أبص لها وأبص للورقة بتاعتى ومش قادر أتكلم .

- اللّه يكون فى عونك .

- المقصود لف الورقة واداها للواد الصبى علشان يوديها الفرن وأنا أخدت الورقة بتاعتى عشان أوديها الفرن .

- وبعدين ؟ .

– ولا قبلين .. وصلنا الفرن سوا ... الواد سلم الورقه بتاعته للفرن .. وأنا سلمت ورقتى .. جه الفران يدخل الورقتين قلت له حاسب اوعى الورقتين يتلخبطوا لحسن دول زى بعض .. والا أقول لك .. هات لما أعلمهم أضمن ، وسحبت الورقتين ورحت قاطع من طرف واحده منهم حتة ورقه وقلت له : المقطوعة دى تبقى بتاعتى ، والثانيه بتاعة المعلم سلامه .. وبعدين سبت الفرن ورجعت له قرب الظهر كانت اللحمة استوت .. أخذت الورقة المقطوعة وروحت البيت أكلت أحسن ورقة لحمه أكلتها فى حياتى .

– ايه الكلام ده ؟ انت مش بتقول أخذت الورقه المقطوعة بتاعتك ! .

– أيوه أخذت الورقة المقطوعة لكن ما كانتش بتاعتى لأنى لما جيت أعلم الورقه قطعت ورقة المعلم سلامه .

ومنذ ذلك اليوم .. وحتى بعد انتقاله بصالونه الى شارع خيرت والأسطى محمود يعرف كيف يرد التحية .. فلا يكاد والدى يهتف به : « هفقت مفتاح » .

حتى يجيبه بأعلى صوته : « رحت الفرن » .

فاذا سأله أحد شرح له المسألة بحذافيرها .

وقال لأبى : « واحده بواحده والبادىء أظلم » .

★ ★ ★

الأسطى عبده والمستر تويدى

ألقى المستر تويدى نظرة عابرة على الطلاب .. وتوقفت عيناه برهة .. أمام الأوسطى عبده ، فقد كان الوجه جديدا على عينيه ، وكان منظر الأوسطى عبده برقبته الطويلة ووجهه الأعجف وعينيه المذعورتين ، منظرا غريبا .

لا أظن أن هناك حديثا يشغل الناس فى هذه الأيام كحديث الغلاء ، وعندما يتحدث الناس عن الغلاء فلن يخلو حديثم من مقارنة بين أسعار اليوم وأسعار الأمس ، وضرب الأمثلة المتعددة على ارتفاعها الفاحش الآن وانخفاضها العجيب فيما مضى .

ولم يكن المجلس الذى ضم ثلتنا بالأمس ليختلف عن غيره من مجالس الناس ، فسرعان ما ساقنا الحديث ذو الشجون الى ذكر الغلاء ، وبين عشية وضحاها انقلب الحديث الى مباراة ضرب الأمثلة لغلاء اليوم ورخص الأمس ، وانهالت الشكوى من النفوس مريرة ، والسخط لاذعا حارا .

قال أحدنا وهو يهز رأسه أسفا :

– لقد أصبحت الحياة لا تطاق .. لم يعد هناك شيء محتملا ، لا مأكل ولا ملبس .. من يصدق أنى منذ أسبوع أردت أن أفصل بدلة عند « جباى » الترزى .. فطلب منى خمسة عشر جنيها ، للتفصيل فقط ؟ !

فسأله آخر متعجبا :

– خمسة عشر جنيها !! الله يرحم أيام زمان ، عندما كانت البذلة لا تكلفنا أكثر من مائة وخمسين قرشا قماش ، وتفصيل !

ورد عليه الأول ، وهو مهندس معروف :

– اى والله .. مائة وخمسين قرشا ، كانت أقصى ما تتكلفه البذلة ، وكنا نستكثرها على الترزى وعلى جيوبنا فنأبى أن ندفعها الا بالتقسيط .

وضحك الأصدقاء ...

واندفع صاحبنا يقهقه وقد تذكر حادث مطاردة الترزى لصديقه أحمد أبو الفضل . وأخيرا تمالك نفسه وأخذ يقص الواقعة فقال :

– كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاما ، وكنا وقتذاك طلبة فى المهندسخانة ، وقد اعتدنا أن نجتمع فى بيت صاحبنا أحمد أبو الفضل بشارع النواوى فى البغالة حيث كان بالبيت حجرة منفصلة كنا نأوى اليها للسمر والاستذكار .

وذات ليلة وقد انتظم عقد ثلتنا داخل الحجرة ، وبدأنا نستعد لمواصلة الاستذكار .. اذ طرق الباب طارق . وصاح أبو الفضل آمرا بصوته الجهورى « ادخل » ظانا أن الطارق هو « عم محمد » البواب يحمل الينا القهوة أو الشاى .

وهنا أطل علينا وجه شاب به كثير من ذعر وكثير من خجل ، وجه نحيل أعجف بارز عظام الوجنتين ، غائر العينين ، وبدأ صاحب الوجه يدفع الباب ويتقدم فى الحجرة رويدا رويدا حتى مثل أمامنا .

وسألناه عما يريد فقال :

– أنا الأسطى عبده الترزى .

– تشرفنا يا أسطى عبده .

وانهالت عليه التحيات والسلامات من هذا النوع التهكمى .

فلما انتهينا من تحياتنا الساخرة .. بدأ الرجل فى شرح مطلبه وتفسير زيارته ، ففهمنا منه أنه قد فتح حانوتا للتفصيل على ناصية شارع سليم ، وأنه قد مضى عليه شهر والحالة راكدة ولم يدخل حانوته أحد ، وأنه لم يستطيع أن يحصل حتى على ايجار الدكان .. ولما كنا « الأفندية » الوحيدين الموجودين فى الحتة فقد لجأ الينا عسى أن نجبر بخاطره وأن ننفعه !

ولم يكد الأسطى عبده ينتهى من شرح حالته واستعطاف قلوبنا حتى قرن القول بالفعل وهجم علينا وفى يده المازورة يأخذ المقاسات المطلوبة لكل منا ويدونها فى نوتة صغيرة أخرجها من جيبه .. وفى غمضة عين كان الرجل قد أخذ مقاساتنا جميعا .

ونظر أبو الفضل الى الأسطى عبده نظرة رثاء وعطف وهو يضع المازورة فى جيبه وقد أشرق وجهه بالأمل وابتسم ابتسامة الفوز .

وأخذ أبو الفضل يشرح له قائلا :

– بقى اسمع أما أقولك يا أسطى عبده ، ما تتعبش نفسك معانا .. احنا البدله بتاخد لها على جتتنا خمس سنين خدمة ، زى العسكرية بالضبط ، وبعدين لما تطلع رديف نبقى نفكر نفصل بدلة جديدة ، ودلوقت أقدم بدلة على أى واحد منا ما تزيدش عن سنتين خدمة . يعنى بعد ثلاث سنين ربنا يديك العمر وتيجى تزورنا ان شاء الله .

– كل خمس سنين بدله ؟ ازاى يابيه الكلام ده ! دا انتم أسياد الناس .. أنا حا اعمل لكل واحد منكم بدلة تليق بالمقام .

– المقام محفوظ يا أسطى .. بس المسألة ان العين بصيرة واليد قصيرة . احنا قادرين نجيب علبة سجاير لما حانفصل بدله ؟

– دى الحسبه كلها مائة وخمسين قرشا يا بيه ، مش ضرورى تدفعهم مرة واحدة . ادفع اللى تقدر عليه ... ادفع خمسين قرش كل شهر ، أو خمسة وعشرين .

– وقبل أن نجيب الرجل ، ألقى علينا تحية سريعة ثم أولانا ظهره وانصرف هاربا .

ولم يمض أسبوع حتى كانت البذلات الخمس مستوية على أجسادنا .

وأقول الحق انها كانت جيدة التفصيل ، فاخرة القماش وأننا رحنا نختال بها فى المدرسة كأية ثلة ارستقراطية وأن الزملاء ظنوا أننا عثرنا على كنز .

وعندما حل أول الشهر بدأ الأسطى عبده التحصيل ، فأعطاه البعض وتهرب البعض الآخر . واستمر فى التحصيل شهرا بعد شهر ، فكان كل منا يعطيه شهرا ويزوغ شهرا ، الا واحدا منا كان يزوغ على طول الخط فلم يعطه من ثمن البذلة مليما واحدا .

أجل ، لقد كان أبو الفضل أكثرنا اختيالا بالبذلة ، وأكثرنا هربا من الرجل ، وفرارا من الدفع .

كان لأبى الفضل مطالب خاصة كثيرة تستنفد كل مصروفه ، فقد كان مدمنا على السجاير ، وكانت له غطسات فى « أمكنة ما » تستنفد منه ما تبقى من النقود بعد ثمن السجاير ، ولذا فلم يحدث قط أن توفر فى جيبه ما يستطيع أن يسدد منه قسط البذلة .

ولم يكن الأسطى عبده من النوع الذى ييأس أو يكل ، بل كان ملحاحا مثابرا يطارد صاحبنا فى كل حل وترحال .. لا تكاد الشمس تؤذن بالشروق حتى يتخذ مكانه على باب البيت ، فيظل مرابطا حتى الضحى ، وحتى يكتشف أن أبا الفضل قد هرب من احدى النوافذ ، فاذا ما كان اليوم التالى رابط تحت النافذة ، فيفر أبو الفضل من الباب ، وهكذا يستمر الأسطى عبده فى المطاردة حائرا بين النافذة والباب حتى يصمم أخيرا أن ينقل ميدان المطاردة الى المدرسة ، فيفاجىء أبا الفضل ذات صباح أمام باب المدرسة .

وما زلت أذكر ذلك اليوم جيدا وقد أشرفنا على المدرسة وسار أبو الفضل بيننا يعلننا مفاخرا أنه قد عرف كيف يدوخ الأسطى عبده حتى يئس منه ومن مطاردته له وأنه اليوم قد خرج من البيت فاذا بالحصار قد فك ، واذا بالعدو قد عاد الى قواعده فى شارع سليم !

ولم يكد أبو الفضل يتم حديثه حتى برز لنا الأسطى عبده من وراء شجرة ضخمة بجوار باب المدرسة كان يختفى وراءها .

وكان هجومه على أبى الفضل مفاجئا ، أصابه بغير قليل من الاضطراب والارتباك ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وهدأ روعه ، ومد يده للأسطى عبده مرحبا .. وقال فى بشاشة :

– أهلا .. أهلا الأسطى عبده ، فينك من زمان ماحدش بيشوفك .. أنا كنت لسه جايب سيرتك عشان عايز أديك قسط البدلة . أنا محضرولك فى البيت . ابقى فوت على فى أى وقت .

– بيت ايه يا بيت ! دا انت دوختنى تحت البيت وحيرتنى من الباب للشباك . دا انت مقابلتك نادرة من نوادر الزمن . أنا حافضل معاك لغاية مانرجع البيت سوا .

– مفيش لزوم تعطل نفسك يا أسطى عبده .. أنا ماالحبش أعطلك .

– أبدا ، أبدا ، مفيش عطلة أبدا ، حابتنا لغاية ما نرجع سوا .

– نرجع سوا ؟

– أيوه .. نرجع سوا .

ولم يكن أبو الفضل ليغلب على أمره ، فوافق الرجل على أن يبقى معه ، وسأله أن ينتظره خارج المدرسة آملا أن يخدعه ويستطيع التزويغ من باب آخر ، فقال له ببساطة :

– طيب ياأسطى عبده ، أمرك .. ما دام عايز تستنانى خليك مستنى . أقعد على البوابة لغاية ما اخرج .

– بوابة مين ؟ ايدى فى ايدك .. أنا مش حاخليك تتورب عن عينى . دانت لقاك مش بالساهل . أنا مافرطش فيك أبدا بعد ما التقيتك .

وكنا قد وصلنا الى باب المدرسة واجتزناه وتلف معنا الأسطى عبده .

ورأى أبو الفضل أن من الذير أن يتجنب الفضيحة وألا يحاول حجز الرجل على الباب بالقوة ، فتركه يدخل معنا ...

ووصلنا الى الفصل ، ودخلنا والأسطى عبده فى أعقابنا وجلسنا على التخت ، وبجوار أبى الفضل جلس الأسطى عبده ، مصرا على أن لا يتركه لحظة واحدة .

وكانت الحصة الأولى عندنا فى ذلك اليوم رياضة ، وكان مدرس الرياضة وقتذاك فى المهندسخانة هو المستر تويدى . وكان الرجل نظاميا جادا . وكانت حصته هى الوحيدة التى نجلس فيها منتظمين ويجلس كل طالب فى مكانه المخصص له وفى نمرته التى أعطاها له المستر تويدى .

وكانت الحصة تبدأ فى التاسعة ، ومن عادة المستر تويدى أن يكون فى الفصل فى بدء الحصة بالضبط فيغلق الباب وراءه بعد دخوله .. ثم يفتحه فى الساعة التاسعة وخمس دقائق ليدخل المتأخرون ويغلقه بعد ذلك فلا يفتحه الا فى نهاية الحصة ، وهكذا كان يعطى فرصة للتأخير خمس دقائق أما بعد ذلك فلا يقبله فى حصته .

وفى التاسعة بالضبط كان المستر تويدى يجتاز باب الفصل ، وكان كل منا قد جلس فى مكانه صامتا ساكنا لا ينبس ببنت شفة واضعا أمامه على الدرج الكتب المطلوب استعمالها فى الحصة .

وكان الوحيد الذى لا يضع أمامه كتبا هو الأسطى عبده الترزى ، وقد خشى أبو الفضل أن يكشف المستر تويدى أمره فأزاح كتبه من أمامه ووضعها أمام الأسطى عبده ..

وهكذا جلس الأسطى عبده على مقعده – كأحد الطلبه – جادا صامتا وأمامه الكتب المطلوبة فى درس التفاضل والتكامل .

وكان المستر تويدى انجليزيا مهيب المنظر ، أحمر الوجه أشعث الشعر ، فارع القامة ، يزيد من مهابته منوكل يضعه على احدى عينيه .

ولست أشك فى أن الأسطى عبده قد تملكه من منظر المستر تويدى جزع شديد ، فقد رأيته يحملق فيه وقد اصفر وجهه وأحس بمدى حرج مركزه .

وألقى المستر تويدى نظرة عابرة على الطلاب ، وتوقفت عيناه برهة أمام الأسطى عبده فقد كان الوجه جديدا على عينيه ، وكان منظر الأسطى عبده برقبته الطويلة ووجهه الأعجف وعينيه المذعورتين اللتين تترجرجان فى وجهه .. منظرا غريبا .

ولكن المستر تويدى لم يقل شيئا ، فقد ظن الأسطى عبده طالبا جديدا ولا سيما أن كتبه كانت موضوعة أمامه .

وكان من الممكن أن يمر الدرس بسهولة على الأسطى عبده لو أن المستر تويدى كان كبقية خلق الله من مدرسى المهندسخانة الذين يلقون المحاضرة على الطلاب ثم يغادرون الفصل بسلام ...

ولكنه لم يكن كذلك ، بل كان يأبى الا أن يبدأ درسه بالسؤال فى الدروس السابقة مارا على الطلبة ملقيا على كل واحد منهم سؤالا بالدور .

وبدأ المستر تويدى أسئلته فى التفاضل والتكامل ، ووصل الدور الى الأسطى عبده ..

وانطلق السؤال من المستر تويدى الأحمر المهاب ذو المنوكل ليستقر على الأسطى عبده الغلبان الكحيان الذى ينتفض ويرتجف .

ووقف الأسطى عبده الترزى ليجيب على سؤال عويص فى التفاضل والتكامل .

وكانت اجابة السؤال على ما أذكر (د . س) على (د . ص) ، وكانت بطون الطلبة تصطخب بالضحك . وبدأت المحاولات لأنقاذ الأسطى عبده فأخذت الأصوات تهمس من حوله بالاجابة قائلين له :

– شد حيلك يأسطى عبده .. ما تخافش . المسألة بسيطة خالص .. قول (د . س) على (د . ص) .

ولكن المسألة لم تكن بالنسبة للأسطى عبده بسيطة قط ، ولم يستطيع ذهنه أن يقتنع أو يفهم حكاية (د س) على (د ص) .. ولكنه أمام نظرات المستر تويدى النارية المصوبة اليه ألقى الاجابة حسب ما يمكنه أن يفهمها ، فقال وهو يرتجف :

– دى س ودى ص .

واقتنع المستر تويدى وأشار له بالجلوس ، وظلت الأسئلة تلف ثم تستقر مرة أخرى على الأسطى عبده حتى نشف دمه وبقى كريشة فى مهب الرياح ، وكانت تتعالى الأصوات هامسة حوله بالاجابة فيلتقطها كالببغاء ويطلقهامتوكلا على الله ثم يرتمى على المقعد غارقا فى عرقه ، حتى انتهت الحصة ، وانتهى معها الأسطى عبده .

اى والله .. لقد أغمى على الأسطى عبده بعد خروج المستر تويدى ، وعندما أفاق بكى بكاء حارا ، وأقسم يمينا ألا يدخل مدرسة المهندسخانة بعد ذلك ، وألا يطالب أبو الفضل بقسط البذلة .

وأثر فينا بكاء الرجل . فاكتتبنا كل منا بخمسة قروش وجمعنا له ثمن البذلة .

وكانت آخر مرة يحاول الأسطى عبده التفصيل لنا بالاكراه .

★ ★ ★

في بيت جمعه

قبل أن أبدأ السرد أقدم اعتذارى الى بطل القصة – عمى ، وحماى – « طه السباعى باشا » لأنى لم أستأذنه فى النشر راجيا اياه ألا يصدر بيانا يكذبنى فيه .. لسبب بسيط .. هو أن الناس تعلم تماما أنه ليس هناك أكذب فى هذا البلد .. من بيانات التكذيب .

لنبدأ القصة والعربة عائدة من الاسكندرية تنهب الطريق الصحراوى نهبا ، والسائق ينتهز فرصة سهو العم بين آونة وأخرى ، فيقفز برقم عداد السرعة الى ما فوق المائة .. حتى وصلت العربة مدخل القاهرة وأخذت تتلوى فى طريق الهرم ، بين حفر مصلحة التنظيم وخنادق مصلحة المجارى ، ومن آن لآخر تعترض العربة علامات الخطر ، وتصطدم الأعين بعربة مقلوبة فى احدى حفرات المجارى أو مصطدمة بأحد فوانيس النور فوق الرصيف .

ووصلنا أخيرا الى بيت فى منشية الطيران .. متعبى الأعصاب منهكى الأجساد .

وهبطنا من العربة ، وعبرنا الحديقة الى باب البيت وأخذت أتحسس ثقب الباب فى الظلمات حتى دسست فيه المفتاح ثم دفعت الباب .. وبدأنا نتلمس

طريقنا في حذر وخشية ، وسمعت العم يقول :

– أكياس الكهرباء موضوعة أمامك على الكرسى الموجود أسفل السلم .. لقد وضعتها بيدى قبل السفر .

وبعد برهة قصيرة كنت أضع الأكياس فى محلها الواحد بعد الآخر .

كان نزع الأكياس هو أول شيء يحرص عليه العم حتى لا يحدث مس فى أسلاك الكهرباء فينتج عنه – لا سمح الله – حريق يودى بالبيت .. وكان ثانى شيء هو اغلاق عداد المياه .

ولم أكد أعيد الأكياس الى محلها حتى أضاءت الكهرباء معظم حجرات البيت ، فقد كانت مفاتيحها غير مغلقة .

وقبل أن أطفيء اللمبات التى لا نحتاج الى ضوئها وجدت العم قد أخذ يتجول متمهلا فى أنحاء البيت ، وهو يلقى عليه نظرة اعجاب ، ثم مد سبابته فمسح بها احدى المناضد ثم مسح بها الأرض وأخذ يمر بها على الأثاث قطعة قطعة ، وأخيرا قال وهو يهز رأسه فى خليط من تعجب وأسف وغبطة :

– انظر .. لا أثر هناك للتراب .

ومسحت بأصبعى أنا الآخر على أقرب شيء الى وقلت موافقا :

– أجل ! لا أثر للتراب .

– شهران .. والبيت متروك بلا نظافة ومع ذلك فلا أثر فيه للتراب .. ثم يصرون بعد هذا على نظافته كل يوم .. مجانين ، مصابون بجنون النظافة .. انهم يقومون بالنظافة لمجرد المتعة ، انها عندهم هواية ، أو طريقة لاغاظتنا والتنكيل بنا .. والا فما معنى تنظيف الشيء النظيف ؟ . أتعرف أنهم فى عز الشتاء يدخلون الخادم يوميا بجردل المياه لمسح الشرفات دون أن يكون بها أثر للتراب وحاولت أن أمنعهم عن هذا الجنون عبثا ، حتى انتهى بى الأمر الى أنه ليس هناك وسيلة الا بازالة الشرفات كلها من البيت ؟

ووقفت أنصت الى حملته عليهم – أو على الأصح عليهن – وأنا أؤمن مخلصا على كل فقرة فيها .

وكانت هم .. أو هن .. هذه عائدة بالطبع على أهل البيت من النساء . أعنى زوجته وزوجتى ، أو بعبارة أخرى حماتى وابنته .

وكنا متفقين تماما فى مسألة النظافة هذه ، وكنا متفقين تماما أن أهل البيت من الحريم مصابون – بلا جدال – بداء النظافة .. يؤيدنا فى ذلك زوج الابنة الأخرى .. عديلى وابن عمتى الأستاذ عبد العزيز مهران ، الذى لم تعد له فى حياته الا أمنية واحدة .. وهى أن يهييء الله له فرصة الاستمتاع بحرية الفوضى والقذارة ، والذى فكر فعلا فى أن يستأجر شقتين ، شقة لتنظيفها زوجته ، وشقة يعيش فيها مستريحا كبقية خلق الله الذين لم يصابوا بجنون النظافة .

ولقد كنا – أنا والعم – أسبق منه الى تحقيق هذه الأمنية .. وهى أمنية الاستمتاع بحياة الفوضى والأتربة والقذارة .

كانت عودتنا من الاسكندرية وحدنا بلا حريم لقضاء بعض المهام فى القاهرة ، وكانت هذه المهام تستغرق ما يقرب من أسبوع .

وكان فى هذا الأسبوع كل الكفاية ، لنتحرر من قيود النظام والترتيب والنظافة .

فقد انطلقنا نعيث فى الدار فسادا .. وأقول الحق ، أن العم العزيز أثبت جدارة فى هذا المضمار يستحق عليها وساما وأثبت أنه لا يشق له فى ميدان الفوضى والهرجلة والغبار – غبار .

لقد فاز على فى سباق الفوضى ، فوزا مبينا .. جعلنى أيأس من الاستمرار معه فى ميدان السباق .. بل جعلنى أكره – فى مدى يومين – الفوضى التى كنت أتوق اليها منذ أعوام ، ولم أنسحب من السباق فحسب ، بل انقلبت الى انسان مرتب أشبه بحريم الدار ، أجرى وراءه لألم شعث ما فرق ، وأنظم ما لخبط وما بعزق .

لقد وصلنا فى المساء حوالى الساعة الثامنة .. ولم يحاول أحد منا الخروج .. فكلانا مبكر فى نومه .. وزادنا التعب رغبة فى النوم وزيادة فى التبكير ، فلم تدق التاسعة حتى كان كل منا آوى الى فراشه .

ومع ذلك .. وفى مدى تلك الساعة التى قضيناها فى الدار منذ الوصول حتى النوم أعان الله العم على أن ينزل بالدار المرتبة كمية لا بأس بها من الفوضى والهرجلة .. كدفعة أولى .

وفى الأيام التالية بدأ التفنن واخراج الروائع والآيات .

لم نكن نلتقى الا فى الصباح وفى المساء ، وقت الصحو أو النوم ، وكان كلانا يضرب طول النهار فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلا نكاد نستقر فى الدار – ونحن على حال من اليقظة – الا لماما .. ومع ذلك – ولا أدرى متى ولا كيف – تمكن العم من اخراج روائعه واشاعة الفوضى المثالية والتخريب النموذجى فى أنحاء الدار .

وقبل أن أصف روائع الفوضى ، والتخريب والتوسيخ أجد لزاما على واحقاقا للحق ، ووضعا للأمور فى نصابها أن أذكر ما قمنا به من أعمال التعمير والاعاشة .

كان أول ما فعلنا .. غير وضع أكباس الكهرباء وفتح محبس المياه ، هو تشغيل الثلاجة وملء زجاجات المياه التى بها وشراء كمية من العنب والمانجة وصندوق بيبسى كولا ، ووضعها فى الثلاجة على سبيل التموين ، وخزن الزاد والزواد .

وكان هذا الزاد والتموين هو العامل الأكبر فى اشاعة الفوضى فى البيت ، والمادة الأساسية التى أعانت العم على رسم روائعه .

لقد قلت أنه عند ما وصلنا ، لم يكن هناك أثر يذكر للأتربة ، ولكن الذى حدث – وبعون من الله وبمساعدة العم – هو أننا لم نكد نستقر فى الدار يوما أو بعض يوم حتى وجدنا الأتربة تعلو وتتراكم .. واذا بالحجرات قد أضحت أشبه بالخرائب

وهكذا وجدا من الأتربة الأساس الملائم .. أو « الباك جراوند » المناسب .

لقد كست الأتربة كل ما فى البيت .. أعطته لونا رماديا مغبرا لا يكاد يستبين منه لونه الأصلى .. اللهم الا من خلال آثار الأقدام المرسومة على الأرض ، والتى انتقلت أتربتها فاستقرت فى أقدامنا ، أو من خلال الرسوم الأخرى التى انطبعت تحت كل المنقولات المتحركة على المناضد أو الأرض ، فقد كان كل شيء يطبع رسمه تحته حتى كأننا نعيش فى الصحراء .

وفوق هذه الأتربة بدأ المنظر الرائع الآتى :

احدى عشرة زجاجة بيبسى كولا فارغة مستقرة فى كل مكان يخطر على البال .. واحدة فوق الفراش ، واثنتان تحته ، وواحدة فوق المدفأة ، واثنتان فى داخلها ، وواحدة فوق المنضدة ، واثنتان متدحرجتان على بطنهما ، تدفعهما أقدامنا كلما جلسنا الى المنضدة .. وهكذا كانت الزجاجات الفارغة تطالع البصر فى كل مكان : على الأرفف والأرائك والمقاعد .. أما غطيانها فكانت عشرة منها ترصع أنحاء البيت كأنها الأوسمة والنياشين ، أما الواحد الباقى فهو ما زال محشورا فى فتاحة الزجاجات .. لم يفكر أحد فى نزعه من مكانه .

ويتبادل الفوضى مع الاحدى عشرة زجاجة – أو الأحد عشر كوكبا – سبعة أطباق مليئة بالماء العكر الأسود وراسب الطين ، ومخلفات عناقيد العنب من بذور وقشور وبقايا عنب عفن .. هذه الأطباق كانت من قبل مرصوصة نظيفة بيضاء فسحبت الواحد بعد الآخر لأجل أكل العنب فغسل فيها العنب ، وبقيت هى دون أن تغسل .. سوداء ، مطحوسة ، لزجة .

تلك هى بقايا العنب .. تعاونها فى اعداد تابلوه الفوضى والقذارة .. مخلفات المانجه .. ببذورها المبدورة فى أنحاء البيت كأنما قد انقلبت أرضه حقلا لزراعة المانجه ، وبالقشور الملقاة هنا وهناك وبماء المانجة السائل فى لزوجة على المنضدة والأرض المختلط بالأتربة .. وبين كل هذه المخلفات

العجيبة تجد فردتى الحذاء والشراب .. مستقرة فى فراقها الخالد .. ونفورها الأبدى .

وتتم المنظر الرائع ، أوراق الصحف المتحركة المرفرفة المتسابقة على الأرض والظروف الممزقة والأوراق القديمة التى كتبت عليها مقالات أو بقايا مقالات .

ولكى يصبح المنظر الرائع ، شيئا فريدا .. كان لابد من أن تكسر ملة السرير – دون أن يفكر أحد منا بالطبع فى اصلاحها – فيميل على جانبه ، ويصبح السرير غير صالح الا للدحرجة والدألجة .. يعلم الله كيف ينام العم العزيز .

وهكذا تمت الروعة ، ولكنها كانت روعة صامتة .. تحتاج الى بعض الموسيقى لتكون تامة المعانى كاملة الاخراج .

وقدم الموسيقى فى هذا المنظر الفوضوى صنبوزان للمياه .. صنبور تلفت جلدته فأخذت المياه تنكسب منه النقطة تلو النقطة ، على الواحدة .. والصنبور الآخر ، لست أدرى ماذا أصابه حتى أخذ يزن بصفة مستمرة كأنه الناى أو صفارة الانذار العاطلة .

هذا هو التابلوه المترب الرائع الذى أجبرنى على شراء زوجين من الشباشب – وكان هذا من ضمن أعمال التعمير – بعد أن تعذر علينا الخوض فى الأتربة وتعذر علينا أن نجد الشباشب القديمة ، وتعذر علينا كذلك أن نبقى بالأحذية حتى ساعة النوم وأن نلبسها بمجرد الهبوط من الفراش .

وأخيرا انتهت أعمالنا التى حضرنا من أجلها الى القاهرة وعزمنا على السفر وجلسنا فى الليلة الأخيرة نمتع البصر بمنظر الفوضى والقذارة الذى بلغ أقصى روعته ، ووددنا أن يعرض المنظر على أهل البيت من الحريم حتى نتشفى منهن وحتى نريهن كيف انتقمنا لأنفسنا .

وأنبأنى العم أننا سنسافر فى ساعة مبكرة ، حتى نقطع الطريق فى طراوة الصباح قبل أن ترتفع الشمس ويبلغ الحر أشده ، وحدد للسفر الساعة

الرابعة والنصف صباحا وطلب منى أن أجهز نفسى من الليل وألا أنسى شيئا حتى لا أسبب له عطلا فى الصباح ، وأعطانى محاضرة قيمة فى ترتيبات السفر .. ولم ينس أن يذكرنى بمحبس المياه .. وأكباس الكهرباء .

وجهزت حقيبتى وأعددت كل ما أنوى أخذه فى السفر مما كلفونى باحضاره من البيت ، وفى الساعة الرابعة صباحا استيقظت من النوم فوجدت العم قد استيقظ .. وسرعان ما حلقت ذقنى وارتديت ملابسى .. وأصبحت على أهبة الاستعداد ، وأخذت أراجع نفسى حتى آخذ كل ما أود أخذه ، فقد كنت لا أريد أن أسبب – بنسيانى حاجة ما – أى تعطيل أو تأخير .

ونزل هو الى الحديقة فهز شجرة الجوافة وجمع ما سقط من الثمار ليأخذها معنا ، ثم حملنا كل حاجياتنا فى العربة .. ونزعت أكباس الكهرباء .. وأخذت أتحسس طريقى الى الخارج ، فقد كان الظلام مازال مسدلا ستوره ، وأغلقت الباب بالمفتاح ووضعته فى جيبى .. وهممت بركوب العربة عندما صاح عمى :

– انتظر .. لقد نسيت العصا .

وكان على أن أعود لأحضر العصا ، وأن أفتح الباب وأن أضع الأكباس وأصعد الى أعلى فأحضرها له .

ودارت الفكرة فى رأسه ويبدو لى أنه أحس ببعض الخجل من أنه هو الذى سيكون السبب فى التعطيل ، وأنه هو الذى نسى .. رغم أنه حذرنى من النسيان وعلمنى الحذر فى ترتيبات السفر .

وسرعان ما غير رأيه وصاح بى فى غير اهتمام :

– هيا بنا .. نحن لا نريد أن نتعطل ، لا داعى للعصا .. وأظن أنه يوجد غيرها فى الاسكندرية .

واتخذنا مجلسنا فى العربة ، وأخذت فى التحرك بعد أن تنازل عن العصا حتى لا يكون سببا فى تأخيرنا بضع دقائق .

ونظر فى الساعة وقال :

– الساعة الخامسة الا ثلث .. موعد مبكر .. أظننا نستطيع أن نصل – بالراحة – الى البيت فى الساعة التاسعة ؟

وصدقت على قوله بقولى :

– أظن ذلك اذا لم يحدث عطل .

– ان شاء اللّه لا يحدث عطل .

وكنا قد بلغنا – عندما قال قوله هذا – بيت مكرم باشا وبينه وبين بيتنا ما يقرب من محطتى ترام .. ولكنه لم يكد يتم قوله أو على الأصح تمنيه ودعوته حتى صاح كأنما قد تذكر أمرا هاما :

– لقد نسيت دفتر الشيكات .

وتمهل السائق بعض الشيء .. وتوقعت أن يأمره العم بالعودة ، ولكن الفكرة دارت فى رأسه مرة أخرى .. وبدا عليه التردد وأخذ يوازن بين دفتر الشيكات .. وبين محاضرته عن ترتيبات السفر ، وعدم الرغبة فى التعطيل .. وأخيرا صاح بالسائق :

– سوق على طول .. لست فى حاجة الى الدفتر .. ان معى من النقود ما يكفى ، ولا أظن سأحتاج اليه .

وهكذا مرت سليمة ، وتنفس كلانا الصعداء ، واستمرت العربة فى طريقها الى شارع الهرم .. وحمدنا اللّه على أن ما نسى كانت أشياء بسيطة .. ولم يكن هو – على حد قوله – فى حاجة اليها .

وقطعنا شارع الملكة نازلى .. ووصلنا الى ميدان الاسماعيلية ، وعبرنا كوبرى قصر النيل ، وقد اضطجعنا فى مقاعدنا مستريحين هانئين ، نحسب فى أذهاننا الساعة التى سنصل فيها ، وكيف ستكون مبكرة الى حد أنها ستفاجىء الأهل .

وفجأة رأيت العم يميل الى الأمام .. ويصيح بلا تردد ولا تفكير :

– موسى .. دور ، عد بنا الى البيت .

وتلفت اليه فى دهش شديد ، متسائلا عما حدث .. فأطرق برأسه ، وقال فى يأس :

– لقد نسيت حقيبة ملابسى .

★ ★ ★

فى أدبجوت

وأصبح صباح العيد .. وخرجت مع الأطفال أنفخ فى الزمارة وأنا أرتدى الردنجوت وقد شمرت - جدتى - أكمامه ، وثنت ساقى البنطلـون وأخذت أنتقل الهوينا بقدمى (يلق) فى الحذاء وكأنى ألبس مركبا !!

- أهلا .. وسهلا سعادة الباشا ...

- أهلا بك .. ازيك يا أستاذ ...

- الحمد للّه .. الى الاسكندرية ان شاء اللّه ؟

- ان شاء اللّه . هذه أول مرة أسافر فيها هذا العام بالسكة الحديد .. فالطائرة توفر كثيرا من الوقت .

- ولكن الأرض أضمن « أنل قدمى ظهر الأرض أنى » .

- ياسيدى .. العمر واحد والرب واحد .

وهكذا استمر الحديث يجرى بيننا تافها متقطعا .. حديث لقاء عابر فى قطار .. وكنا نجلس فى عربة تكييف الهواء فى القطار السريع المسافر الى الاسكندرية يحيط بنا جو من الفخامة والأبهة يصعر الخد وينفخ الأوداج ،

ويملأ بالكبرياء أشد الناس تواضعا ، وينفخ بالأرستقراطية أحطهم قدرا وأوضعهم شأنا .

واضطجعت فى المقعد اللين الوثير ووضعت ساقا على ساق .. فقد كانت تلك هى أقل جلسة يمكن جلوسها فى هذا الجو الفاخر ، ولا سيما أن الباشا محدثى كان قد اتخذ هذا الوضع وعلق ساقا على ساق رغم تعذر هذه العملية عليه لقصر ساقيه وانتفاخ بطنه .

ويبدو لى أن من الخير - قبل أن أمعن فى السرد - أن أزيل من ذهنى القارىء ما قد يكون علق بذهنه من وهم خاطىء عن الباشا الذى نحن بصدده ، فيظنه مما قلت عن باشويته وقصر ساقيه وانتفاخ بطنه أنه أحد تلك الأشكال الثرية الخنزيرية الغبية المتعجرفة الثقيلة الدم الخ .

لا .. لا .. لم يكن صاحبنا قط بالثقيل ولا الدعى ولا المتعجرف .. على النقيض من ذلك كان نموذجا للذكاء واللطف وخفة الدم وطلاوة الحديث .

كان عبد العزيز باشا عمران أحد رجال المال والأعمال المعروفين فى البلد .. لا يزيد عمره على الخامسة والأربعين وهو يملك عدة شركات مختلفة .. بينها بضع شركات للأوتوبيس والدوبارة وغطيان الكازوزة ، وهو كذلك أحد مهندسينا الناجحين النابهين الذين ركلوا وظيفتهم الحكومية وملكوا ناصية العمل الحر . فصالوا فيه وجالوا ، وتلألأ نجمهم وعلا صيتهم ، وأصبح يشار الى قدرتهم ونبوغهم بالبنان .

وكنت أقدره مما أسمع عن فرط ذكائه وشدة عبقريته ، فلما لقيته زاد تقديرى له .. لما رأيته من خفة دمه ودماثة خلقه ...

وأخذت أرقبه وقد جلس فى مقعده ووضع بين شفتيه سيجارا طويلا .. وتدلت من صديريته سلسلة ذهبية .. وبدا وجهه منتفخا ، ووضع على عينيه منظارا رقيقا ذا اطار ذهبى أنيق ، وداخلنى من منظره اعجاب كثير .. وقلت لنفسى : ان مثل هذا الرجل جدير بالاحترام .. فقد كسب مركزه وثراءه بجهده وذكائه .. وأن مخلوقا موهوبا مثله كان لابد أن يلقى ما لاقى من نجاح .

وانحدر بصرى من وجهه الى جسده .. الى ساقيه .. وقد وضع احداهما فوق الأخرى .. فشمر بنطلونه وانحسر عن جوربه الحريرى النايلون ، وجزء من ساقه الجرداء السمراء ، وبدت لى قدمه صغيرة كقدم الطفل وقد دسها فى حذاء (باللى) فاخر أنيق ، وأخذ يهزها هزات خفيفة ..

وظل الحديث يجرى بيننا متقطعا .. سؤال من هنا .. وجواب من هناك . حتى خطر لى أن أسأله عن قصة نجاحه . وعن مظاهر النبوغ فى أطوار حياته .. طفولته .. وصباه وشبابه .. ان حياة مثل هذا الرجل يمكن أن تكون درسا نافعا لجيل بأكمله ، وهممت بالسؤال عندما لمحت قدمه تكف عن الاهتزاز ، ورأيت أصابعها تتحرك داخل الحذاء كأنها فى ضيق .. ثم أبصر بيده تمتد الى كعب الحذاء فتخلعه برفق ثم تسحبه من القدم قليلا لكى تعطى للأصابع فرصة التحرر ثم تعود يده الى مكانها من جيب صديريته تاركة الحذاء يتأرجح معلقا على أصابع القدم .

ووجدت الرجل يبتسم عندما رآنى أرقب عملية نزع الحذاء ثم تمتم معتذرا :

- لا مؤاخذة .. أحب أن أريح قدمى قليلا .. ان الحذاء ضيق بعض الشىء .

- العفو يا سعادة الباشا .. خذ حريتك .

- انى دائما ألبس حذاء ضيقا .. فليس أبغض الى من الحذاء المتسع .. انها عادة قديمة .. قديمة جدا .

ثم انطلقت منه قهقهة عالية وأخذ يهز رأسه ويقول :

- زمن ! ..

وانتظرت منه أن يفسر قوله ويشرح عادته القديمة فى كرهه للحذاء المتسع ، وأن يعقب على عجبه من الزمن ببعض الاسهاب .. ولكنى وجدته يصمت ، وسمعت بدلا من صوته .. صوت شخير قد علا بجواره .

ونظرت الى صاحب الشخير فاذا به عجوز قد راح فى سنة من النوم ، ورأيت الباشا ينظر اليه ثم يستغرق فى الضحك مرة أخرى ويعود الى لهجته الساخرة قائلا :

- دنيا .

ويبدو أن الرجل قد لمح على وجهى بعض علامات الضيق الناتجة من اغراقه فى الأقوال المبهمة والسخرية الغامضة ومن تعجبه من الدنيا ومن الزمن .. فقد بدأ يفصح قائلا :

- الحذاء المتسع ، وما أدراك ما الحذاء المتسع .. لقد كان مصدر شقائى فى باكورة الحياة .. كان أكبر مصيبة رزئت بها ..

وعاد الرجل الى الضحك ، فلم أملك سوى أن أستغرق معه فى الضحك .. حتى بدأ يتمالك نفسه قائلا :

- كان ذلك منذ ما يقرب من أربعين عاما ، وكنا نقطن وقتذاك بالدرب الأحمر فى حارة الروم .. وقد ضمنا جميعا بيت كبير حوى جميع أفراد العائلة ، وكان رأس العائلة جدنا الكبير - والد أمى - تاجرا بالغورية .. يعيش من أولاده خالى الأكبر وخالى الأصغر وأمى .. وكان أبى قد توفاه الله ... وحل بنا أحد الأعياد فطلبت جدتى من الخال الأصغر - خالى طه - وهو أعقل أفراد العائلة وأكثرها اتزانا أن يتولى شراء ملابس العيد لى .

وكان لخالى طه - من يومه - نظريات رفيعة فى فن الاقتصاد ويبدو لى أنه قد أبى الا أن يطبق نظرياته الرفيعة - التى كانت مداركنا أعجز من أن تفهمها وقتذاك - فى عملية شراء ملابسى المتواضعة فقد خرج الى السوق يجول جولة بين الغورية والموسكى ليبتاع لى بذلة العيد وحذاءه ولم يحاول أن يصطحبنى حتى لا أعرقل حركته .. وخاصة أنه لم يجد هناك مبررا لعملية القياس ، فقد كان يعرف مقاسى بالنظر . واستمر ينتقل من دكان الى دكان .. دون أن يجد البضاعة الملائمة أو السعر الملائم .. حتى وقف فجأة أمامه بذلة معلقة فى أحد الدكاكين .

عجيب .. ! هذا سعر لا يصدق .. أنها صفقة هائلة ! كيف يمكن هذا .. لا شك أن صاحب الدكان قد أخطأ السعر .. ليدخل اذن ، ويتحقق بنفسه .

ودخل الحانوت وسأل صاحبه .. فأجابه أن السعر مضبوط لا لبس فيه ولا خطأ .

مدهش .. ! خمسة وسبعون قرشا لبذلة ردنجوت ! .

لقد قال التاجر أن صاحبها قد وجدها ضيقة عليه ... وأنه لهذا أبى استلامها ، وأنه يعرضها للبيع .

خمسة وسبعون قرشا . ! يا بلاش !.

انها صفقة هائلة .. لابد من شرائها .

انها قد تكون بالنسبة لى واسعة فضفاضة .. ولكن لا شك أنه يمكن استعمالها .. ولا يغرب عن البال أننى صبى وفى دور النمو ، وأن حجمى يتزايد .. وقد أنمو فى العام القادم فجأة .. فتصبح البدلة محبوكة على .

ولكنها .. ردنجوت ، وأنا طفل !

وأى ضير فى ذلك ؟ هل هناك قانون يحرم على الأطفال لبس الردنجوت ؟ .

لا .. لا .. يجب ألا يتردد فى شرائها .

وهكذا أقدم على شرائها .. لمجرد أنها فى حد ذاتها صفقة رابحة .. بصرف النظر عن صاحب البدلة ... وصلاحيتها له .

أجل .. اننى يجب أن أنمو حتى أصبح ملائما للبدلة .. لأنها بدلة متينة ورخيصة ، وحرام أن تضيع من يدنا ...

وهكذا تم شراء البدلة .. أما الحذاء فقد كانت نظريته فيه لا تقبل المجادلة .

لقد كان يعتقد أن قدمي دائمة النمو ، وأن حذائي الجديد يجب أن يكون أكبر بعدة نمر حتى لا يضيق على ويصبح غير صالح للاستعمال قبل أن يبلى . !

وبمثل هذه النظرية ابتاع لى الحذاء .

وعاد الى البيت يحمل الردنجوت والحذاء الكبير .

لقيته جدتي مذهولة ، واستفسرت مستنكرة عما أحضر .. فأنبأها بلهجة الواثق ان هذا خير ما يصلح لى .

وكان من العبث مناقشته ، ولم أكن أنا نفسى - ككل طفل - أهتم بنوع الملابس أو مقاسها ، بقدر ما أهتم بها كأشياء جديدة . وكانت فرحتى بها ولهفتى على ارتدائها تجعلنى أرفض أية محاولة لارجاعها أو مناقشة فى عدم صلاحيتها .

وأصبح صباح العيد .. وخرجت مع الأطفال أنفخ فى الزمارة وأنا أرتدى الردنجوت وقد شمرت - جدتى - أكمامه وثنت ساقى البنطلون وأخذت أنتقل الهوينا بقدمى « يلق » فى الحذاء ، وكأنى ألبس مركبا ! .

والمدهش أن الله قد أبى أن يحقق نظرية خالى فى مسألة نموى .. فقد بقيت كما ترى ، ومرت السنة تلو السنة وأناأهرول فى البذلة والحذاء ، وأقسم ثلاثا أننى لو عثرت اليوم على الحذاء لعامت فيه قدماى .. لقد كان خالى بعيد النظر جدا .. أبعد مما استطعت أنا الوصول اليه .

وكانت البذلة والحذاء أمرا محتملا فى العيد .. لاسيما أن جدتهما وفرحتى بهما لى تذهب بعد ، وأن اختيالى لم يكن يتعدى الحارة وأهل الحارة . ولكن لم تكد تنتهى الاجازة وأذهب الى المدرسة .. حتى بدأت أثير بهما ضجة بين التلاميذ .

ولم تزعجني الضجة .. فقد كنت - من يومى - مخلوقا مرحا « هليهلى » ، ولم أحاول أن أجعل من طقم الردنجوت مبعثا لخجلى أو

لضيقى .. بل كنت أشترك مع التلاميذ فى نكاتهم على ، أردها تارة وأحتملها تارة أخرى ، أنا فى الحالتين ضاحك مرح .

وهكذا استطعت أن أحتمل الردنجوت .. أما الحذاء فقد كان مصابى الأكبر ، وخاصة فى حصة اللغة العربية .

كان درس اللغة العربية هو الدرس الخامس .. أى بعد فسحة الغداء وكان مدرس اللغة العربية هو الشيخ على الابريمى .. كناية عن أنه جاف مقدد مقلحف كالبلح الابريمى ، ولم تكن العلاقة بينى وبين الشيخ على بطيبة فى يوم من الأيام .. فقد كان دائما يتهمنى بالبلادة والغباوة والكسل ، ويقسم أنه لم ير فى حياته تلميذا أكثر منى غباء . وكان ينصحنى دائما بأن أقلع عن الدراسة وأبحث لى عن صنعة أتعلمها ، لأنه لا أمل لى قط فى النجاح .

ولم يكن الشيخ بمتجن على فقد كنت فعلا مخلوقا غبيا ، وخاصة فى العربية ، وما استطعت قط أن أعى شيئا عن النحو والصرف والاعراب لسبب واحد .. هو أنى لم أستطع البقاء مستيقظا فى حصة واحدة من حصص الشيخ على .. فقد كانت حصصه تعقب الغداء مباشرة وكان الجهد الذى أبذله فى الفسحة والشراهة التى أتناول بها الطعام ... تجعل استيقاظى فى الحصة الخامسة أمرا مستحيلا .

وكان نومى - قبل أن أرتدى الحذاء اللعين - مسألة مضمونة مأمونة .. أما بعد ارتدائه .. فقد أضحى عملية مفضوحة مكشوفة .

كان جرس الفسحة يدق فندخل الفصول .. ويجلس كل منا فى مقعده ، وكنت أنتقى لى مقعدا خاصا فى الحصة الخامسة .. هو آخر مقعد فى ركن الفصل ، وكنت أجلس فيه آمنا مطمئنا .. يحجبنى عن عين الشيخ على جسد التلميذ الضخم الجالس أمامى .. الذى كان يستر جسدى الضئيل تماما .

ويبدأ الشيخ على الشرح .. بصوته الرفيع ذى النغمة الواحدة التى لا تتغير .. والتى كان لها تأثير مهدىء على أعصابى ، والتى كانت تعادل وقتذاك حفنة من الأقراص المنومة ، وأحاول عبثا أن أتتبع حديث الرجل عن البدل

والحال .. ولكن لا تمر برهة حتى أكون قد سبحت مع الملائكة فى سبات عميق .

وكانت عادتى - وما زالت - عندما أنام وأنا جالس أن أتخذ وضعا مريحا .. بوضعى ساقا على ساق !

ولم يكن هذا بالأمر الخطير حتى رزأنى الخال العزيز .. بالحذاء اياه .

لقد وضعت - كعادتى - ساقا على ساق ، ورحت فى سباتى .. أنعم بنومه هادئة عندما سمعت فى الفصل ضجة مفاجأة تقطع صوت الشيخ على الرفيع الهادىء .

وفزع الشيخ على وصاح ثائرا :

- ما هذا ؟ .

وأجابه الفصل كله فى نفس واحد :

- حذاء عبد العزيز عمران .

ومنذ ذلك اليوم ولم يغمض لى جفن فى درس عربى . لقد كنت لا أكاد أحس بالخمول وأستسلم للنعاس واضعا ساقا على ساق .. حتى ينزلق الحذاء من قدمى ويهوى الى الأرض فى ضجة كبرى ، ولم يكن الشيخ على فى حاجة بعد ذلك لأن يسأل عن سر الضجة .. بل كان يصيح حانقا :

- اخرج بره يا واد يا عمران يا بن الكلب .

ثم يهجم على ويعدو ورائى وأنا ممسك بالحذاء فى يدى ، وأنطلق هاربا من الفصل ، والتلاميذ يضجون بالضحك والأستاذ يضج بالشتائم ويصيح :

- أقسم انك لن تفلح يا غبى يا بليد .. هذا شاربى ان كنت تفلح .. سأذكرك بقولى هذا فى المستقبل .. عندما تصبح كمساريا ، أو عربجيا . ! هذه أشكال لا تنفع فى المدارس .

★ ★ ★

ولم يكد عمران باشا ينتهى من حديثه حتى لمحت حذاءه (الباللى) الوجيه ينزلق من قدمه ويهوى الى الأرض ، ورغم أن الضجة التى أحدثها الحذاء عندما اصطدم بالأرض كانت ضجة خافتة الا أنها كانت كافية لأيقاظ الشيخ المغرق فى نومه فى المقعد المجاور .

لقد كف الرجل عن شخيره وفتح عينيه فى فزع .. وبحركة لا ارادية وجدته ينحنى فيتناول الحذاء ، ويسلمه الى عمران باشا قائلا فى أدب :

- انفضل يا سعادة الباشا .

وتناول الباشا الحذاء ، وهو يقول فى تواضع :

- العفو يا سيدى العفو .

وقبل أن يعود العجوز الى سباته رأيت الباشا يقوم بواجب التعريف بيننا ، فيشير بيده الى ثم الى الشيخ قائلا :

- الأستاذ على الأبريمى ..

وتملكتنى دهشة شديدة .. أهذا اذا هو الشيخ الابريمى .. مدرس العربية السابق ؟

ولم يستطع الشيخ أن يغالب النعاس .. فاستغرق فى نومه ثانية وعاد الباشا يقول متمما حديثه متجاوزا عن علامات الدهشة التى بدت على وجهى :

- لقد مرت الأيام وانتقلت من مدرسة الى مدرسة ، والشيخ على ما زال مدرسا للغة العربية ، وأصبحت مهندسا وهو ما زال مدرسا للغة العربية ، وتوظفت فى الحكومة واستقلت من الحكومة ، وهو ما زال مدرسا للغة العربية ، وأنشأت الشركة تلو الشركة ، وهو ما زال مدرسا للغة العربية ، والتقينا ذات يوم فأقبل على مرحبا مهللا مكبرا ، وصاح بى :

- ما شاء اللّه . ما شاء اللّه .. من يومك وأنت فالح .. هكذا الهمة وهكذا الذكاء والنبوغ ، كنت أتنبأ لك بهذا الفلاح . أتذكر يوم قلت لك انى سأذكرك بما ستصبح عليه مستقبلا ؟ .

- أنكر يا شيخ على .. أنكر جيدا .

وأنبأنى أنه سيحال الى المعاش بعد بضعة أيام بلا معاش ، بعد خدمة وزارة المعارف أربعين عاما .. فقلت له :

- ربنا تاب عليك من التدريس يا شيخ على ! .. تحب أشوف لك وظيفة فى الشركة ؟ .

- ياريت .. !

وهكذا ختم الشيخ على الابريمى مطافه المدرسى .. بوظيفة فى شركة الدوبارة .

وصمت الباشا برهة .. فسألته :

- وماذا يعمل الشيخ فى الشركة ؟ .

- لا شىء ، وماذا يستطيع أن يفعل أكثر مما رأيت ؟ يسهينى ويرفع الحذاء الساقط .. ! رحم اللّه العلم والتدريس فى أرض الكنانة !

★ ★ ★

الوسواس الخناس

وسحبت يدى من يدها وأحطتها بذراعى فأمالت رأسها على كتفى ، ومددت شفتى فحوت شفتيهـا ، وقبلتها فى لهفة وشوق ، وحمدت الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور النـــــــــــاس .

كنا أربعة أو خمسة من الصحاب التففنا حول مائدة فى منتدى وأخذنا نقطع الوقت بالحديث والسمر .

وما أنكر أن الصحبة اجتمعت الا كانت الأنصاف الحلوة مدار الحديث وموضع السمر .. وعندما أقول الأنصاف الحلوة أعنى بالطبع الأنصاف الحلوة بكافة أنواعها بما فيها الأنصاف الحلوة الشرعية .. والأنصاف الحلوة غير الشرعية .. والأنصاف الحلوة الطائرة العابرة الفاتنة الفاتكة .

أما الأنصاف الحلوة الشرعية - أعنى الزوجات اذ كنا كلنا أزواج - فقد كانت فى نظرنا حلوة باعتبار ما كان وما كنا نذكرها فى أحاديثنا بغير المرارة والشكوى والهجاء والتشنيع .

أما الأنصاف الحلوة .. غير الشرعية ، فقد كانت فى أحاديثنا ذكريات

حلوة غابرة ومغامرات نتبادل سردها على سبيل السمر والتسلية واستعادة أيام الصبا وعهود الشقاوة والتحرر والانطلاق .

أما الأنصاف الطائرة العابرة فما كنا نملك ازاءها الا الحملقة والحسرة .

أخذنا فى الحديث عن الأنصاف غير الشرعية وهو أحب الحديث الى أنفسنا وجعلنا نتبادل قص المغامرات والنوادر .. وبين آونة وأخرى يطبق علينا الصمت فجأة .. وتتحرك أعيننا فى اتجاه واحد وبزاوية نظرة واحدة محملقين فى نصف حلو عابر .. حملقة من لم ير نصفا حلوا من قبل .. مشيعينه باللهفة منذ ظهوره حتى اختفائه .

وأفرغ كل منا بعض ما فى جوفه من نوادر الصبا .. الا واحدا كان أكثرنا تؤدة وأقلنا حديثا .. فقد أخلد الى الصمت والاستماع حتى استحثه بعضنا بقوله ناهرا :

– توفيق .. قل شيئا ، وكف عن هذا الصمت الثقيل . لابد أن تكون لك بعض المغامرات .

ولم يجب توفيق ، وعدنا نشجعه بقولنا :

– قل ولا تخف .. لن نبلغ زوجتك شيئا .. أليس لك مغامرات ؟

وأجاب أحدنا بالنيابة عنه :

– لابد أن له مغامرات كثيرة .

وضحك صاحبنا توفيق ، وأجاب بعد طول صمت :

– مغامرة واحدة .. واللّه العظيم .

وصحنا كلنا فى نفس واحد :

– قصها علينا .. لن نتركك حتى نستمع اليها ! .

وأطرق توفيق برأسه برهة يستعيد القصة الى ذهنه ويلم أطرافها من

أنحاء الماضى .. ثم ضحك ضحكتين قصيرتين ، وأخذ يقص مغامرته قائلا :

★ ★ ★

بدأنا المغامرة منذ خمسة عشر عاما وأنا مازلت حديث عهد بالتخرج من المدرسة وبالتوظف .. حديث عهد بالاستقلال الذاتى ، وبالاثنى عشر جنيها أتناولها فى أول كل شهر وأشعر أنه ملكا خاصا لى .. وأنى حر التصرف فيها أصرفها كما أشاء .. وأبددها حيثما أشاء ! .

ومع ذلك فلم أكن أبددها ولا أصرفها .. بل كنت أقتصد جزءا كبيرا .. لأنى كنت أعيش فى ذلك الوقت مع والدتى .. ولم يكن هناك أوجه للصرف .. لاسيما وأنا كما تعلمون مخلوق طيب هادىء لم أستطع بعد – رغم توظفى – أن أتحرر من الاحساس بأننى ما زلت تلميذا .. وأن أوسع نطاق نزهتى وفرفشتى .. فكان أقصى ما أفعله من برم ، هو أن أذهب الى السينما ما تينيه وأتناول ٢ سندويتش من الأمريكين وقطعتى جاتوه من تسيباس ، وأجول جولة فى شارع فؤاد وعماد الدين متطلعا الى الغاديات والرائحات أو المتسكعات على الفترينات ، ثم أعود الى البيت حامدا شاكرا فلا تدق العاشرة حتى أكون راقدا فى الفراش .

كان ذلك أقصى برنامج الشبرقة والبرم والتهييص والفرفشة : سينما وسندويتش وجاتوه وتطلع الى النساء والفترينات .. حتى بدأت المغامرة الأولى .. وراء احدى الفترينات .

كانت الفترينة المقدسة .. فترينة الهوى والذكريات .. هى فترينة ريفولى الكائنة على ناصية شارع عماد الدين وشارع عدلى .

والفترينة فى حد ذاتها عامرة حافلة .. ملفتة مغرية .. وهى تقع فى معبر هام لا يكاد يمر يوم دون أن أعبره رائحا أو غاديا .. متمهلا أمام الفترينة مستعرضا محتوياتها ونظارها متطلعا الى ما فى داخلها وخارجها ممتعا الطرف بما فيها وما حولها .

وزاد تمهلى يوما بعد يوم ، وأضحى مرورى بالفترينة ووقفتى أمامها

واجبا مقدسا لابد من تأديته . وأخذ البصر يتجاوز ما فى الفترينة الى ما وراءها .. وينفذ من الزجاج متخللا المعروضات عابرا الظهر الزجاجى مستقرا على وجه معين يتخذ مكانه فى أحد أقسام المحل .

وكان وجها حلوا صغيرا دقيقا متسع العينين .. لذت لى مشاهدته كل يوم .. حتى أصبحت عادة ملحة عندى ، وبدأت أضع زيارته من وراء الفترينة على رأس برنامج الفرفشة والبرم وأضيف الى السينما والساندويتش والجاتوه والتسكع ، وقفة بفترينة ريفولى لمدة ربع ساعة قابلة للزيادة الى نصف ساعة .

ومضت بضعة أشهر ، ومغامرتى لا تتجاوز التطلع من وراء الفترينة .. حتى وسوس لى الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس .. بأن أتجرأ قليلا وأقدم على عمل ايجابى وأقنعنى بأن دخله فى المحل ووقفة أمام الساحرة ومحاولة الشراء ستنيلنى الأرب وتبلغنى المنى دون أن يكون فى عملى خروج على مألوف أو لفت لنظر .

واقتنعت بسهولة بكلام الوسواس الخناس ، ودخلت المحل .. واتجهت رأسا الى بغيتى دون أن يكون لدى أى فكرة عما أنوى شراءه .

ووقفت أمامها وجها لوجه .. أو بتعبير أدق عينا لوجه .. فما كان بى وقتذاك سوى عينين تحملقان فى وجهها الحلو .. ومضت برهة وأنا أفحصها وهى ترتب بعض البضائع فى منضدة زجاجية أمامها .

وأتمت عملها ثم رفعت الى بصرها متسائلة :

– أفندم ؟ .

وهنا فقط تذكرت أنه يجب ألا أكتفى بالحملقة فيها بل أشترى شيئا ، أو على الأقل أحاول الشراء .

وبنظرة سريعة عرفت نوع بضائعها وكانت تتولى قسم أدوات الزينة للسيدات من مانيكير وعطور وبودرة ومقصات أظافر وكريم للوجه .. الخ .

وأخذت أفحص ما عندها محاولا أن أجد شيئا يصلح للشراء .. أعنى ما يمكن شراؤه دون أن يذهب ثمنه سدى .

ولم يكن لديها بالطبع شيء يصلح لى .. فبدأت أبحث عن شيء يصلح لوالدتى قائلا فى نفسى أنى لم أهدها شيئا منذ أن تخرجت ، وأخذت أفحص الأصناف المعروضة ببصر حائر وذهن قلق مضطرب لاحساسى أنى واقع فى هذه اللحظة تحت بصرها .. وأنها ولا شك آخذة فى فحصى ولو على سبيل التسلية .

وفجأة تذكرت أن والدتى كانت قد طلبت منى ربع أقة حنه بغدادى من الحناوى بالغورية .. وقلت لنفسى أنه لو كان لدى الفاتنة هذا النوع من الحنة فان المسألة تكون صفقة رائعة وتوفيقا من عند الله ، وأكون بذلك قد أرضيت نفسى ووالدتى وخرجت من هذا الحرج الذى أنا فيه قائلا :

– عندى حنه بغدادى ؟ .

ولم تستطيع الآنسة أن تمنع الابتسامة التى افتر عنها ثغرها وهزت رأسها وقالت فى لهجة فيها زجر خفيف :

– لا يا فندم .. ألا تريد شيئا غير الحنة البغدادى ؟

وأصابنى الارتباك من هذا الزجر الذى كشفت به أمرى وقلت مدافعا :

– أريد أى شيء .. أهديه لمخلوق عزيز .

وتأملت المنضدة برهة .. ثم أخرجت لى علبة فى حجم الكف وفتحتها قائلة :

– هذه علبة لطيفة .. بها طقم كامل للزينة .. هذه زجاجة الريمل ، وهذه زجاجة المانيكير ، وهذه بودريير لطيفة جدا لم يعد عندنا سواها .. أنصحك بأخذها .

وكانت لهجتها فى الحديث حلوة كوجهها ، والكلام يقطر من شفتيها كما يقطر عسل النحل ! .

انها تنصحنى بأن آخذ العلبة .. ولم أك أقوى على رد النصيحة ، ولو كنت ملاقيا فيها حتفى .. ولا كنت بمستطيع رفض العلبة ولو كان بها بدل الرميل والمانيكير سم زعاف !

وأخذت العلبة ودفعت فيها كل ما فى جيبى فلم يبق معى غير أجرة الترام .. وعدت الى البيت قريرا هانئا كأنى قد فتحت عكا ، أو كأنى جبت الديب من ديله ! .

ولا أظن هناك ضرورة لوصف وقع الهدية على والدتى وثورتها على ، واتهامها اياى بالخبل واصرارها على ارجاعها ، وانتهى الأمر بها الى بيعها الى احدى القريبات بنصف الثمن .

وبدأت بعد ذلك سلسلة من الغزوات الشرائية الغزلية لمحل ريفولى .. ولكنها غزوات خسائرها خفيفة محتملة .. فيوما أبتاع بنسات للشعر .. ويوما آخر أبتاع ملقاطا للحواجب .. وهكذا ظللت أمزمز على بضائع الحسناء وأخرج منها بما خف حمله وخف ثمنه !

ومع ذلك فقد ثقل الأمر على جيبى ، وتكدست لدى كمية من أدوات السيدات أستطيع أن أسرح بها فى عربات الترام ، وكان لابد لى من أن أضع للأمر نهاية ، لا سيما وأن مرور الأيام وكثرة الغزوات والأحاديث العابرة والنظرات الطيارى زادتنى شغفا وولعا .

وعاد الوسواس الخناس مرة أخرى يوسوس فى نفسى ويأمرنى بأن أتخذ خطوة أشد جرأة وأكثر جسارة وأقنعنى بأن انتظارها على باب المحل حتى خروجها ثم تتبعها ومعرفة بيتها سيكون خطوة موفقة ومرحلة حاسمة فى مغامرتى .

وفعلتها .. ووقفت أنتظر حتى أغلق المتجر أبوابه .. وخرجت البائعة الساحرة .. وسرت أتبعها فى حذر عن بعد .. حتى انتهى بى المطاف بعد طول سير وركوب أتوبيس الى باب بيتها بالسكاكينى ، ودخلت هى ، وعدت بلا .. حتى خفى حنين .

وهكذا بدأ التطور الثانى لبرنامج فرفشتى ، فزاد على محل ريفولى وتوصيل الحسناء فى أتوبيس نمرة ١٠ حتى بيتها فى السكاكينى .

واستمررت أوصلها كل ليلة دون أن تبدو منها بادرة تشعرنى أنها تعرفنى أو تحس بى ، بل كانت تتجاهلنى تجاهلا تاما ، لا غضب ولا ضحك ولا نفور ولا انبساط !

وسنحت الفرصة الرائعة ذات يوم .. الفرصة التى تلمع فجأة .. ثم تختفى ، فان اقتنصها الانسان ذاق سعادة العمر ، وان تركها تفلت ذهب عمره سدى .

رأيتها ذات يوم ، وكان يوم أحد واقفة أمام شباك تذاكر سينما متروبول ، توشك أن تبتاع تذكرة .

ولم يكن الوسواس الخناس – بلا جدال – هو الذى وسوس هذه المرة فى صدرى .. لأنى اندفعت قبل أن أعطيه فرصة الوسوسة لأتخذ مكانى وراءها مباشرة أمام شباك التذاكر ، ولأطل برأسى فأعرف مكانها ثم أطلب من البائعة اعطائى التذكرة المجاورة لها .

وهكذا اقتنصت فرصة العمر بلا أدنى تفكير ، ولو كنت قد فكرت لترددت وأحجمت ، ولضاعت الفرصة .. فأنتم تعرفون أى انسان خجول أنا .

وجلست بجوارها كتفا فى كتف وذراعا لصق ذراع ، وأنا أكاد أسمع حفيف أنفاسها ، ويكاد قلبى يقفز – من فرط الخفقان – من أضلعى .

وأطفئت الأنوار ، ولم أحاول بالطبع أن أنظر الى الشاشة أو أفكر فى الفيلم ، فقد كان كل تفكيرى مركزا فى كيف أبدأها الحديث .

وهدانى الخناس الى أن أمس ذراعها بذراعى وأتحسس يدها بيدى .

وأطعته وفعلت .

وكان نصيبى زغدا من مرفقها فى جانبى .

وبلعتها ، وكتمت الزغد فى جنبى !

وعاد الوسواس الخناس يلح فى وسوسته ويقول :

– أقدم .. أقدم !

واستمر الوسواس يوسوس وأنا أطيع ، ويغرى وأنا ألبى ، حتى انتهى الأمر الى بى الى زغد آخر ، لا منها ، ولا فى جانبى ، بل من الجالس ورائى ، وفى ظهرى ، وهو يهمس بى زاجرا وهو فى حالة غضب شديد :

– كفاية بوس بقى يا سيدنا ! احنا حانتفرج على السينما والا عليك !

وكان الرجل محقا ، فقد كنت لا مراء وقتذاك أستحق المشاهدة .

أى والله لقد انتهى بى الأمر بعد طول وسوسة من الوسواس وتلبية منى الى أن أصبحت شفتا الحسناء فى فمى وجسدها بين ذراعى !

كيف ؟ !

لقد لمست يدها أول مرة فزغدتنى فى جانبى ، وثانى مرة سحبت يدها . وثالث مرة استسلمت واتكأت على بكتفها .

وسحبت يدى من يدها وأحطتها بذراعى فأمالت رأسها على كتفى ، ومددت شفتى فمدت شفتيها .

وقبلتها فى لهفة ونشوة ، وحمدت الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس .

وفى اليوم التالى ذهبت اليها فى المحل ورجوتها أن تنتقل الى قسم آخر رجالى ، حتى توفر لى هذه النقود التى تذهب سدى .

وضحكت وأنبأتنى أنه لا داعى لأن آتى لها فى المحل .. واتفقنا على موعد للقاء .

وهكذا بدأنا نلتقى ، وأنا انسان قليل الحيلة .. عديم التجربة ، ليست لدى

أقل فكرة عن أين يذهب العشاق أمثالى بعشيقاتهم من مثيلاتها .

ولم يكن أمامى غير السينما أصطحبها اليها اللقاء بعد اللقاء حتى بدأت أضيق بالسينما وأهفو الى مكان هادىء يوفر لى خلوة نكون فيها أكثر تحررا واطمئنانا .

وعاد الوسواس يلح ويطلب منى أن أنقب وأبحث ، حتى هبط على صديق من السماء كان أشبه بالمعجزة .

كان الصديق صاحب عربة ، وقد قصدته لأقترض منه عربته وقلت له صراحة ، انى أريد عربته ، لأتنزه بها أنا وصاحبة لى .

وقال الصديق ببساطة :

– العربة تحت أمرك ، ولكن لم تتعب نفسك فى العربة ان لدى شقة لطيفة خاصة ، تستطيع أن تأخذ مفتاحها فى أى وقت !

وبهت ، فقد كان هذا أكثر مما أتوقع .

شقة مرة واحدة !

ولم أتردد لحظة ، وقلت له :

– هات المفتاح .

وأخذ يصف لى الشقة معددا محاسنها ، فأنبأنى أنها واقعة ببيت من بيوت الشركة فى نهاية مصر الجديدة من ناحية المباق وأنها شقة بباب منعزل على الشارع يستطيع الانسان أن يدخل اليها ويخرج منها دون أن يشعر به أحد .

وأنبأنى أنها مزودة بكل وسائل الراحة وبها حجرة نوم نظيفة ومطبخ به بعض المأكولات الخفيفة وراديو .. ألخ .

وأنبأنى كذلك أن الكهرباء فيها بعداد من النوع الذى يشتغل بالنقود .. أى اننا لا نحصل على كهرباء الا بقدر النقود التى نضعها فى العداد .

وكانت المرة الأولى التى أسمع فيها عن هذا العداد .. وأخذ صاحبى يصف لى موضعه وكيفية وضع النقود فيه . وشعرت بارتباك وقلق خشية أن يسبب العداد مشكلة .. ولكن صاحبى طمأننى بأن به من النقود قدرا كافيا ، وأنه يزودنى بالمعلومات من باب الاحتياط !

ووصف لى البيت جيدا ، وأعطانى نمرة الشارع ونمرة البيت ، وتواعدنا على اللقاء فى الساعة السادسة مساء ، حتى يعطينى العربة والمفتاح .

وتركت صاحبى وأنا أحس بفرحة ممزوجة بالكثير من الخشية والوجل .. فقد كانت المرة الأولى التى أوشك أن أنغمس فى مغامرة كهذه .

ومن باب الحذر ذهبت فى التو لأستكشف البيت بالنهار حتى يسهل على الذهاب اليه ليلا .

ووصلت الى هناك وعرفت البيت بسهولة ، ووجدت مكانه نموذجيا ، فقد كان - كما قال صاحبى - دور سفلى فى أحد بيوت الشركة المتجاورة المتشابهة وكان له باب منعزل يفضى الى حديقة صغيرة تطل على شارع صامت ساكن ، لا يكاد يمر به أحد ، وهكذا عدت مطمئنا وأنا أمنى النفس بمغامرة مقبلة ممتعة .

ومر كل شىء على خير ما أشتهى ، فقد التقيت فى الساعة السادسة بصاحبى وسلمنى المفتاح والعربة ، وفى الساعة السابعة والنصف كانت الحسناء تجلس بجوارى وكانت العربة تنهب الأرض فى طريقها الى مصر الجديدة .

ومر كل شىء على ما يرام فيما عدا بعضْ « عصلجة » من المفتاح سرعان ما تغلبت عليها ، ودخلنا الشقة فاذا بها رائعة حقا وجميلة .

وعلمت أن صاحبى أفرط فى التواضع ، فقد وجدت الشقة مؤثثة برياش فاخر ، (وأنها قد صممت لتكون وكر غرام) .

، لا أطيل عليكم التفصيل والوصف . لقد أخذت أجول وصاحبتى فى الشقة ، وجلسنا نستمع برهة الى الراديو ، وتناولنا بعض الفاكهة التى وجدناها فى المطبخ ، ثم ذهبنا الى غرفة النوم .

والواقع أنى كنت غير مصدق ما أنا فيه ، فقد كان شيئا لا يصدق أن أجد الساحرة الرائعة التى كنت لا أتمنى أكثر من النظر اليها ، قد أضحت بين يدى فى هذه الحجرة الفخمة ذات النور الأحمر .. الذى يبعث فى الجسد حرارة ، وفى النفس نشوة .

وخلعت الجاكتة والقميص ، وجلست واياها على حافة الفراش ، وبدأت أتحسسها بتمهل وبطء وتمعن ، تماما كما يتحسس محروم أحد ثمار المانجو ويشمها قبل أن يأكلها .. وأخذت أتحسس وجهها وعنقها بشفتى ، ورأيتها تسبل عينيها فى نصف اغماضة ، وتراخت أعضاؤها فى استسلام كلى !

وفجأة انطفأ النور .

ووجدتها تفيق من نشوتها ، وتجلس خائفة فزعة .

ولم يكن انطفاء النور فى ذاته بالشىء المفزع .. ولكن المفاجأة التى حدث بها هى التى كانت مفزعة .

وسمعتها تصيح : « أفتح النور » .

وحاولت أن أطمئنها ولكنها عادت تصيح مصرة : « افتح النور قلت لك » .

وقمت أتلمس طريقى فى الظلمة متذكرا كل ما قاله صديقى عن النور وعن العداد الذى ينطفىء ان لم تضع فيه نقودا ، وأدركت أن الصديق قد خدعنى ، وأنه لابد من وضع نقود فى العداد حتى يعود النور .

ولكن أين العداد ؟

وبدأت أستعيد لنفسى موضعه وكيف وصفه صاحبى .

فى الطرقة ، على اليمين بجوار باب المطبخ .. هذه هى الطرقة ، وهذا هو باب المطبخ .. ولكن لا يوجد أى أثر للعداد !

وأخذت أتحسس الجدران قطعة قطعة ، حتى مست يدى صندوقا من الصفيح معلقا على الحائط به ثقب أشبه بثقب الحصالة ، ومددت يدى فى جيبى ، وأخرجت قطعة من فئة الخمسة قروش ووضعتها فى الفتحة .. ولكن النور لم يضىء ، وأمسكت بالصندوق وجذبته فاذا به شىء منفصل ليس له أية صلة بالكهرباء !

وكان لابد من العثور على ثقاب حتى أشعل به شيئا ولو قطعة من الورق تعطينى ضوءا ، ولم أجد بدا من الخروج الى الشارع لكى أقترض من أحد المارة عود ثقاب .

ووقفت بباب البيت أنتظر عابر سبيل ، وكان أول من مر بائع لبن زبادى أخبرنى أنه لا يحمل ثقابا ، وكان الثانى رجلا أنيقا وسيما نظر الى نظرة تعجب وأنا أقف بالفانلة والبنطلون وسألنى لم أريد الثقاب ؟

وأنبأته بأن النور انطفأ ، وأنى أريد أن أبحث عن موضع العداد . ونظر الى الرجل نظرة شك وسألنى عمن أكون ؟ فقلت له . فعاد يسألنى عما اذا كنت صاحب الشقة أم ضيفا ؟

وضايقتنى أسئلته ، وقلت فى ملل وضيق وخشية :

– اذا كان معك ثقاب فأرجوك أن تعطينى اياه .

– الثقاب معى ، ولكنى واثق أنك لن تجد العداد ، ولن تستطيع تشغيله ، أتسمح لى بأن أدخل لتشغيله وأوفر عليك الجهد . .

وأخذت أدير الفكرة فى رأسى ، وكنت فى حالة من الضيق والخوف تجعلنى متلهفا على تشغيل العداد بأية وسيلة ، فلم أجد بدا من قبول اقتراحه ، لا سيما وأن مظهر الرجل كان يبعث على الارتياح .

ودخلت ودخل الرجل ورائى ووجدته يعرف الطريق أسرع منى ، ولم تمض لحظة قصيرة حتى كان النور قد أضىء .

وكنت فى هذه اللحظة قد أغلقت باب غرفة النوم .. وطلبت من الحسناء الغضبى أن تنتظر حتى أعود اليها .

ووجدت الرجل قد جلس فى الصالة ، فى حالة من الاطمئنان ، وأخذ يقضم احدى التفاحات الموجودة فى الطبق كأنه يجلس فى عقر داره .

وكنت أتوق الى خروجه والتخلص منه . ولكنى لم أكن أريد أن أغضبه أو أبعث الشك فى نفسه ، فتظاهرت بالصبر وبأن وجوده لا يزعجنى كثيرا .

ووجدته يعود الى أسئلته الحرجة البائخة التى بدأها من قبل فقال لى :

– أظن حضرتك ضيفا ؟

– أجل !

– لأول مرة تحضر الى هنا ؟

– أجل !

– هل تعرف صاحب البيت ؟

– أجل ، انه قريبى .

– من هو ؟

ووجدته قد تمادى فى أسئلته ، ولكنى لم أجد بدا من اجابته حتى أتخلص منه :

– انه على بك فوزى .

وضحك الرجل وأمعن فى الضحك .

وعجبت لضحكه ، وخيل الى أنه مخبول ، وندمت على ادخاله وقلت لنفسى ان الظلمة خير منه كثيرا وأهون شرا .

ولم أجد طريقة لاخراجه خيرا من أن أزعم أنى أريد مغادرة الدار فيضطر للخروج معى ثم أعود وحدى ثانية .

ونهضت متجها الى حجرة النوم لأرتدى القميص والجاكتة كى أوهمه أنى خارج .

وفتحت باب الغرفة وأغلقته بسرعة . وكانت صاحبتنا قد جلست على حافة الفراش وهى فى قلق رغم اضاءة النور ، ولم تكد ترانى حتى هبت واقفة وهمت بالصياح ساخطة محاولة أن تطلب منى الخروج .

ولكنى أسرعت بوضع يدى على فاها كى أمنعها من الحديث خشية أن يسمع الرجل صوتها وهمست فى أذنها :

– لا تتحدثى ان فى الصالة رجلا غريبا ، وهو الذى ساعدنى على اضاءة النور . ويبدو أنه من نوع ثقيل .. أو لعله سكران ، فهو لا يريد الانصراف ، وسأفهمه أنى خارج حتى يخرج هو الآخر ثم أعود اليك حالا .

وبدت الدهشة عليها ، ونظرت الى نظرتها الى مجنون ، ولكنى خطفت القميص والجاكتة وأغلقت الباب قبل أن أعطيها فرصة الرد .

ووقفت أمام الرجل بعد أن وضعت الجاكتة على كتفى وقلت له :

– هيا بنا .

– الى أين ؟

– انى أنوى الخروج .

– ولكنى لا أريد الخروج . يمكنك أن تخرج وحدك .

وهنا أحسست أن الموقف يحتاج الى حزم وأن الرجل يريد أن يستغل موقفه ، فقلت له فى لهجة حازمة عنيفة :

– أرجوك ، ليس لدى وقت للمزاح .

– أنا لا أمزح ، أؤكد لك أنى أود البقاء لأنى متعب .

– تستطيع أن تستريح فى بيتك .

– وهذا بالضبط ما أفعله الآن .

– ماذا تقصد ؟

– أقصد أنى أستريح فى بيتى .

– هذا بيتك ؟

– أجل ! هذا بيتى ، أما البيت الذى كان مفروضا أن تكون فيه فهو البيت المجاور . لا تدهش فالبيتان متشابهان ، وأنا نفسى أقع أحيانا فى هذا الخطأ .. والآن تستطيع أن تنتقل وحدك ، وأنى مسامحك فيما أكلت من تفاح .

وضحك الرجل .. ولكنى لم أضحك ، لقد كانت المشكلة عويصة ، كيف أخرج وأترك الحسناء ؟ وكيف أخرجها أمامه وأنا قد زعمت له أنى وحدى .

ولاحظ الرجل ترددى .. ولاحظ نظرتى الى باب حجرة النوم فأدرك ما وراءه .

وكان الرجل حكيما لطيفا فنهض معتذرا وقال :

– انى جد آسف .. تستطيع أن تقضى سهرتك ، وبلغ سلامى الى فوزى بك .

وخرج الرجل بعد أن نشف دمى .

ولم أتم السهرة بالطبع ، فقد كانت الحسناء فى حال من الخوف والضيق والغضب ، ولم أكن أقل منها خوفا ، ولا ضيقا ، وخرجنا نحن الاثنين قانعين من الغنيمة بالاياب !

★ ★ ★

أمام الفلك

هذا هو الابن النقى التقى ، الطاهر النبيل المغمض العينين .. الذى يخشى أبوه أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة .. هذا هو الوديعة التى تسلمها العبقريان لتربيتها والسهر عليهـــــــــــــا .

هذه القصة ذات أربعة أبطال ، وأغلب الظن أنه لم يبق من أبطالها على قيد الحياة سوى واحد . أما الثلاثة ، فاثنان منهم أستطيع أن أجزم برحيلهم الى الدار الباقية ، والثالث علمه عند ربى .

ولست أدرى أى دافع خبيث يلح على فى ألا أغير أسماء الأبطال ولا أكلف نفسى مشقة انتقاء أسماء مستعارة ، أستر خلفها حقيقة شخصياتهم ، قد يكون الكسل ، وقد يكون الاستهتار .. أو قد يكون اليقين بأن أحدا منهم لن يغضبه نشر القصة ، ولن يبادر الى تكذيب والتشنيع على .

أو قد يكون أكثر من هذا كله ، وهو الاطمئنان الى الأبطال الأربعة .. لأن أحدهم هو أبى بالذات : المرحوم محمد السباعى ، وأنا واثق أنه لو مد الله فى عمره لسبقنى الى نشرها .. كما سبق أن نشر معظم حوادثه مع

المرحوم الشيخ عبد الرحمن البرقوقى فى قصة الدروس القاسية فى البلاغ الأسبوعى فى سنة ١٩٢٨ .

أما واللّه لم يهبه الفرصة لكتابتها .. فلأكتبها أنا عنه ، ولو صدق ما يقال عن الأرواح من أنها ترانا وتحس بنا وتشعر بما نفعل ، فأغلب ظنى أنه قارئها ، وأن قهقهته العالية سترن فى السماء كما سبق أن رنت فى الأرض .

تبدأ القصة منذ زمن بعيد ، أستطيع أن أجزم أنه قبل سنة ١٩١٧ .. أى قبل أن أولد أنا .. فى احدى المكتبات (أعنى بداية القصة وليس مولدى بالطبع) فى شارع غيط العدة الموصل بين باب الخلق وعابدين .

ويجلس فى المكتبة رجلان : صاحبها ، وصاحب صاحبها ، ثانيهما أفندى ، وأولهما شيخ معمم .. أم الأفندى فهو أبى : محمد السباعى ، الذى قال عنه العقاد فى تقديمه لأحد كتبه « انه كان طليعة المدرسة الأدبية الحديثة فى نهضة الأدب المصرى » .

وأما الشيخ فهو عبد الرحمن البرقوقى ، الذى قال عنه المارونى : « انه كان فى زمانه من أعيان البيان وأقطابه وأعلامه بل كان يمثل عهدا من عهود الأدب » .

والاثنان .. كما هو واضح ، لمن لا يعرفهما من أبناء الجيل الجديد ، من أئمة الأدب العربى وأعلامه .

وانى أستطيع أن أتصور أبى بجسده الضخم ، وكتفيه العريضتين ، ووجهه الأحمر الممتلىء ، وقد جلس على كرسى من الخوص ، ووضع ساقا على ساق فى نفخة وعظمة كأنه يجلس فى شبرد ، وبجواره الشيخ عبد الرحمن يجلس على كرسى آخر بجبته المهفهفة وقفطانه الأنيق ، وجسده الفارع ووجهه الذى لا يقل بياضا ولا احمرارا عن وجه أبى ... وقد وضع هو الآخر ساقا على ساق وأخذ يتسلى بشد أنفاس من مبسم شيشة تكركع بجواره .

ولكى أعطى للقارىء فكرة عابرة عن الصديقين الحميمين أبدأ بشرح شخصية أبى وذكر بعض أحواله وقتذاك .

كان أبى يعمل بالأدب والتدريس ، وكان ككل فنان عبقرى بوهيمى ، لا يقيم وزنا لأوضاع الحياة .. يفعل ما يرضى نفسه الفنانة بصرف النظر عن النتائج .. قال لى عمى وهو أخوه الأصغر (طه السباعى باشا) أنه حدث ذات مرة وهما العائلان الوحيدان للعائلة ، أنه استقال من عمله ، وأوحى اليه بالاستقالة ، وقبعا فى الدار وأغلقا عليهم احدى الحجرات ، والعائلة تكاد تجن ، وأبوهما يضرب كفا بكف متسائلا فى دهش عما أصاب ولديه .. ثم اتضح أخيرا أنهما يحفظان « ديوان ابن الرومى » .

وسمعت من جدى أن أبى عندما كان مدرسا فى مدرسة رأس التين بالاسكندرية كان يكره الذهاب الى الاسكندرية ويفضل البقاء فى القاهرة ، وفى سبيل ذلك كان يجمع كل حصصه فى يوم واحد ، ويقضى بقية الأسبوع فى القاهرة . فاذا ما جاء ذلك اليوم .. رفض السفر .. ويظل جدى يتوسل اليه ويدعو اللّه أن يهديه حتى يرضى أخيرا ، ولكى يطمئن جدى على سفره ، ويأخذه من يده ويذهب به الى المحطة ويركبه القطار ، ويتحرك القطار .. فيهدأ بال جدى ، ويحمد اللّه الذى هداه ، ثم يعود الى الدار مطمئنا .

ويصل القطار الى أول محطاته فى بنها ، فيشاور أبى عقله ويغادر القطار .. ثم يأخذ القطار العائد الى القاهرة لاعنا الاسكندرية ومهنة التدريس .

ذلك هو أبى .. أما الشيخ البرقوقى .. فلا أظنه كان يقل عنه عبقرية .. وكان شديد الاعجاب به .. يتوق لأن ينهل بواسطته من منهل الأدب العربى وأعلامه وعباقرته .

كان الاثنان يجلسان وقتذاك فى مكتبة الشيخ البرقوقى عندما هل عليهما الشيخ الفك وقد سحب فى يده ولده امام .

ولست أعلم كثيرا عن الشيخ الفك ، ولكنى أعرف أنه رجل تقى طيب .. نقى السريرة شديد الورع .. قضى حياته فى الريف ، وقد أنهى ابنه دراسته الابتدائية فأحضره الى القاهرة ليدرس فى المدارس الثانوية .

والى من يلجأ الشيخ الفك غير الأستاذين الكبيرين والمربيين الفاضلين

الأستاذ السباعى والشيخ البرقوقى ، وهو الذى تربطه بهما أوثق الصلات وأمتن الروابط ؟

وهكذا حضر الرجل الطيب بابنه الى القاهرة ، وأخذ يسأل عن البرقوقى والسباعى حتى اهتدى اليهما أخيرا .

وبعد التحيات والسلامات بدأ الرجل يشرح مقصده ويعرض مطلبه قائلا :

– بجى ما يخفاش عليك يا سيد سباعى أنى أنا خايف على الولد من مصر .. أنا باسمع أن كلها مفاسد وبلاوى ، وأنا خايف على الولد لعينه تتفتح ويخسر .. جلت فى نفسى ما فيش غيركم يجدر ياخذ باله من الولد ، وأنا حاسبيه لكم وعارف اننى سايبه فى بيته .. مش كده والا ايه ؟

ويجيب الاثنان فى نفس واحد :

– أمال .. دا فى عنينا يا عم الشيخ .. دا ابننا .. ريح بالك وطمن نفسك .. ما تحملش همه أبدا .

– أنا برضه جلت كده .. هو احنا لنا حد غيركم .

– دا انت الخير والبركة .

– اللّه يبارك لنا فيكم .

وهكذا ينصرف الشيخ الفك تاركا ولده فى كنف صاحبينا ، وقد اطمأنت نفسه وهدأ قلبه .

بقى أمامنا البطل الرابع ، لم نقدمه بعد ، وهو امام الفك .

قد يتصور القارىء عندما يعرف أن صاحبنا امام ابن الشيخ الفك قد انتهى من الدراسة الابتدائية وأن أباه يخشى أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة ، أنه لا يعدو أن يكون طفلا غريرا .

قد يتصور كل انسان هذا ولا سيما عندما ينظر الى جيل أصحاب

الابتدائية الحالى .. جيل أطفال لا يزيد عن الحادية عشرة ..

ولكن امام لم يكن شيئا من هذا .. ان جيل أصحاب الابتدائية وقتذاك كانوا فى سن آباء هذا الجيل .. كان بينهم رجال مبرومو الشوارب ، خضر الذقون ، وكان فى مدرسة محمد على فى ذلك الوقت – مثلا – تلميذ سمكرى ألحق بالمدرسة للعب الكرة ، وكان يجلس فى فصول السنة الرابعة ، وهو لا يعرف فك الخط .

كان تلميذ امام الفك .. رجلا ربعة ، وكان يبدو عليه الصمت والهدوء .. هدوء الساهى اللى تحته دواهى يسبل عينيه ويطرق برأسه ، بادى الحياء ظاهر الخجل .. يجلس بجوار أبيه ساكنا منكمشا ، تقطر منه الطيبة والبراءة وهو الذى لم يترك ماخورة فى طنطا الا وطرقها ، ولم يدع غرزة الا ودخلها .

هذا هو الابن النقى التقى ، الطاهر الذيل ، المغمض العينين الذى يخشى أبوه أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة .

هذا هو الوديعة التى تسلمها العبقريان لتربيتها والسهر عليها ..

وأنا أعرف أبى جيدا ، وأعرف أنه لم يكن لديه وقت لتربية أولاده ، فما بالكم بأولاد غيره ؟

أذكر مرة أنه نهرنى بشدة لا لأنى ألعب ، بل لأنى أذاكر دروسى ، وأذكر أنه أعطى أخى أحمد ريالا .. لا لأنه نجح ، بل لأنه ضرب أحد أبناء الجيران – وكان الولد أكبر منه – روسية فبطحه وأسال دمه .. وأذكر كذلك أن والدتى كانت تجمعنا أنا وأخوى فى حجرة صغيرة وتغلق علينا ونحن نستذكر دروسنا ، لا خوفا علينا من الخروج ، بل خوفا من دخول أبينا علينا وتعطيلنا ، ولم يكن يجدى معه الاغلاق ، فقد كان يصعد الى أحد المقاعد ويشاغلنا من الشراعة الزجاجية .

تلك كانت طريقة أبى فى التربية ، ولو سألنا أحد أبناء الشيخ

البرقوقى – ابنه عاطف مثلا – عن طريقة أبيه فى تربيتهم ، لما وجدناها خيرا من ذلك .

وهكذا ترك الشيخ الفك وديعته البريئة الطاهرة فى كنف المربيين الفاضلين ، وعاد الى بلده هادئا مطمئنا .

وكان أول ما فعله هذا (الوديعة البرية) أن ذهب الى أحد نظار المدارس الأهلية وساومه على أن يأخذ منه ربع المصروفات ، نظير أن يقيده فى المدرسة ، مجرد قيد ، على أنه لن يضايقه لا بحضور ولا بأخذ كتب ، ولا بأى شىء .. كل ما هو مطلوب من الناظر هو أن يثبته لديه كتلميذ .. نظير خمسة جنيهات .

وتم الاتفاق ، وأثبت امام نفسه كتلميذ فى المدرسة . ثم انطلق على حل شعره .. يعيث – ببقية المصروفات – فى القاهرة فسادا .

ومرت الأيام والأسابيع والشهور .. وامام – كما يقولون – مقطع السمكة وديلها .. حتى طبقت شهرته آفاق المواخير ، ولم يعد هناك بيت من البيوت السر ، الا ولامام فيه مركز ممتاز .

وبدأت الأخبار تتواتر على أبيه – من أهل البلد الذين يزورون القاهرة – بما أضحى عليه حال ابنه ، ولم يصدق الشيخ فى بادىء الأمر ، وظن المسألة كلها من باب الكيد ، والحسد .

وأخيرا لعب الفار فى عبه ، وأصابه القلق ، ولم ير خيرا من الذهاب بنفسه الى القاهرة ليرى بنفسه جلية الأمر وليطمئن قلبه .

وطب على ولده ، وواجهه بالتهم والاشاعات ، وأسبل الابن عينيه ، وأخذ يبدى أسفه على سفالة أهل البلد وغرامهم بالأراجيف والأكاذيب والتشنيعات .

وهدأ الأب بعض الشىء ، وخفت وساوسه ، وأراد أن يقطع الشك باليقين .. فأخذ ولده وذهب الى الشيخ البرقوقى والأستاذ السباعى ليتأكد من

حسن سير ابنه وطيب سلوكه وليزيدهما توصية به ، ورعاية له .

ووصل الشيخ وابنه الهادى الوديع فى يده ، الى المكتبة حيث وجد المربيين الفاضلين فى محلها المختار .

وبعد التحيات ، بدأ الشيخ الفك الحديث :

– واللّه يا جماعة ماخبيش عليكم .. أنا بلغنى عن الواد امام حاجات وحشه جوى .

– خير ان شاء اللّه ؟

– بلغنى أن سيرته مهببة ، وأنه داير على حل شعره ينط هنا وهناك ، وأنه مش سائل لا فى دروس ولا فى مدرسه ، وأن حالته زفت وقطران .

وتعالت الدهشة من الطرف الآخر :

– امام ! مين قال كده يا سى الشيخ ؟ حد يقول الكلام ده ؟ استغفر اللّه العظيم .. ده امام زى القطة المغمضه .

وزادت القطة المغمضة تغميضا وانكماشا ، وقال أبى فى سره :

– واللّه مسيرك تروح فى شر أعمالك ياامام الكلب ، وتفضحنا معاك .

وعاد يقول للشيخ :

– امام ؟ امام سيرته مهببه ؟ ده من المدرسه للبيت ومن البيت للمدرسة .. ده حايموت نفسه من المذاكره ، واحنا حتى قلنا له يا امام حقك ترحم نفسك شويه .. مش كده يا امام ؟ .

وأطرق امام برأسه موافقا .. لقد قالوا له هذا حقا ، وسألوه أن يرحم نفسه ، ولكن مم ؟ ؟

وهكذا أخذ صاحبانا يطمئنان الأب ، وانطلقا يعددان محاسن امام

ويضربان المثل على طيبته وصلاحه .. حتى أقتنع الشيخ وأطرق برأسه خجلا من نفسه :

– والله أنا برضه جلت كده .. بس كلام الناس وسوسنى .. الله يلعن أبوهم .

– غايرين منك يا عم الشيخ ، حاسدينك على ابنك الفالح .

– معلهش .. الله يسامحهم .. أهو برضه جينا شفناكم واطمأنينا عليكم ..

وهم الشيخ بالنهوض وقد هدأ قلبه تماما ، ومد يده للسلام ..

وفى نفس اللحظة بدت عربة كارو .. قد اعتلتها حفنة من نساء وجه البركة وقد علا ضجيجهن وارتفعت أصواتهن بالغناء « الفاتحة للعسكرى » .. وارتدت احداهن طربوشا وأمسكت بيدها عصا ووقفت على العربة تهز بطنها وردفيها وجلست البدرونة بجسدها السمين الترهل والمنديل الأحمر أبو أويه وقد تهدلت ملاءتها من حافة العربة وأخذت تدق على طبلة بيدها وانهمكت بقية النساء فى التصفيق .

وكان من المحتمل أن يمر المنظر بسلام ، اذ لم يكن فيه ما يثير العجب ، فطالما مرت أمام المكتبة أمثال تلك العربات ، ولكن المصاب وقع عندما لمحت احدى النسوة صاحبنا امام وقد وقف وراء والده وهو يمد يده للسلام على الشيخ البرقوقى .

وضربت المرأة بيدها على صدرها وصاحبت متسائلة :

– بت يا نفيده .. مش هو دا امام ؟

– آه والنبى ياختى .. باينه هوا .

وتعالت أصوات النسوة :

– يوه .. دا امام .

– ينيلك يا امام .

وصاحت البدرونة :

– ودا ايه اللى جابه يا اختى فى وسط المشايخ .. ؟ يوه جاتك نيله .

وطلبت النسوة من العربجى أن يوقف العربة ، ونزلت احداهن الى الأرض صائحة :

– المنيل على عينه عليه لى ريال .. بقاله شهر .. فين يا واد الريال ؟

★ ★ ★

ويهز أبى رأسه وتنطلق منه قهقهة وهو يقول لى :

– لم أشعر فى حياتى بخجل أشد مما شعرت به فى ذلك الوقت .. لقد أحسست أنا والشيخ البرقوقى أن دشا باردا قد صب علينا ، ولم ندر ماذا نقول ولا ماذا نفعل ، ووقفنا أمام الشيخ الفك ونحن مشدوهين مبهوتين .

وانصرف الشيخ بولده فلم نبصر لهما بعد ذلك وجها .

★ ★ ★



الأقرع النزهى . انسان أقرع ونزهى . أعنى أقرع الجيب ، خاوى الوفاض .. بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق دائم .. وهو بعد كل هذا نزهى فنجرى .

حدث هذا ذات صيف ، فى زمن خلا ، زمن كنت فيه نمونجا للأقرع النزهى .. !

ويبدو لى أن من الخير قبل أن أبدأ القصة أن أعرف القارىء شيئا عن حقيقة هذا الأقرع النزهى .

الأقرع النزهى .. انسان أقرع ونزهى .. أعنى أقرع الجيب ، خاوى الوفاض . بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق دائم ، وهو بعد كل هذا ، نزهى فنجرى ، ابن حظ ، محب للفرفشة ، والصرف ، والنهييص ، فهو يصرف ما فى الجيب مع خلو الجيب ، ويأس من الغيب ، ويضيع القرش الأبيض ، دون أن ينتظر من غده أسود ولا أبيض . وينزه نفسه بكل ما يحب ويشتهى ، وعلى الله التدابير .

أقول انى كنت فى زمن خلا عندما وقعت حوادث هذه القصة ، نمونجا للأقرع النزهى ، ولست أريد أن يفهم القراء من قولى « كنت فى زمن خلا » ،

أنى قد أضحيت من كبار الأثرياء ، وأن جبينى قد نبت شعره وزال قرعه ، بل كل ما فى الأمر ، أنى لم أعد نزهيا ، وأن ضيق الوقت وكثرة المشاغل ، وأعباء الحياة ، قد أضاعت من النفس خفتها وصدتها عن اللهو والعبث ، وسدت فى وجهها سبل الفرفشة والتهييص .

وعندما أجلس اليوم لأكتب فى حمارة القيظ ، ولهيب الحر ، وأنا حائر ، بين أن أفتح النافذة فأكتوى بسياط الشرد ، تلفح وجهى وتشوى بدنى ، وبين أن أغلقها ، فأكتم أنفاسى ، وأسلق جسدى ، وأضحى كما يقولون « عرقى مرقى » .

وعندما أجلس لأكتب وسط هذا الجحيم الأرضى ، يحلو لى أن أعزى النفس ببعض ذكريات صيفية تندى عليها وتبل حرارتها ، وتعوضها ولو بالوهم عن متعة المصيف واغراء الشاطىء والمستلقيات على الشاطىء .

كنا ثلاثة ، وخير ما أستطيع أن أصف به أنفسنا حينئذ ، هو ثلاثة صبية ، وان كنا نحس وقتذاك أننا فى عنفوان الرجولة ، وأنه لا يوجد على ظهر الأرض أرجح منا عقلا وأكثر حكمة ، وأن كل الناس – عدانا – ما بين صبى أحمق وعجوز مخرف !

وكنا نكون عصبة ، مهرجة ضاحكة ، لا نكاد نعترف بأن فى الحياة أحزانا ، وكان شعارنا بسمة على الشفاه ، وقهقهة تصدر من القلوب قبل الأفواه ، نستنبت الضحك من منابت الحزن ، ونستدر البسمات من موارد البكاء ، لا يكاد يوجد ما يحبس نكاتنا ويغلق أفواهنا ، حتى فى مواقف العزاء وتشييع الجنازات ، كنا نكسو وجوهنا علائم الحزن بشق الأنفس ، اذ نذهب لتعزية أحدنا فى وفاة أحد أقاربه ، فلا نكاد نبصره وقد وضع طربوشا اقترضه فى منتصف رأسه ، وأطرق برأسه مدعيا الحزن ، حتى تصيبنا نوبة من الضحك نلاقى الأمرين فى كتمها .

وكنا نستطيع أن نجعل من أى انسان – مهما ثقل دمه – مورد تسلية لنا ، بمراقبة حركاته ، وتمثيل أعماله وتصرفاته .

وكنا نلعب معا فى تيم الكرة بالمدرسة ، السكند تيم طبعا ، ولم يكن وضعنا فى التيم ناتجا عن اجادتنا لعبة بل كان منا مجرد عُفونه وتلحمة وخوف من مراقب الفريق من طول لساننا ورغبة منه فى مداراتنا والانتفاع بنا فيما يتطلب المشاكسة والمناكفة .

وكنا دائما السبب فى هزيمة التيم ، فما أظن أن ملاعب الكرة قد رأت أسوأ منا ، ومع ذلك ، فلم يكن أسهل علينا من تقارض المديح وتبادل الثناء ، و « الهارد لك » .

ويخيل الى أنى أستطيع – بمنتهى السهولة – أن أملأ عشرات الصفحات .. عن حوادثنا وقتذاك عن النوادر المختلفة التى كانت تقع لنا ، ولذا أخشى أن أترك لنفسى العنان فأملأ حيز القصة ، دون أن أكتب القصة ، وأن أختم كتابتى بمجرد مقدمه بلا قصة ، وعلى ذلك فمن الخير أن ندخل على القصة رأسا .

فى ذات صيف رأينا – بلا داع – أن نذهب للتصييف فى الاسكندرية ، وعندما أقول بلا داع ، أقولها قول الواثق الجازم ، لأنه ، أولا ، لم يسبق لنا عادة التصييف ، بل كنا قانعين كل القناعة بقضاء الصيف ما بين روض الفرج وقصر النيل ، وثانيا ، لم تفكر عائلة أى منا فى التصييف حتى يكون ذلك داعيا لسفر أحدنا وأخذ صاحبيه معه ، وثالثا ، لم يكن لأحد من أى أقارب يمكن أن يستضيفونا فى الاسكندرية ، ورابعا لم نكن نملك حرية السفر دون أهلنا ، وخامسا وهو أهم من كل ما سبق ، لم يكن معنا النقود التى تكفينا للتصييف .

ومع ذلك ، ورغم كل ما سبق ذكره ، قررنا التصييف ، فقد كانت الحكمة الوحيدة التى نتبعها يومذاك ، هى أنه لا مستحيل فى الحياة ، فكل شىء ممكن عمله .

وهكذا بدأنا الاستعداد للتصييف وتحايلنا على أهلنا مدعين أننا سنذهب فى رحلة مع المدرسة لنعسكر فى خيام على شاطىء سيدى بشر ، واستطاع كل منا الحصول على قدر ضئيل من المال ، جمعناه على بعضه ، لنصرف منه معا ، وبدأنا بموازنة الميزانية !.

ولم تكن موازنتها – نظريا – بالأمر العسير . فما كانت لدينا أقل فكرة عن أوجه الصرف وتكاليف المعيشة ، فقدرنا ما شاء لنا الجهل أن نقدر ، واستطعنا بمنتهى البساطة أن نسوى المنصرف بالايراد .

وبدأنا الجهاد ، فقد كانت العملية لا يمكن أن تكون – بهذا المبلغ التافه – الا جهادا وكفاحا لا من أجل التصييف والتنزه والفرفشة ، بل من أجل الحصول على لقمة العيش والمأوى والستر ، أى أنه كان علينا أن نجاهد ، لا من أجل المتعة ، بل من أجل البقاء – فى المصيف – على قيد الحياة .

بدأنا الجهاد محملين بالزاد ، مما استطاع كل منا تهريبه من بيته ، من المأكولات الجافة التى يمكن أن تعيننا فى الضراء وتشد أزرنا فى البأساء ، وحصلنا بذلك على كمية لا بأس بها من القراقيش وعلب المربى والسردين . واستطعت أنا – بالاضافة الى ذلك – أن أسرق قدرة من الجبنة القديمة وصفيحة عسل وبرطمان مخلل .. كنا نعدها يومذاك من أثمن الأسلاب وأقيم الذخائر .

وككل أقرع ونزهى ، صممت على ألا نذهب الى المصيف الا بعد أن نبتاع ملابس المصيف اللازمة – فى عرفنا – لكل أرستقراطى منتفخ الجيب ، من مايوه صوف وبرنس ، الى قميص حرير أبيض سبور وبنطلون فانلة ، الى كاسكيت ونظارة سوداء وبايب . ولما كانت ميزانيتنا العجفاء لا يمكن أن تسمح لكل واحد منا أن يبتاع طقما كاملا . فقد ابتعنا واحدا من كل نوع واتفقنا على أن نقسم الطقم الأرستقراطى الى ثلاثة أقسام نتبادلها يوما بعد يوم ، فواحد منا يرتدى المايوه والبرنس ، والثانى يرتدى القميص والبنطلون ، والثالث يتمتع بالكاسكيت والنظارة والبايب .

ورحلنا عن القاهرة ونحن أقرب الى أهل الريف ، بذلك الخرج المملوء بالقراقيش وقدرة المش وصفيحة العسل وبرطمان المخلل ، وهبطنا الى الاسكندرية وقد تملكنا احساس المقدم على مغامرة اكتشاف مجاهل وغياهب ..

ولست أريد الاطالة فى سرد التفاصيل والعقبات التى صادفتنا حتى استقرت بنا الأمور – بقدرة قادر – فى احدى الكبائن الخشبية فى بقعة ما ،

بشاطىء الاسكندرية ، والواقع أنى لا أدرى حتى الآن كيف أمكننا تذليل العقبات وتخطى الصعاب ونحن على ما كنا عليه من جهل وسوء تصرف ، ولكن الذى أدريه أننا اتبعنا نظرية « دع الحياة تسير » ، وأننا « ما دمنا أحياء فلا شىء مستحيل » ، وهكذا وجدنا الأمور تتبسط وتحل ، والحياة تسير بنا ، حتى تستقر فى كابينة « مدام ماريكا » ، التى تنازلت لنا عن حق سكناها ، وأخلتها لنا ، نظير ثلاثة جنيهات ، وبرطمان المخلل ، وزيارتها لنا ثلاث مرات يوميا ، لتطمئن على سلامة الكابينة ، ولتتأكد أننا لم نحملها ونعود بها الى القاهرة .

وجلسنا فى الكابينة الجرباء المشققة ، كنا نسير فيها فتقرقع أرضيتها تحت أقدامنا فتذكرنا بقول الشاعر :

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت الى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
وأخشى بها أن تقيم الصلاة فستجد حيطانها الراكعة
اذا ما قرأت اذا زلزلت خشيت بأن تقرأ الواقعة

ولم تكن كابينة « مدام ماريكا » بأفضل كثيرا من دار الشاعر ، ومع ذلك فقد كان بنا من فرط الفرحة بها ، احساس قاطن أنطونيادس ، وساكن الزعفران . وأخذنا نتمطى ونتلوى على الفراش الوحيد والمرتبة الملقاة على الأرض ، كأننا لم ننم على فراش أو مرتبة من قبل أو كأننا لم نتعود أن ننام بالجملة على فراش واحد .

ورتبنا الأطعمة فى دولاب المطبخ واتفقنا على أن نكون عقلاء منظمين ، وأخذنا فى كنس الكابينة ومسحها وتنظيف حيطانها مما علق بها من الأتربة ووضعنا فيما بيننا نظاما للخدمة – اذ لم يكن من المعقول أن نفكر فى احضار خادم واتفقنا على أن تكون الخدمة بالنوبتجية ، فيتولى كل منا أمر الدار فى يوم كامل يبدأ من الشروق وينتهى فى شروق اليوم التالى ، على أن يؤدى لها كل ما يلزم من مسح وكنس وشراء طعام وطبخ وغسل أوان وغسل ملابس وكيها ، ومقابلة « مدام ماريكا » والاعجاب بها .

وسارت بنا الحياة سهلة لطيفة مرحة هانئة ، وتعود كل منا أن يقوم بدور خدمته على أتم وجه بلا تقصير ولا تذمر ، وتعودنا كذلك تبادل مهمات الأرستقراطية – وهى ملابس الشاطىء – دون أن يحدث بيننا أى خلاف أو نزاع .

وبدأنا مغامراتنا الغرامية . مغامرات عابرة طيارة ، ولم تكن متعتنا بالمغامرات نفسها قدر متعتنا بالتفاخر بها ، وبأن يقص كل منا تفاصيلها على الآخرين ، مضيفا اليها الحواشي والرتوش ، مضفيا عليها من بنات أفكاره ما استطاع من أوهام وأكاذيب .

وفي ذات يوم ، خرجت وحدى قبيل الغروب للتنزه على الكورنيش ، فقد كان أحد الرفاق منهمكا فى مقابلة مدام ماريكا التى لم تنقطع قط عن الحضور ، وفى تلقى تأنيبها على الاسراف فى استعمال المياه ، وكان الرفيق الآخر – كما يدعى – على موعد غرام .

وكنت أشعر فى ذاك اليوم أننى على أتم حال من الوجاهة والأرستقراطية ، فقد كان نصيبى فى ذات اليوم من اللوازم طقم النظارة السوداء والكاسكتة والبايب .

وكنت قد استعرت من صاحبى الملازم للدار – أى الذى سيقوم بالخدمة – نصيبه المكون من القميص الحرير والبانطلون الفانلة الأبيض .

وقد كان يتملكنى وقتذاك وهم عجيب من النظارة والكاسكيت والبايب ، اذ يخيل لى بمجرد أن أسير بهذه الأشياء أنى قد أصبحت انسانا آخر أقرب الى الملوك والأمراء ونجوم السينما ، وكنت أستغلها أقصى استغلال فلا أتركها لحظة واحدة ، حتى عندما تسقط الشمس ويسود الظلام ، وكانت الكاسكيت تستمر قابعة على رأسى ، والنظارة السوداء ملاصقة لعينى ، ومالى أنا ولسقوط الشمس وشروقها . ان الأدوات التى ألبسها ، أدوات أرستقراطية ،فهل يعقل أن تغيب الأرستقراطية والمظهر الجذاب بمجرد غياب الشمس .

وهكذا سرت بالكاسكيت والنظارة السوداء والبايب والبانطلون والقميص ، وقد خيل الى أن أنظار الناس قد تسمرت فى .. وأخذت تحدجنى ، وأنى قد بت شغلهم الشاغل ، وأن الشفاه الحلوة العذبة لم يعد لها عمل الا التهامس على والاعجاب بى .

وهززت رأسى وقلت لنفسى معهم حق ، فما أظنهم قد رأوا من قبل من ارتدى الطقمين معا ، طقم الكاسكت وطقم القميص والبنطلون .

وصممت على انتهاز هذه الفرصة التى قل أن يجود بمثلها الدهر . وأن أقدم على استغلالها ، فألقى بدلوى فى الدلاء ، وأن أبدأ عملية المعاكسة و « البصبصة » وأنا على حالى تلك من الوجاهة والأناقة ، فلا أظننى أستطيع أن أقع على صيد أثمن مما يمكن أن أقع عليه وأنا بهذه الأرستقراطية المزدوجة .

ويشاء الحظ العجيب أن يقع الصيد فى غمضة عين .. وأى صيد ! ! صيد لم أكن أحلم به .. ولا أفكر فيه ، ولا أتطاول اليه .

كانت من نوع يجذب النظر من بين الآلاف الموجودة . نوع براق أهيف فائر ، صارخ الفتنة ، زاعق الجمال . لا يستطيع أى نوع من الثياب أن يستر محاسن جسدها . فهى عارية عارية ، وكاسية عارية ، لا تملك العين الا أن تستشف من وراء الثياب ما أخفت الثياب .

ولست أدرى ، أكان حقا سر النظارة السوداء والكاسكيت والبايب والقميص الحريرى هو الذى أوقع الفاتنة فى شراكى ، أم كانت المسألة مجرد بخت حلو ، وفضل من اللّه .. ؟

على أية حال ، لم يكن لدى وقتذاك فرصة للتفكير فقد كنت فى حالة « دوخان » من فرط الفرحة ، ووجدت نفسى – بدون جهد – أقف بجوارها متكئا على الكورنيش . وقد تلاصق كتفانا وأخذنا نتحدث بلا كلفة كأننا أصدقاء قدامى .

ولم تكن فرحتى فى الواقع ناتجة عن متعة بالفتاة نفسها بل كانت ناتجة

عن تصورى ما أنوى قصه على صاحبى ومدى ما أستطيع التفاخر به . وكنت أرتب فى ذهنى التحابيش والتحاوير التى أنوى أضافتها الى مغامرتى الجديدة ، وكنت أمعن النظر فى وجه الفتاة حتى أستطيع أن أصفه لهما جيدا .

واستمر الحديث بيننا هادئا ممتعا ، حتى أخبرتنى فى خلاله أنها ابنة « فلان باشا » ، وأحسست برأسى يدور ، من يصدق هذا ، ابنة باشا مرة واحدة ؟

وتمنيت لو استطعت أن أتركها وأعود الى البيت حتى أحضر الصاحبين الخبيثين ، ليشاهدا بنفسيهما « الأملة » التى أصبت بها وليتأكدا أن مغامرتى حقيقة واقعة ، لا ادعاء فيها ، وأن ابنة أحد البشوات ، قد سقطت فى هوى .. العبد الفقير .

وافترقنا بعد أن تواعدنا على اللقاء فى السابعة صباحا والشاطىء خال ، وتركتها وانطلقت الى الكابينة لأقص على صاحبى ما حدث لى وأنبئهما بالموعد الصباحى .

ولم يبد عليهما ، علائم التصديق ، وهزا رأسيهما . كأنهما يوافقان على كذبة من معتاد للكذب ، فقلت لهما ، بلهجة الواثق ، انهما يستطيعان التأكد من صدق قولى بأن يذهبا للشاطىء فى الساعة السابعة حيث ألتقى بالحبيبة الأرستقراطية .

وهز أحدهما رأسه مستنكرا وتساءل :

– الساعة السابعة ، باكر ؟ .

فقلت فى ثقة :

– أجل .

– أنسيت أنك نوبتجى باكر .

نوبتجى ! ! .. أجل ، لقد نسيت النوبتجية .. ان على أن قوم بدور الخدمة فى الغد .

ولكنى لا بد أن أذهب ، ليس هناك قوة فى العالم يمكن أن تمنعنى من الذهاب .

وسألتهما أن يبادلانى ، فأبيا ، وتوسلت اليهما فأصرا على الاباء .

واستيقظت فى الساعة الخامسة صباحا بعد أن صممت على أن أنهى كل ما لدى من عمل قبل أن تحل السابعة ، ثم أنطلق فى السابعة الى موعدى ، ماذا يريدان منى أكثر من ذلك ؟

ودخلت المطبخ مشمرا عن ساعدى وبدأت أعد معدات الطهى الذى جهزت لوازمه من الليل .

وكان على أن أبدأ بغسل النحاس ، وفتحت الصنبور فاذا بالمياه مقطوعة .

ولم تمض برهة قصيرة ، حتى كنت مستقرا بكوم الحلل أمام الحنفية على شاطئ البحر ، وبدأت عملية الدعك بالرمال مرة والغسل بالليفة والصابون مرة أخرى حتى جعلت النحاس يبرق من فرط النظافة ، أو كما يقول أهل البيت « قل مفتح » .

وفركت يدى فرحا واغتباطا .. وهممت بالنهوض ، راضيا عن نفسى كل الرضاء .

ورفعت بصرى ، فاذا بى أجدها هى ، بدمها ولحمها وصدرها وساقيها ، الحبيبة الارستقراطية ، ابنة الباشا .

تصوروا موقفى ،وهى تتأملنى ، وقد جلست أمام كوم النحاس بالجلباب كأحقر خادم ، وقد تلوثت يداى بالهباب وأغرقت ملابسى بالمياه والرمال !

وأحسست بالدنيا تدور بى ووجدتنى بحركة لا ارادية ، أرفع يدى الى وجهى فألوثه بالهباب ثم أقول لها بصوت ذليل متواضع كأننى لست أنا ، بل مجرد خادم لى :

– سيدى جايلك حالا .

ثم ألفح النحاس على كتفى وأسير مغنيا بأعلى صوت :

« سلم على .. سلم على .. لما جابلنى وسلم على ، يا بوى يا بوى » .

ووصلت الى الكابينة فوضعت النحاس فى المطبخ وجلست برهة أستريح من عناء الخضة ، ثم نهضت متمالكا نفسى ، وأخذت أزيل من وجهى الهباب وقد صممت أن أثأر لنفسى من صاحبى فلا أذيقها طعاما .. وأن أرتدى كذلك الطقم الأرستقراطى بالكامل فأحرمهما من التبغ بنصيبيهما .

وهكذا انطلقت لتوى من الدار مرتديا المايوه الصوف والقميص الحرير ، والبنطلون ، والكاسكيت ، والنظارة ، والبايب ، وفوق كل هذا ، البرنس ، حتى لا أترك لهما قطعة واحدة من قطع الأرستقراطية .

وعدوت الى الشاطىء فوجدتها مستلقية على الرمال وحييتها فى رقة ، فنظرت الى فى دهشة ووجدتها تقول مستنكرة :

– انت لابس هدوم سيدك ؟ !

يا للفتاة الخبيثة ؛ لقد أصرت على أننى ما زلت الخادم ، ولم تصدق أبدا أننى فى هذه المرة .. كنت « سيدى » نفسه .

وأخيرا اضطررت لأن أعترف لها بكل التفاصيل وأن أقول لها انى صعقت عندما رأيتها أمامى وأنا أغسل الحلل .

وكانت رقيقة لطيفة عندما قالت ضاحكة :

– لو لم تفر لعرضت عليك المساعدة .

وما زالت حتى الآن ، اذا ما لقيتنى تسألنى مقهقهة :

– ازاى سيدك ؟

★ ★ ★

صينية قرع

ودق المدفع وأقبل الضابط على خيمة الأكل وفوجئوا بالصينية تتوسط السفرة .. وجلست أنا والبارودى نفرك أيدينا وقد كسونا وجوهنا علامات التواضع وانكار الذات .

لا أظن أن هناك سؤالا أعيتنى اجابته كهذا السؤال ؟ .

ماذا يحدو صاحبنا « الضو » الى خلط الطعام بالجاز ؟ .

أربعة أشهر ! ! .. مائة وعشرون يوما .. ونحن لا نذوق لقمة واحدة .. قد خلت من الجاز .

أترى الخبيث له بالجاز ولع فهو يدسه فى طعامنا .. ليل نهار .. حتى يتمتع بما تبقى منا مغمورا بالجاز ؟ .

لا أظن .. فلو أن الأمركذلك لكان خيرا له أن يحتفظ بكمية الجاز التى يخلط بها الطعام .. ليخلط بها البقايا فقط . فيستطيع بذلك أن ينعم فى طعامه بكمية من الجاز أوفر .

أترى الغبى حريص على صحتنا .. فهو يدس الجاز فى الطعام حتى يحصننا به ضد الأمراض .. ويجنبنا شر الأوبئة ؟

أم تراه قد مل عشرتنا ، فهو يجد فى الجاز خير وسيلة للتخلص منا والقضاء على حياتنا ؟

من يدرى ؟ كل هذا جائز ومحتمل فلا أظن أن هناك شيئا مستبعدا على صاحبنا ، فهو انسان غير مفهوم لا تستطيع أن تميز فيه ناحية الشر أو الخير ، فقد مزج فى نفسه خيره بشره وأضحى خليطا معقدا لا يستبينه المرء حتى بعد طول دراسة فأنت تظلمه اذا ما قلت عنه شريرا ، وتظلم نفسك اذا ما ظننت به صلاحا واطمأننت اليه .

ولكن ماذا يجبرنا على التمسك بالضَّو ، وعلى الرضوخ لتناول طعامه المخلوط بالجاز ؟

قالوا ماذا يجبرك على السوء ، قلت ما هو أسوأ منه ، وهذا هو نفس ما كنا نقوله لأنفسنا وقتذاك ، فما أجبرنا على احتمال سوء الضو ، الا لأننا لم نجد ما هو خير منه .

كان الضو على حد قولهم ، يبيع فينا ويشترى ، وكنا اذ ذاك بالواحات البحرية حوالى عام ١٩٣٩ باحدى كتائب آلاى السيارات الخفيفة وقد احتللنا الصحراء التى تشرف على الواحات من ناحية النقب رقم ١٣ وكانت معنا اذ ذاك بعض وحدات المدفعية والدبابات ، التى انتقلت الى هناك عقب اعلان ايطاليا الحرب .

ولقد وقع اختيارنا عند الرحيل الى الواحات على العسكرى الضو ، أو على الحاج الضو كما كان يسمى نفسه ، لكى يقوم بمهمة الطبخ لضباط الكتيبة .

أقول ان اختيارنا قد وقع عليه ، ولو أردت التعبير لقلت اننا أرغمنا على اختياره ، فما تقدم لنا أحد من عساكر الكتيبة سواه عندما سألناهم عمن يجيد منهم عملية الطبخ .

وتقدم الضَّو المذكور ، وأنبأنا فى « تقل » أنه كان يعمل طباخا لأباظة باشا ، وعائلة أباظة مليئة بالباشوات ، وليس من باشا منهم الا وعنده على

الأقل طباخ ، ولم يكن من اليسير علينا أن نلف على الأباظية الباشوات لنسألهم واحدا واحدا عما اذا كان أحدا منهم قد استخدم طباخا منذ بضع سنوات يدعى الحاج الضَّو .

لم يكن هذا بالطبع أمرا يسيرا ، وعلى هذا اكتفينا بتصديق صاحبنا ، وقلنا فى أنفسنا أننا حتى لو حذفنا عامل المبالغة من قوله ، فلن يكون أقل من مرمطون عند أباظة باشا ، وفى هذه الحالة سيكون لديه ولو فكرة بسيطة عن الطعام ، ولا بد أنه سيتعلم الطبخ بمضى المدة .

وعلى هذا سلمنا زمامنا من حيث الطعام ، وبدأ الضَّو يجرى فينا تجاربه ، كأننا أرانب فى معمل .

وبعد بضع أكلات ، اتضح لنا أن الضو هذا قد يكون حقا اشتغل عند أباظه باشا ، ولكنه قطعا لم يكن طباخا ، ولا مرمطونا ، ولا سفرجيا ، قد يكون اشتغل « سايس » ، سائقا لسيارة ، سكرتيرا ، أى منصب ، عدا المناصب التى لها صلة بالطعام ، اللهم الا فى حالة واحدة ، وهى اضراب أباظة باشا عن الطعام .

وبمضى المدة ، وبطول المكث بين الحلل والكوانين ، حصل الضو على بعض الدراية فى فن الطبخ ، أو قل ان بطوننا اخشوشنت واعتادت شظف العيش ، كما يعتاد الانسان كل سوء يطول به ، وأضحينا أشبه بالحواة الذين يبلعون الزجاج والزلط .

أقول اننا اعتدنا سيئات هذا الضو ، وبدأنا نستسيغ طعامه الا أمرا واحدا ، وهو اصراره على خلط الطعام بالجاز .

« ياسى ضو حرام عليك كفاية جاز بقى » .

هذا هو الرجاء الذى كنا نسوقه اليه عقب كل أكلة . ولما وجدنا أن رجاءنا لم يلق منه أننا مصغية ، حاولنا أن نسوقه اليه فى صورة أخف على نفسه فقلنا له :

« طيب بلاش تشيل الجاز خففه شويه » .

ولا هذا أيضا .

« طيب ممكن تجيب الجاز فى سلطنية لوحده ، واحنا نرشه هنا على الأكل ؟ » .

أبدا ، انه لم يكن لديه أية ثقة فينا .

وفى ذات يوم أعلنا الثورة ورفعنا راية العصيان ، وكان أول من وضع بذورها ونادى بسقوط الضو ، هو أنور البارودى ، الذى جلس الى عقب تناول احدى الأكلات وقد أطرق برأسه وبدا عليه الوجوم والتفكير ، ثم رفع رأسه وقال فجأة :

– اسمع .

– نعم .

– ما الذى يجبرنا على الصبر على كل هذا الأذى واحتمال كل ذاك الضيم ؟

ماذا تقصد ؟ .

– أقصد ما الذى يجعلنا نحتمل هذا الخنزير الذى سمم أجسادنا بالجاز والرمل .

– ومن الذى يطبخ لنا غيره ؟

– لا أحد ، نحن نطبخ ، هل تظن أن الطبخ عملية شاقة ؟ انها أسهل مما تتصور ، ان الأمر لا يستلزم منا سوى شىء من الجرأة ، ما رأيك فى أن نطرده ، ونبدأ الطبخ من الغد ؟

وكنا فى رمضان والنهار أمامنا طويل ولا شىء يمنعنا من اجراء التجربة ، فلعلها ناجحة ولعلها تنقذنا من نير الضو .

وفى الصباح ، تحرك البارودى الى خيمة المطبخ ، ونادى على الضو ، فخرج اليه صاحبنا بوجهه اللامع الممتلىء وقد علت وجهه ابتسامة الرضا وبدأه بالتحية قائلا بدون تكليف :

– صباح الخير يا فندم .

وأشار البارودى بأصبعه الى حيث خيام العساكر وقال :

– على الأورطة .

ولم يكن الضو قد ظن شرا اذ لم يخطر على باله قط أننا نستطيع أن نستغنى عنه فسأل البارودى ببساطة :

– حضرتك تريد شيئا من الأورطة ؟

– أريدك أن تذهب الى الأورطة ولا ترينا وجهك أبدا .

ولم يخف على الضو أن هناك مؤامرة قد دبرت ضده فهز رأسه وأجاب :

– حاضر يا فندم ، مفيش مانع أبدا .

وفى الساعة العاشرة أحضرت التعينات وكانت تصرف للضباط وقتئذ نفس تعيينات الجنود ، وكان الخضار فى ذلك اليوم : قرعا ، أو على الأصح قرعة ، فقد كان كل ما أحضر لنا فى خيمة المطبخ هى قرعة ، وحيدة ، ولا أشك أن أى قارىء – غير عسكرى – سيتساءل فى دهشة : « قرعة » واحدة لكل ضابط الأورطة ؟ .

ولست أشك أيضا فى أن أى قارىء عسكرى ، ممن أبصروا خضار الجيش المصرى ، سيتساءل فى دهشة كذلك « قرعة بأكملها لضباط أورطة ، لا ، لا ، هذه مبالغة ! » .

والواقع أنها كانت .. قرعة وافية .. لا تقل بحال من الأحوال عن الشمامة .. الضخمة .. ونظر الى البارودى ونظرت اليه (ولم يكن هناك

غيرنا من يعلم بالمؤامرة التى دبرناها لطرد الضو) .. ثم نظر كلانا الى القرعة الشبيهة بالقتيل وتساءلنا فى نفس واحد : « ماذا سنفعل بها ؟ » .

وفكر البارودى برهة ثم قال ببساطة :

– نعملها صينية .

– صينية قرع ؟ .

– ولم لا ، ألم تأكل فى حياتك صينية بطاطس ؟ .

– صينية بطاطس ، أى نعم أكلت ، ولكن صينية قرع ؟ !

– وما الفرق بين البطاطس والقرع .. هل سترفض القرعة أن تعمل صينية ؟

ونظرت الى القرعة السمينة ، ولم يبد لى أنها يمكن أن ترفض أى شىء فقلت له :

– لا .. لا أظنها سترفض .

– انتهينا .

– ثم أمسك بالقرعة فى يده وقال :

– عليك التقشير ، وعلى التخريط .

ووجدت أنه سيبدأ فى « استكرادى » من أول الأمر فان عملية التخريط أسهل مائة مرة من التقشير فقلت له :

– لا ، بل عليك أنت التقشير ، وأنا على الباقى .

وفكر البارودى برهة ثم قال :

– اسمع سنحضر الضو لتقشيرها ، ثم نطرده بعد ذلك .

وحضر الضو فقام بتقشير القرعة ، وقد بدت عليه علامات الشماتة ،

وعندما انتهى من التقشير أشار له البارودى أن يعود من حيث أتى .

وبدأنا فى تخريط القرعة فى احدى الصوانى ، ثم خرطنا الطماطم فوقها ووضعنا فوق الخليط كمية لا بأس بها من البصل ثم حشرنا اللدمة فى جوف الخليط ، وصببنا فوق كل ذلك ما يقرب من رطلين من السمن .

وفرك صاحبى كفه وبدت عليه علامات الغبطة والارتياح ثم قال متفاخرا :

– ألم أقل لك ؟ هذه هى كل الشغلانة ، ليس هناك أبسط منها ولا أسهل .

وأشعلنا وابور الجاز ووضعناه أسفل الفرن الصاج الأسود الذى أحضرناه معنا من القاهرة لمثل هذه الطوارىء وهممنا بوضع الصينية داخله ، ولكننا توقفنا فجأة وقلت لصاحبى :

– الملح ؟ لقد نسينا الملح ، وكدنا نشمت فينا الضو .

– آه ، لقد ذكرتنا ، تصور أننا كنا على وشك أن نفسد الطبخة

– كما يقولون – لأجل « شوية » ملح . أين الملح ؟

– لا أظن أن الملح وحده يكفى ، بل لا بد من التوابل الأخرى ، حتى تعطى الصينية طعما ونكهة ، لا بد من الفلفل والكسبرة والكمون والبهارات ، ففى هذه الأشياء البسيطة سر الطبخ .

وألقينا نظرة على صف العلب المرصوصة فوق المنضدة وقال صاحبى :

– أظن أن هناك أصناف معينة من التوابل تلائم الصوانى ، ويتحتم علينا أن نعرف بالضبط ما هى الأصناف التى تلائم القرع ، والا فسدت الصينية ، ثم لا تنس أنها لا توضع الا بنسبة معينة وكميات محددة .

وبدت لنا مسألة وضع التوابل مشكلة عسيرة ، ولم نر خيرا من أن

نرسل الى الضو نسأله - دون أن يحضر - عن أنواع وكميات التوابل التى توضع فى صينية القرع .

وجاء المرسال يخبرنا أن الضو الخبيث يقول :

- العلب عندهم ، يأخذون منها ما يشاءون ، هى كيمياء ؟

ونظر الى البارودى وتقدم الى العلب وعليه سيماء من نوى أمرا جللا وقال :

- دعك منه ، خليها بالبركة ، وربك يستر .

وبدأت التوابل تتدفق على الصينية بغير حساب ، هذه كسبرة ، وهذا كمون ، وهذه مستكة ، وهذا حبهان ، فلفل أسود ، فلفل أحمر ، كله خير كله بركة .

وأخيرا دخلت الصينية الفرن تتهادى باسم الله حافظها ومنضجها .

وجلسنا بجوار « المحروسة » ننتظر نضجها ، وبعد خمس دقائق فتح البارودى الفرن ليرى ما تم بها .. فوجدها بالطبع كما هى .

وأصابنا الملل ونحن جالسين أمام الفرن نفتحه كل دقيقة فنجد الصينية كما هى ، ونظر البارودى الى وقال مستشيرا :

- ما رأيك فى أن نحضر الضو ليجلس - فقط - أمام الصينية ؟

- فكرة طيبة بشرط أن يجلس على الحياد فلا يتدخل قط فى شئون الصينية .

وأحضرنا الضو ، وذهبنا الى خيمتنا وجلسنا نتسلى بالقراءة ، وبعد نصف ساعة ذهبنا لنرى ما تم فى أمر الصينية وفتحنا الفرن ونظرنا اليها فاذا بها خضراء من غير سوء .

وهز صاحبى رأسه فى دهشة متسائلا :

- لماذا لا تستوى ؟ .

ثم نظر الى الضو فى غيظ وهمس الى :

- يخيل الى أن الخبيث يرفع الوابور من أسفل الصينية عندما تذهب ثم يضعه ثانية عندما يحس بنا .

ونظرت الى الضو الشامت الساخر والى الصينية الخضراء التى تأبى النضج وقلت له متشككا :

- جائز .. لا أستبعد على الخبيث أى منكر .

وعدنا الى الخيمة وبعد نصف ساعة أخرى ذهبنا نطل على الصينية فاذا بها كما هى ، وأشار البارودى الى خيام العساكر وقال للضو :

- اذهب ولا ترينى وجهك ، والا جنيت على نفسك .

وجلسنا أمام الصينية كأننا أسدا قصر النيل ، والوابور بجوارنا يئز ، والصينية - سامحها الله - لا تشعر ولا تتأثر .

وقرب ميعاد الافطار ، والصينية لم يفارقها الاخضرار وأخيرا سلمنا أمرنا لله وخرجناها فأدهشنا أنها استوت رغم أن لونها لم يتغير ، واعتبرنا الأمر حدثا فى عالم الطبخ .

ودق المدفع وأقبل الضباط على خيمة الأكل ، وفوجئوا بالصينية تتوسط السفرة ، وجلست أنا والبارودى نفرك أيدينا وقد كسونا وجوهنا علامات التواضع وانكار الذات وقلنا ببساطة : « نحن الذين عملناها » .

ونظر الينا على مقلد قائد الكتيبة بعد أن تذوق اللقمة الأولى ثم قال فى حسرة :

- والله عملتوها .

وذقنا الصينية واذا بعنصر الجاز متوفر فيها كل التوفير .

وتبادلت أنا والبارودى النظرات .. نظرات الندم على أننا تركنا الضو ينفرد بالصينية .

ولكن هل ترى الضو حقا ، قد انتهز فرصة خلوه بالصينية فصب عليها الجاز ؟ .

لا نظن فقد كان الضو مظلوما .. ولم نكتشف أنه مظلوم ، الا عندما فرغت صفيحة السمن ، وأحضرنا صفيحة جديدة ، فانقطع الجاز ، لقد كانت صفيحة السمن الأولى هى منبع الجاز فقد كان سمنها مخلوطا به ! ! .

وعندما كانوا يسألوننا بعد ذلك ما الذى يجبركم على احتمال سوء الضو ! ! كنا نجيب : ما هو أسوأ منه .

ولم يكن هناك أسوأ منه .. بل أسوأ من أى شىء على وجه الأرض سوى « صينية القرع » .

★ ★ ★

فى سبيل الكلب

هذه القصة يقصها علينا طفل فى السادسة من عمره ، فيحملنا بها الى دنياه .. دنيا قد نراها الآن تافهة ولكننا لا نستطيع أن ننكر أننا قد عشنا فيها أو فيما يشابهها زمنا رغدا .. زمنا ليت الليالى التى أمضته ترجعه ...

كنا نجلس فى مخبئنا السرى - أنا وأخى الأكبر - وهو عشة من البوص على شاطىء النيل كانت تستعمل مصلى قبل أن يبنى المسجد الجديد - وقد نشر أخى أمامه صورة كلبين أحدهما رابض والآخر مضطجع ، وكان قد قطع الصورة من احدى المجلات . ونظر الى أخى متسائلا :

- ما رأيك ؟

فأجبته وأنا أحملق فى الكلبين بنظرات معجبة :

- رائعان !

- وسادت فترة صمت كان أخى ينصب خلالها بأذنيه كأنه يتسمع شيئا ثم قال :

- يخيل الى أن هناك من ينادينا .

ثم طوى الصورة بعناية ونهض قائلا :

- لابد لنا أن نخفى الصورة والا رآها أبى .. أين تظننا نخفيها ؟

ولم يترك لى فرصة الاجابة بل أردف قائلا :

- سأخفيها فى حذائه .

ونظرت اليه فى دهشة وقلت له معترضا :

- ولكن .....

ولكنه لم يدع لى فرصة الحديث اذ كان يستطيع التحدث أسرع منى ، وكانت كل محاولة فى مناقشته تذهب سدى ، لقد كان فى التاسعة وكنت فى السادسة ، واستمر يقول :

ليس لدينا مكان آخر ، حذاؤه هو المكان الوحيد .

وتخيلت حذاء أبى .. ثم تخيلت أبى نفسه ، وأحسست برعب لمجرد التخيل ، وهززت رأسى بشدة ولكنه قال :

- لا تكن أبله . فأنت تعلم أنه لا يرتديه الا فى المولد . أو عند مقابلة الحكام ، وكلاهما نادر .. سأعطيك الصورة لتتولى أنت اخفاءها فى الحذاء .

ولكنى هززت رأسى مرة أخرى . لقد كنت أكره أن القى بيدى الى التهلكة ، وكنت أرى فى المسالة جرمين : أحدهما ادخال صورة كلاب فى الدار ، والثانى العبث بحذاء أبى .. فالعقاب مضمون .. لأن أبى لا يحرم مذنبا ولا يغفر خطيئة . لقد كان رجلا ضخما يطأطىء رأسه عندما ينفذ من أى باب ، وكانت أمى تقول عنه أنه طيب القلب ، ولكنى لم أك أصدقها لأنى ما رأيته كذلك قط ، وكيف أراه طيبا وقد خصص لنا عصا لتأديبنا اذا أخطأنا .. أو اذا خيل له أننا أخطأنا .

وعندما عدت الى الدار ، ذهبت الى أبى وقلت له :

- نريد كلبا .. أنا وأخى .

ورفع الى رأسه فى دهشة وقال :

- ماذا تريد أن تصنع به ؟

ولم أعرف بم أجيب ، ووقفت أمامه صامتا ، وأخيرا تكلم هو قائلا :

- لا فائدة فى الكلاب ... انها لا تؤكل ولا تشرب .

وعدت الى أخى الذى وثب من فراشه وسألنى متلهفا :

- ماذا قال لك ؟

لقد قال انها لا تؤكل ولا تشرب .

وهنا دخلت أمى ، فقلت لها اننى لا أحب أبى ، فوضعت أصبعها على فمها محذرة ، وقالت :

ان الأطفال يجب أن يحبوا آباءهم .

وهل كان الآباء فى رداءة أبى ؟ !

انه ليس رديئا ، هو فقط لا يفهم عقلية الأطفال . هيا الى الفراش .

وغادرت الغرفة ، وسمعتها تتحدث الى أبى بصوت لم أميز منه الا بضع كلمات « انهم أطفال ، ولابد لكى تفهمهم أن تفكر بعقلهم » ، ولم أفهم معنى ما تقصد ، ولم أهتم بذلك كثيرا ، فقد كانت هناك أشياء كثيرة لا أستطيع فهمها .

واضطجعت على الفراش بجوار أخى ، وسمعته يقول كأنه يحدث نفسه :

- الكلاب لا تؤكل ولا تشرب ! ! والله لو أحضرنا كلبا ! لأكله وشرب دمه ... ! إنه رجل مخيف ! !

ومرت فترة طويلة دون أن أنام فقد كنت مستغرقا فى التفكير ، وأخيرا سألت أخى :

- أتظنه يأكله كله ؟ بجلده ؟

وكان أخى قد أغفت عيناه ، فأجابنى وهو نصف نائم :

يأكل ماذا ؟

- الكلب .

- لا ... لا أظنه حقيقة من آكلى الكلاب . نم . نم . دعك منه .

ومرت بضعة أيام بعد ذلك .. فى ذات يوم عاد أخى من المدرسة فقذف بكتبه الى المائدة ثم أشار الى أن اتبعه ، ودلفنا سويا الى حجرتنا فهمس فى اذنى :

- أين أبى ؟

- لقد خرج .

- الى أين ؟ ألا تعرف ؟

الى المقهى أو الجامع .

- اسمع .. لقد حصلت على شىء عجيب جدا . ماذا تظنه ؟ .

وهززت رأسى متسائلا ، فاقترب بغتة من أذنى ثم همس قائلا :

- لقد حصلت على طفل .

- طفل ! ؟ طفل حقيقى ؟

- أجل ... أجل ... لقد وضعته فى العشة على الشاطىء وسنتسلل الآن الى هناك .

- ولكن كيف حصلت عليه ؟

- لقد عثرت عليه .

- وهل هو ملكنا الآن ؟

ملكى أنا ، ولكنى سأعيرك اياه فى غيبتى عنه .

وعدونا الى العشة ، وهناك وجدنا الطفل يبكى فرفعه أخى بين ذراعيه ، ونظرت اليه وقد تملكنى الاعجاب وقلت فى دهشة :

- انه طفل حقيقى ! !

ثم وجهت الحديث الى الطفل أسأله :

- كيف حالك ؟

ولكنه لم يجبنى بكلمة ، فقلت فى نفسى ربما كان أبله ، أو أصم لا يسمع ، ولكن أخى أخبرنى أنه لم يتعلم الكلام بعد ، وأنى كنت مثله فى يوم ما .. فلم أصدقه لأنى لا أذكر أننى كنت لا أستطيع الكلام يوما .

وطلب منى أخى أن أجلس بجوار الطفل حتى يذهب الى الدار فيسرق له قليلا من اللبن ، كما طلب منى أن أغنى له اذا بكى ، فقلت له :

- هذا هين ، وسأغنى له حتى ولو لم يبك .

وذهب أخى ، وجلست الى جوار الطفل وتبادلنا النظرات ، وسألته عن اسمه ولكنه لم يجب بكلمة ! ! وخطر لى أن أحمله بين ذراعى كما فعل أخى ، وحملته فعلا ، ولكننى سمعت وقع أقدام آتية من الخارج فوضعته جانبا وجلست بجواره ، وأحضر أخى اللبن فجرعه الطفل بنهم ، ثم طلب منى أن أعود الى الدار حتى لا تقلق والدتنا .

وعدت الى الدار فوجدتها جالسة ترتق بعض ثياب أبى فسألتها قائلا :

- عندما كنت طفلا .. أكنت حقا لا أتكلم ؟

ونظرت الى فى شىء من الدهشة وهزت رأسها بالايجاب فعدت أسأل :

- تماما كالقطط والكلاب ، وبقية الحيوانات ؟

- فأجابت ضاحكة :

- أجل ... مثلها تماما .

ولكن الطفل خير من القطة ، ومن الكلب أيضا .

وبعد فترة وجيزة أقبل أخى ، فتناولنا العشاء وذهبنا الى الفراش ، وكان رأسى مشغولا بالطفل ، وبما أنوى أن أفعله معه ، وأى اسم سنطلقه عليه ، ولم يكد يستقر بنا المقام على الفراش حتى سألت أخى :

- بماذا نسميه ؟

فدفعنى أخى بيده قائلا :

- اخفض صوتك والا سمعونا .

فكررت السؤال فى صوت هامس ، ولكنه أعلى من الصوت الأول ، فأجابنى بقوله :

- لم افكر بعد ... هل تقترح شيئا ؟

- « بوبى » .

- لا تكن غبيا ... ان هذا اسم كلب .. انى أرى ان نسميه « عادل » .

- « عادل » اسم لا بأس به ، ولكنى أفضل اسم « بوبى » ! ! .

- قلت لك ان هذا اسم كلب ... فلا تكن عنيدا ... ثم لا تنس أن الطفل طفلى ، وأنى حر فى أن أسميه كما أشاء .

وسمعنا صوت أبى وأمى يذهبان الى الفراش ، وأطفىء النور وساد السكون الدار ، فنهض أخى من الفراش وهمس فى أذنى :

- سأذهب الى الطفل لألفه باحدى الفوط وأنومه .

- أتعرف كيف تنومه ؟

- أجل .. انى أذكر ما كانت تفعله أمى معك قبل النوم ، عندما كنت فى مثل سنه .

وكان أخى يذكر عنى كل شىء وأنا طفل . أما أنا فكنت لدهشتى لا أذكر عنه شيئا ! .. لقد كان لا شك أكثر ذكاء ، وبعد هنيهة أبصرته يقفز من النافذة ، بعد أن أنبأنى أنه سيعود قبيل الفجر .

وفى اليوم التالى كان أبى وأمى يظنان أن أخى قد ذهب الى المدرسة كعادته ... ولم يعلما شيئا عن بقائه طيلة اليوم فى الكوخ بجوار الطفل وكان متعبا ، بعد أن قضى الليل طوله على الأرض ، وقد أزعجه الطفل بكثرة بكائه ، الى أن اضطر الى السكوت والنوم ، وقد نال منه التعب والاعياء .

وقضينا يوما لطيفا مع الطفل ، وقد تبين لى أن له ثلاث أسنان ، وبدا لى أنه يستطيع الوقوف ولكنه لا يرغب فى ذلك بدافع من الكسل والخمول .

ومضت الليلة التالية كسابقتها ، وفى الصباح أنبأنى أخى أن رأيه قد استقر على أن يحضر « سوسو » لكى تتولى أمر الطفل .. فهى ولا شك أقدر منا على تولى أمره والعناية به ... فهى امرأة والنساء أدرى من الرجال بهذه الأمور ..وهى على أية حال لابد أن تتدرب من الآن على ذلك .. ولا شك أنها ستسر كثيرا بالطفل .... فهو طفل « جاهز » لم تتعب فى حمله ولا وضعه .

وكان أخى كثيرا ما يحدثنى عن سوسو .. وهى ابنة جيراننا فى حوالى الثامنة ، وكان يخبرنى أنه ينتظر حتى يتخرج من المدرسة فيشترى طائرة ليطيرا سويا الى بلاد بعيدة .... وأنبأنى أنها لم تمانع فى الفكرة ، بل رحبت بها .. وقد سألته أن كان ينوى أن يأخذنى معه فوعدنى خيرا .

وبقيت مع الطفل حتى ذهب أخى وأحضرها ، ووقفت تنظر الى الطفل فى دهشة ثم أقبلت تربت عليه وحملته فى رفق متسائلة :

- أهذا هو ابننا ... ؟ انه جميل جدا .. انه يشبهك كثيرا .. ما اسمه ؟

فقلت فى عجلة :

- بوبى ! !

فنظر الى أخى شزرا ثم قال بلهجة تشبه كثيرا لهجة أبى :

- يا لك من حمار ! ! قلت لك ان هذا اسم كلب .

ثم التفت اليها قائلا :

اسمه عادل .

وكانت سوسو فى تلك اللحظة تصلح للطفل ثيابه ، فنظرت الينا نحن الاثنين شزرا وقالت بنفس لهجة أخى :

- يا لكما من حمارين ... ! ! انه بنت .

ثم أقبلنا على الطفل نتبينه فاذا به حقا بنت .

ونظر الى أخى قائلا بعد برهة :

أذهب وأحضر اللبن .

فانطلقت أعدو الى الدار ، وفى الطريق أبصرت جماعة من أهل البلدة بينهم شيخ البلد وقد ساروا كأنهم يبحثون عن شىء .. فلم آبه لهم وانطلقت فى طريقى ، وعندما وصلت الى الدار وجدت أبى قد وقف بالباب وأمامه أحد مدرسى المدرسة وسمعته يقول له :

– أجل ... منذ يومين .. اليوم وأمس .. لم نر له وجها .

ونظر الى أبى نظرة أوجست منها خيفة ، وسألنى :

– أين أخوك ؟

على الشاطىء .

قل له أن يحضر .

وانطلقت الى أخى أسوق اليه النبأ ، ورأيت الاصفرار قد علا وجهه ، ثم التفت الى سوسو قائلا :

– ابقى مع الطفل حتى أعود .

وعندما التقينا بأبى أمسك بيد أخى وسحبه الى مخزن الحبوب وبعد برهة عاد الينا وحده وسألته أمى :

– أين الولد ؟

– لقد حبسته فى الحاصل .. انه يأبى أن يقول أين كان فى خلال هذين اليومين ، وسيبقى هناك بلا طعام حتى يقول الحق .

وحاولت أمى أن تعترض ، ولكنه أسكتها بنظرة صارمة ...

وفى المساء تعشيت وذهبت وحدى الى الفراش ، وقد شغلنى التفكير فى أخى وسوسو والطفل ، ولم أكد أحس أن أبى وأمى قد ذهبا الى فراشهما حتى قمت الى النافذة وقفزت منها ، فسقطت على ركبتى وأحسست بالدماء تسيل من أحداهما

وسرت أتلمس طريقى فى الظلمة الحالكة ، والخوف يتملكنى وخيل الى أنى أبصر أشباحا تتراقص أمامى ، ولكنى حاولت أن أهدىء نفسى ،

ووصلت الى الحاصل وصحت أنادى أخى فى صوت هامس مبحوح ، فأجابنى أخيرا ، وسألنى أن أذهب الى الشاطىء لأرى ماذا فعلت سوسو بالطفل ، وحاولت أن أتقدم ، ولكنى رأيت شيئين يبرقان فى الظلمة لم أشك فى أنهما عينا عفريت مخيف ، وتسمرت قدماى فى الأرض وقلت لأخى أنى أبصر أمامى عفريتا وسألته ماذا أفعل ، فأجابنى بأننى واهم ، ولكنى أكدت له أننى أبصره هناك واقفا فى نهاية الطريق .

وصمت أخى برهة ، ثم طلب منى أن أعود الى الدار وأخبر أمى .. ولكنى رأيت العفريت يقترب منى فصحت مستنجدا وأخذت أعدو أمامه وهو يتبعنى حتى وصلت الى الشاطىء وهناك وجدت سوسو قد وضعت الطفل على ساقيها وأخذت تربت عليه وتغنى له ... ثم سألتنى عن أخى فقلت لها ان أبى قد حبسه .. ولكنى لم أكد أتم قولى حتى أبصرت أخى قد أقبل علينا يلهث فقد استطاع أن يقفز من نافذة الحاصل .

وفى نفس اللحظة سمعنا فى الخارج وقع اقدام كثيرة وأصواتا تتحدث ، ثم أبصرت حشدا من الناس يقتحم « العشة » ... واستطعت أن أميز على ضوء المصباح الذى حمله أحدهم أنهم أولئك الجمع الذين كانوا يبحثون عن شىء ، وكان معهم بعض رجال الشرطة .

وأمسك أحدهم بالطفل يحتضنه وساقونا أمامهم الى العمدة ، وهناك وجدتهم قد تكاكأوا على أخى وخيل الى أنهم يتآمرون على ارساله الى السجن ، وتسللت من بين الجمع وهممت بأن أعدو الى الدار لأخبر أبى ، ولكنى تذكرت العفريت ... فعدت الى سوسو وهمست فى أذنها بأن تذهب فتخبر أبى .

ورأيت الشرطى قد أمسك أخى فهجمت عليه وضربته بقبضة يدى ، وصحت فى الجميع ان هذا الطفل هو طفلنا ، ولكنهم لم يحسوا بى واستمروا فى نقاشهم وهرجهم .

وفجأة لمحت أبى بجسمه الطويل قد أقبل فى الظلمة ، وبجواره سوسو تعدو الى جانبه ، وسرى بين الجميع الهمس ووقف الشرطى مكانه وبدا لى جليا أن الجميع كانوا يخشون أبى تماما كما نخشاه ... لقد كان رجلا مخيفا .

وأقبلوا عليه يحيونه باحترام ثم سلموه أخى ، ورأيتنا نعود أدراجنا دون أن نأخذ الطفل فقلت لأبى :

- أننا لم نأخذ طفلنا .. ان أخى هو الذى وجده ، وهو ابنه ، هو وسوسو . ولكنه جذبنى من يدى ودفعنى أمامه ...

ولم نسر عدة خطوات ... حتى لمحت أمرا جللا ، واكتشفت شيئا خطيرا .

لقد كان أبى يرتدى الحذاء ! !

وقرصت أخى ... وأشرت الى الحذاء .. فعلت وجهه علامات الذعر وبدا عليه كأنه ينوء تحت حمل من المصائب ، وأنه قد أضحى فى حالة يأس .

ودخلنا الى الدار واقبلت أمى تحتضن أخى .. ولم ينبس أبى ببنت شفة ، ولكنى لم أشك فى أنه قد أعد لأخى عقابا خطيرا .. فقد كانت الجرائم متعددة : غياب عن المدرسة ، وسرقة الطفلة ، وأخيرا صورة الكلاب التى لاشك فى أنه اكتشف وجودها فى الحذاء .

ودلفنا الى حجرتنا فى سكون ، وربت على ذراع أخى وقلت له أهدىء من روعه :

- لا تخش شيئا .

انى لا أخشى شيئا .. لأنه لن يستطيع أن ينالنى بسوء .. سأهرب من الدار ولن أعود أبدا .. فلست من الحمق حتى أنتظر لكى أموت من الضرب .

- اذن سأسافر معك .

- حسنا سوف ندبر أمرنا معا .

- وسأطلب الى أمى أن تفر معنا أيضا .

- لا تكن أحمق ... اياك ان تذكر لها شيئا عن ذلك .

ولكننا لا نستطيع تركها وحدها .

اذن ابق أنت .

وفى تلك اللحظة سمعت صوتا عجيبا لم أعتد سماعه من قبل .. سمعت أبى يضحك ! !

وأرهفنا السمع مشدوهين ، ولكنه كان يضحك فعلا ... وسمعناه يقول لأمى .

ألم ترى ابنة ابنك ؟ لقد أصبحت جدة .. اتذكرين عندما كنت طفلة .. وكنت تحملين الوسادة على كتفك وتدعين أنك قد أنجبت طفلة .. وتطلبين منى أن أحضر لها اللبن ، لقد كان ابنك خيرا منا فقد سرق طفلة حقيقية وأعطاها لسوسو .. لقد أنجبا طفلة جاهزة ، أتذكرين ذلك الزمن ؟

وسمعت أمى تجيب ضاحكة :

- ليت الليالى التى أمضته ترجعه .

ثم سمعنا صوت قبلة ... وأردف أبى يقول :

- لقد وجدت فى الحذاء هذه الصورة .

وهنا أحسست برجفة .... وخيل الى أنى أستطيع أن أسمع دقات قلبى ، وسمعت أبى يقول :

- أخبريهما بأنى سأحضر لكل منهما كلبا ، على ألا يعبثا بالحذاء بعد ذلك .

وقفزت الى أخى أحتضنه ... وأخذنا نرقص فى الحجرة .....

★ ★ ★

مُنتهى الفناء

هنا أضع ألحانى .. هنا يهبط الوحى .. وسط ذلك الصمت المخيم والسكون السائد ، وبين أضواء الشموع الذائبة المرتجفة .. هنا فى هذه الأغوار السحيقة والدياجير المعتمة التى تبدو كأنها أعماق الأبدية اللانهائية .

لى صديق سيريالى ...

ومنذ أن سمعت بمبدأ السيرياليزم .. وشاهدت بعض الرسوم السيريالية ، أيقنت من أن صاحبى هذا لابد مندفع الى أحضان السيريالية ، متبوىء عرشها فى أقرب حين بلا شريك ولا منازع .

وصاحبى فنان أصيل .. فنان جوهرا ومظهرا ، أو هو صورة نموذجية لفنان لا أكاد أقارن به نفسى ، حتى أقتنع تماما أنه ليس بى من سمات الفنان شىء ، وانى مخلوق طبيعى مادى جامد بارد خلو من كل ما يميز عبيد الله الفنانين .

وأذكر ذات مرة ؛ أنى ذهبت لزيارة رجل كبير محترم من أهل العلم والعرفان ، وجلس الرجل يرحب بى مقدما لى علبة سجائره قائلا :

- سيجارة ؟ !

- أشكرك جدا ، أنا لا أدخن .

- عجيبة ! اذاً أحضر لك قهوة ؟ !

- ولا أشرب قهوة .

- شاى اذاً ؟

- ولا أذوق الشاى .

وضحك الرجل وغمز بطرف عينيه وقال متخابثا :

- لو كان عندى كأسا من الوسكى لأتحفتك به ، لأنه يعز على أن تزورنى ولا أقدم لك شيئا .

- أنا لا أذوق الخمر .

- مدهش .. لا سجاير ، ولا قهوة ولا شاى ، ولا خمرة ، ولا حتى أى مكيف آخر ؟

- أبدا .. أبدا ، انى غير ذى «كيف» ، لاسجاير ، ولاخمر ولاميسر ، ولا ، ولا .

- ما شاء الله ، ما شاء الله . هكذا الاستقامة والا فلا . لابد أنك تصلى وتصوم .

- أبدا ، أبدا .

- لاتصلى ولاتصوم ؟

- ولم أصلى وأنا لا أرتكب ما تنهى عنه الصلاة ؟ ومم أستغفر ربى .. وأنا ما أتيت ذنبا .. انى مخلوق كافى خيرى شرى .. انى منهى عن الفحشاء والمنكر . «خلقة» .

وأغرق الرجل فى الضحك ، وظنها مزحة .

ولكنى فعلا كذلك ، لاسجاير ولاقهوة ولاشاى ولاخمر ولاحشيش ، ولاصلاة ولاصوم ولاشيء أبدا .. أبعد كل هذا أكون فنانا ؟

أما صاحبى .. فقد كان فنانا بمعنى الكلمة .. فهو فوق ارتكابه لسلسلة الأشياء المبينة عاليه ، من خمر ومكيفات وصوم وصلاة .. كان مخلوقا ممعنا فى الغرابة .. مفرطا فى الشذوذ .

وكان صاحبى - ولم يزل بالطبع - موسيقارا من أساطين الموسيقى ومن عمدها فى هذا الجيل ، وكنت قد سمعته وسمعت عنه كثيرا قبل أن ألقاه ، وكنت أميزه دائما بغرابة موسيقاه وطرافة أساليبه ، فهو يكاد يكون بين الموسيقيين نسيجا وحده .

وعندما لقيته أول مرة دعانى الى زيارته فى «المعبد» .

وكان لقاؤه حارا مليئا بالحفاوة والترحيب ، اذ تفضل واعتبرنى فنانا ، رغم خلوى من كل مميزات الفنان ، وعندما سألنى زيارته فى المعبد ، لم يحاول أن يزودنى بأى توضيح عن هذا المعبد ، كانما هو شيء كان لزاما على أن أعرفه .. أو كأن كل انسان له معبد يزوره الناس فيه .

وخجلت من أن أستوضحه ، خشية أن يتهمنى بالجهل ، وخشية أن يعرف أنه ليس لى معبد ، لأنه لو كان لى معبد ، لما سألته عن معبده .

وتركتها تمر ، دون استفسار أو استيضاح .. معتقدا أنها دعوة عابرة ، أو عزومة مراكبية ، وأنه من الخير ألا أكشف نفسى ، ما دمت لن أذهب .

وانغمرنا فى الحديث ، منسجمين تمام الانسجام ، حتى حان وقت الانصراف ومددت يدى أودعه وأخبره بأنى سعيد بلقائه متشرف بمعرفته ، وانى أتمنى أن أراه كثيرا .

وضغط على يدى بشدة ، وقال فى لهجة مصرة مؤكدة :

- أنا منتظر زيارتك للمعبد .

- ان شاء الله .

– اليوم الساعة الثامنة والنصف مساء .

ورأيت الدعوة جادة ، والعزومة مؤكدة ، فبدا على وجهي التردد .. وهممت بأن أعتذر .. ولكنه أردف مؤكدا :

– لن أقبل منك اعتذارا ، لابد من حضورك ، اني أتوق الى أن أجلس معك جلسة طويلة ، وستسرك الجلسة كثيرا . اني واثق من ذلك ، فأنت فنان يلائمك جو المعبد الشاعري الهادىء .. أنا في انتظارك .

وكان هذا بمثابة أمر منه بالحضور ، ولم يكن هناك داع للتردد ، لاسيما وأنه كان انسانا رقيقا مهذبا حلو الحديث ، لطيف المعشر والمحضر .. وأنه لم يكن – فيما عدا مسألة المعبد – يبدو عليه أي مظهر من مظاهر شذوذ الفنانين .. ولاسيما أيضا أنه وفر على حرج سؤاله عن المعبد بقوله من باب الايضاح :

– لن تجد كثير صعوبة في الاستدلال على المعبد فهو كائن في شارع كذا رقم كذا .

ثم بدأ يشرح لي بالتفصيل كيفية الوصول الى المعبد .

ولم أحاول – رغم جهلي بالمنطقة التي يقع فيها المعبد – أن أستزيده ايضاحا فقد كرهت لنفسي أن يبلغ بها الجهل هذا الحد ، وأن أبقى على قيد الحياة في القاهرة ثلاثة وثلاثين عاما ، دون أن أعرف أن في القاهرة معابد .. ولا أسعى لرؤية بعضها .

وفي الساعة الثامنة مساء بدأت السعي للمعبد .. وظللت أدلف من شارع الى شارع .. وكان الحي مظلم مقفر ، يقع في طرف من أطراف القاهرة المجاور للمقابر ، وأخيرا وصلت الى الشارع المطلوب .. وبدأت التنقيب عن النمرة ، ولم أدقق كثيرا في البحث عن النمرة .. اذ كنت أعتقد أن المعبد غرض شهير مميز .. وأنه لابد مسترعي التفاتي وسط غيره من البيوت العادية القائمة في الشارع .

وقطعت الشارع ذهابا وايابا دون أن يلفت نظري مبنى غير عادي وسط البيوت القائمة في الظلمة .. لا مآذن ، ولا قباب ، وأي هيكل ينم عن المعبد .

وهكذا لم أر بدا من التدقيق في البحث عن الرقم المطلوب ... وسرت أقرأ أرقام الدور واحدا واحدا حتى وقفت أخيرا أمام الرقم المقصود .

عجبا ! انه بيت عادي كغيره من بيوت الشارع .

لابد أن يكون هناك خطأ أو لبس ، اذ ليس على البيت أي سمة من سمات المعابد ، ووقفت لحظة مترددا أمام البيت وكان بيتا عاديا مكونا من بدروم ودورين وتحيطه حديقة صغيرة وسور حديدي .

ومددت يدي الى الجرس وضغطت عليه وقلت لنفسي :

– اسأل ....

وسمعت صوتا يصيح من البدروم :

– مين ؟

وهنا وضحت المسألة ولم يعد هناك معنى للتردد ، فقد كان الصوت صوت صاحبي الفنان ، ولم أحاول السؤال بالطبع بل دفعت الباب الحديدي ودخلت أتلمس طريقي في ظلمات الحديقة الى باب البدروم .

وسقط على الضوء الخافت الخارج من الباب ، فاستطاع صاحبي أن يميزني واندفع في سيل من الترحيب الحار قائلا :

أهلا .. أهلا .. يا مرحبا .. تفضل نورت المعبد .

وتفضلت .. ولكني قطع لم أنير المعبد ، فقد استمرت الظلمة الجاثمة في أرجائه والتي لم تفلح في اضاءتها ذبالة الشموع الخافتة .. جاثمة كما هي ... لم تتأثر قط بدخولي .

وتلفت حولي افحص المعبد ... فوجدت نفسي في بدروم عادي خرب ... مظلم رطب . لا يفترق عن أي بدروم آخر . الا في أن صاحبنا الفنان زاد من مظاهر الفقر والخراب ، وأمعن في ابرازها فاصطنع من أعمال

الديكور والزخرف شقوق ظاهرة فى الجدران وتهديم فى الأركان ... واسقاط للبياض فى الأسقف وهضاب ووهاد فى الأرض .. وبين مظاهر الخراب والبؤس هذه وضع أثاث المعبد وهو بيانو فى أحد الأركان ، وعود معلق فى ركن آخر .. ومقاعد ووسائد وأرائك متفرقة هنا وهناك .

وطاف بى صاحبى فى أرجاء المعبد ... طواف معجب متفاخر ... ثم استقر بنا المقام فى احدى الحجرات الرطبة العفنة المظلمة .

ومرة أخرى كرهت نفسى .. فقد أحسست أنى غير فنان .. أو فنان غير أصيل .. اذ لم يصادف المعبد هوى فى نفسى ولم أشعر وأنا جالس وسط هذا الخراب والرطوبة والظلمة بارتياح وانسجام .. ومع ذلك فلم أكن أملك الا أن أوافق صاحبى على أعجابه وطربه .. فان خجلى يدفعنى دائما الى أن أكون منافقا كبيرا .

قال صاحبى :

– هنا أضع الجانى .. هنا يهبط الوحى .. وسط ذلك الصمت المخيم والسكون السائد وبين أضواء الشموع الذائبة المرتجفة .. هنا فى هذه الأغوار السحيقة والدياجير المعتمة ، التى تبدو كأنها أعماق الأبدية اللانهائية .. هنا فى هذا المعبد الملىء بالسحر والطلاسم .

وهززت رأسى وقلت موافقا وأنا أزج فى قولى ببعض مترادفات الأبدية واللانهائية والدياجير :

– أجل ! أجل ! ان سحره عجيب ... أنه يبدو كأنه كهف الأقدار يمتد من بطون الماضى الى وهاد الأبد .

وطال بنا الحديث فى كهف الأقدار بين الأغوار والدياجير والماضى والأبد .. حتى حان وقت انصرافى فودعته وانصرفت .

تلك كانت المرة الأولى لزيارته ، وطالت بنا الفرقة حتى التقيت به أنا وصديق لى ذات مرة فى احدى المحلات العامة فأصر على أن أزوره فى تلك الليلة أنا وصاحبى .

ورحبت بالدعوة فقد كان – كما سبق لى القول – انسانا لطيفا ... وكانت جلسته محببة الى نفسى .. وكان صديقى هذا يتوق الى رؤية المعبد بعدما حدثته عنه .

وقصدت الى الدار .. ولم يطل بى البحث عنها هذه المرة وسرعان ما وقفت وصاحبى أمام الباب الحديدى أدق الجرس .

ولم يجبنى الصوت من البدروم هذه المرة ، فقد كان معتما لا يبدو به بصيص ضوء ، بل أجابنى صوت الفنان من احدى نوافذ السلاملك وهتف بى مرحبا :

– أهلا وسهلا .. تفضل .

وانتظرت أن يهبط من السلاملك ليقودنى الى المعبد ، واتخذت طريقى الى بابه ، ولكنه نادانى بصوته الجهورى :

– اطلع هنا ... ان المعبد به بعض التصليح ولا يصلح لاستقبال الزائرين .. تفضل .

وسحبت صديقى من يده وسرنا نتلمس طريقنا وسط الظلمة الى باب البيت ، وقبل أن نصل الى الباب أضىء نور السلم وبدا على ضوئه مدخل البيت أنيقا نظيفا ليس به شىء من قفر المعبد وخرابه .

ودلفنا من الباب الى الفناء الداخلى .. فوجدنا السلم الرخامى يتوسطه وقد بدا نظيفا لامعا .. وبدت الجدران مطلية بالزيت ومحلاة بالنقوش .. والمدخل كله ينم الروعة والفخامة والنظافة ... الا من شىء واحد أثار دهشى وبدا نشازا فى المدخل الفخم .. وذهب بكل ما به من نظافة وأناقة .

فى باطن السلم ، أو ما يسمونه « بير السلم » وجدنا كوم من الحجارة والزلط والأتربة والردش كأنها بقايا جدار مهدوم أو أثار عمارة .. وفى وسط الكوم المترب ووراء جدار السلم قام جذع شجرة جاف مقلحف ملىء بالفروع اليابسة والبراعم المنكمشة .

ونظر الى صاحبى وهز رأسه أسفا وقال :

– أنظر الى الخدم والبوابين ، ماذا كان يضيره لو رفع هذه القاذورات وألقى بهذا الحطب فى الحديقة .. بدل أن يتركه هكذا مشوها مدخل البيت .

وقلت موافقا :

– منتهى الاهمال .

وصعدنا الدرج وأنا آسف على اهمال البواب وقذارته وان كان أسفى يشوبه شيء من الحيرة المستترة والشك الخفى .

ولقانا صاحبى الفنان أمام باب الشقة مهللا مرحبا .. وأخذنا بالحضن ، ثم قادنا الى داخل الشقة ، وهممت بأن الفت نظره الى القاذورات التى كومها البواب فى بير السلم ، لولا ذلك الشك وتلك الحيرة اللذان كنت أشعر بهما .

أجل ! لقد كان يساورنى شك .. ضعيف جدا وبعيد الاحتمال جدا ، الى درجة أننى لم أجرؤ على التصريح به .. ولكنه مع ذلك كان يساورنى .

هذا الشك هو احتمال أن يكون هذا الكوم والحطب موضوع عن قصد وبفعل فاعل .. وأن يكون الفاعل هو صاحبى الفنان .

ولهذا السبب لم أجسر على ابداء أية ملحوظة عنها ... ولا أن أصرح بأى رأى فيها خشية أن أبدو جاهلا وأن أسبب للفنان خيبة وفجيعة .

أى خيبة أمل كان يشعر بها صاحبى الفنان ، لو أنه قد وضعها بقصد معين وخطة مرسومة ، وقلت له عنها انها قاذورات ومخلفات تركها البواب ؟ !

ولذلك آثرت الصمت ، وفضلت أن اتجاوز عن كوم الاتربة والشجرة الجافة وألا أبدى بشأنهما أى سؤال رغم أنهما كانا يشغلان حيزا كبيرا من تفكيرى ، ورغم أنى كنت تواقا الى استطلاع حقيقة أمرهما ، حتى لا أفضح نفسى ، وأخجل صاحبى .

وجلسنا فى صالة أثثت على الطراز العربى ، منخفضة الأرائك .... مزركشة بالصدف ، تناثرت فيها آلات الطرب والموسيقى .

وصفق مضيفى بيديه صائحا :

– أم عبده .

– وأتت أم عبده ، ترفل فى ثوب فضفاض أسود فأمرها بتجهيز القهوة .

ولم تكن تختفى أم عبده حتى قفز من مقعده قائلا :

– ستحضر لك أم عبده قهوة من اليمن .. بن يمنى أصلى ، وسأحضر لكم شيئا من زحله .. زبيب زحلاوى على كيفكم .

وحضرت القهوة مع « أم عبده » وتوسكا ، وهى كلبة كبيرة فى حجم أم عبده ، ثم أحضر هو الزبيب .

ولم يكد يستقر به المقام حتى قفز مرة ثانية قائلا :

– سأحضر لكم شيئا من اليونان .

ثم أحضر لنا بعض قطع من البطارخ .

وبدأنا السهرة .. وطال بنا الحديث ... وكوم الأتربة والشجرة الجافة ما زالت تساور وذهنى .. وتدس بنفسها فى تفكيرى .. والسؤال عنها يتراقص على شفتى .. ويهم بالانطلاق .

وفجأ وبلا سابق انذار .. رأيت صديقى الفنان يميل على ويسأل فى لهجة مليئة بالفخر والكبرياء ، وهو يشير بابهامه الى ناحية السلم :

– أرأيتها ؟

– واستطعت من منظره واشارته وطريقة سؤاله أن أدرك جلية الأمر بوضوح ، وأن أفهم أن تشويه منظر المدخل بالأتربة والحطب من فعل صاحبى الفنان نفسه وليس من اهمال البواب ، وأنها قد أصبحت بناء على ذلك مسألة تستحق التقريظ .

وأجبته بحماس شديد وأنا أميل عليه كما مال على :

– رأيتها .

– وما رأيك ؟

بديعة .. آية فى الابداع .

وكان صاحبى الآخر يتبع المناقشة وقد بدا عليه الذهول ، غير داريا ما هى هذه التى رأيتها آية فى الابداع .

وبدأ الفنان تفسيره قائلا وهو يهز رأسه من فرط الاعجاب :

– انها قطعة خالدة من السيرياليزم . انها شجرة الفناء . الفناء اللانهائى السحيق ، أرأيت الأرضية التى فى أسفلها . انها تمثل القفر والخراب ، وترمز الى التراب الذى يختلط بالرميم ، ومن وسط هذا نبت الجفاف والذبول ، قائم كأنه العظام النخرة . انه تابلوه رائع ، كل شيء فيه موضوع لحكمة ولغرض ، كل فرع جاف يرمز الى شكل من أشكال الفناء ، لو تأملت فيها مليا لأبصرت العجب ، أرأيت هذه الزلطة الموجودة فى الركن أسفل السلمة السابعة ، انها ترمز الى الجماجم الخاوية ، التى كانت كالزلط ، أما الحجرة المقلوبة على جانبها فهى تمثل القلوب التى كانت كالحجر . أما الشجرة نفسها فهى تحتاج الى دراسة طويلة . انها ليست شجرة عادية كما قد يبدو لك . لقد ظللت أبحث عنها مدة طويلة حتى وجدتها أخيرا ملقاة على قارعة الطريق بعد أن أصطدمت بها سيارة مسرعة .

وقضينا الجلسة كلها نتحدث عن شجرة الفناء ، انى أحمد الله الذى من على بالستر فلم أشك له اهمال البواب وتركه القاذورات والحطب فى بئر السلم . وأخيرا نهضنا للانصراف وهو يقول :

– انى أنوى ان أقدمها للعرض فى أول معرض للسير ياليزم .. وانى أقدر لها ثمنا يزيد على الألف جنيه . فلا أظن هناك لوحة يمكن أن تمثل الفناء كما تمثله هى .

وخرجنا من الشقة وبدأنا نهبط السلم وقد وقف هو يودعنا على بسطة السلم .

وفجأة رأيته يفغر فمه ويحملق بعينيه فى بئر السلم ويبدو عليه فزع شديد .

وذهلت ، ولم أملك الا أن انظر الى حيث أخذ يحملق بعينيه ، أعنى فى بئر السلم حيث وضعت شجرة الفناء ، فاذا بى أرى المكان نظيفا أنيقا لا أثر فيه ولا للحطب الجاف ، واذا بمدخل الدار قد عاد اليه رونقه وزالت عنه الغمة .

ولكن صاحبى لم يكن يرى هذا الرأى ، بل كان يعتبر المسألة فاجعة وصاح بأعلى صوت :

– الشجرة ، أين الشجرة ، لقد سطوا عليها اللصوص ، يا عم على ، يا عم على .

وهبطنا نحن الثلاثة بسرعة نبحث عن عم على البواب ، فاذا بنا نجده قد افترش الأرض على باب حجرته ، ووضع أمامه منقدا مشتعلا وأخذ يلقى فيه بين آونة وأخرى بقطعة من الحطب ، وعلى مقربة منه كانت تجثم أشلاء الشجرة وقد حطمها الرجل ليتدفأ بحطبها .

– وهجم صاحبى على ، عم على ، يمسك برقبته ويصيح :

– أيها الجاهل الأحمق ماذا فعلت بشجرة الفناء ؟

شجرة ايه ؟

الفناء .. الفناء .

ووجدت البواب يوشك أن يختنق تحت ضغط يد الفنان ، فأسرعت أخلص البواب منه خشية أن يرتكب جريمة قتل ، وقلت له :

– يا أستاذ لا داعى لكل هذه الثورة ، ان عم على كان يقصد معاونتك .

معاونتى أنا . كيف ؟

– ألم تكن هذه شجرة الفناء ؟

وأشرت الى كوم الحطب المجهز للوقود . وأجاب الفنان :

- أجل ، لقد كانت كذلك .

- فعلام الغضب اذاً ، لقد جعلها عم على ، منتهى الفناء . لقد أضحت فناء الفناء .

ونظر صاحبى الى النيران والى كوم الحطب ثم هز رأسه موافقا وأجاب :

- معك حق ، هيا بنا برافو عم على ، أنت شيخ السيرياليين .

★ ★ ★

الزوج الحادى عشر

ومرت بضعة أيام ونحن فى حيرة لا ندرى كيف رضيت أن تتنازل عن قنيصتها بمثل هذه البساطة حتى كان ذات يوم ، وضح لنا الأمر وعلمنا أنها لم تترك زوجها العاشر الا بعد أن حصلت على « الزوج الحادى عشر » .

على شاطىء البحر ... فى صيف العام الماضى ... رأيت ابتسام .

ولا شك ان الاسم قد وقع لدى القارىء كوقعا حسنا ... وأنه يتوقع بعد ذلك أن أصف له هيفاء من فاتنات الصيف ... بمايوه من قطعتين ، برز منها الصدر ، والتف الخصر ، واستقامت الساقان .

لا يا سيدى ... آسف كثيرا ، وما ذنبى وهى ليست كذلك ، ولا ربع ذلك .

أقول انى رأيتها على الشاطىء لا تتهاوى ، ولا تتمايل ... بل تسير كالهجين ، تدفع بجسدها الضخم المتراهل الى الامام والى الخلف وتدب بقدميها على الأرض دبا وقد أمسكت حقيبتها بيدها ، حقيبة جلدية من الحقائب التى يحمل الطلبة فيها كتبهم ولكنها ضخمة بحيث تتسع لما تحمله من البضائع .

البضائع ؟ ....

أجل ، الحلقان والأساور والروائح والخواتم التى تبيعها ببضعة قروش لأصحاب الكبائن ، فتكتسب منها رزقها .

لا تروع يا سيدى القارىء فلقد روعت من قبلك ، عندما سمعت اسمها ثم رأيتها ، بشكلها ومشيتها وحقيبتها .

رأيتها سمراء صفراء كالحة باهتة – واخشيتاه من أن تقرأ القصة – مجعدة الوجه ، واسعة الفم ، مخيفة النظرات ، ذات صوت عال مخشوشن ، ولهجة آمرة غير مستجدية .

دخلت علينا الكابينة ذات مرة . أو قل هجمت ، ورأيت الأهل يعاملونها برفق ورقة وأدب وابتاعوا منها أشياء لم يكونوا قط فى حاجة اليها .. فلما انصرفت سألتهم لم اشتروا منها ما اشتروا ولم عاملوها بمثل ما عاملوها به .. فأجابوا أنهم يخشونها لأنها طويلة اللسان ، وأنها لا تتورع عن شتيمة من يرفض الشراء منها فان بها لوثة ! ومن تلك اليوم وأنا أخافها وأخشى الاقتراب منها ، وتحدثوا عنها فقالوا انها ذات ماض عجيب ، فقد تزوجت ما يقرب من العشرين رجلا كان منهم قبطان سفينة وكابتن انجليزى سافرت معه الى انجلترا ! !

وزارتنا المرأة مرة ثانية ، أو أغارت علينا ، وانسجمت معنا بعض الشىء ، فجلست تقص علينا طرفا من مغامراتها وزيجاتها ... ثم انبأتنا فى النهاية أنها مخطوبة .

وكتمت الضحك فى صدرى خشية أن ينالنى منها شر ولم أشك فى أنها مجنونة وأن كل ما تصفه لا يعدو حديث خرافة .. حتى سمعت بعد ذلك طرفا من تاريخها ، من صاحب لا أرتاب فى صدقه ، فلم أشك بعد ذلك فى أن المرأة لم تكن كاذبة فى شىء مما قصته .

كنت أجلس وصاحبى فى أصيل يوم من أيام الصيف أمام حوض السباحة بنادى هليوبوليس ، ولست أدرى كيف ساقنا الحديث الى ذكر صاحب لنا فأخذنا نتندر بفرط هدوئه وبأنه ليس هناك ما يمكن أن يستثيره أو يحرك ساكنه .

وصاحبنا هذا يدعى « أحمد أفندى » . وهو رجل فى منتصف العمر ...ا مقبول الشكل ، ممتلىء الجسم ، أصلع الرأس ، ولست أظن هناك فائدة فى كل ما ذكرت من الأوصاف فهى لا يمكن أن تكون مميزة لشخص بذاته وتكاد تنطبق على نصف سكان مصر وكل موظفى الدواوين .

أما الشىء الذى قد يمكن أن يكون من مميزاته فهو ذلك الهدوء والسكون والطيبة والقناعة .

ورأيت صاحبى قد ضحك فجأة فسألته عما يضحكه فأجاب بأنه قد تذكر واقعة عجيبة وقعت لصاحبنا منذ عشرات السنين .. واقعة لو لم يشاهد وقوعها بعينى رأسه ، ولو لم يطلع على حوادثها من أولها الى آخرها ... لقال عنها فرية وأكذوبة .

وبدأ صاحبى يقص على الواقعة ... قال :

– كنا نعمل معا فى مكتب البريد العام ، وكنا نجلس متجاورين كل خلف نافذته التى يستعرض من خلالها مختلف الوجوه التى تفد علينا طيلة اليوم ، وفى ذات صباح لمحت من نافذتى غادة مقبلة .. غادة فى جسدها الممتلىء وصدرها البارز اغراء ، وفى تقاطيع وجهها وسواد عينيها سحر وفتنة ، وتطاولت ببصرى كما تطاول غيرى من الموظفين الذين لمحوها من خلال نوافذهم وكأننا لم نبصر من قبل امرأة جميلة ... الا واحدا لم يحرك ساكنا ولم يكلف نفسه حتى مشقة رفع بصره ، وكان هو « أحمد أفندى » . ووقفت الغادة أمام « أحمد أفندى » تحييه بابتسامة تذيب الحديد ! ! ونظر هو اليها ببروده وجموده وسألها عما تطلب .

ولا تسل عن الحسد الذى أحسسنا به نحو أحمد أفندى عندما سمعنا الغادة تسأله برقة هل هو أحمد أفندى ، وعندما تبينا أنها تقصده شخصيا ، وأن وقوفها أمامه لم يكن وليد صدفة ....

وطال الحديث بينها وبينه ، حديث ناعم رقيق ، تتخلله البسمات والضحكات ، وأخيرا انصرفت مودعة ، وأقبلت على صاحبنا أسأله من تكون الفاتنة وما قصتها ، فتبين لى أنها التقت بأبيه فى بلدته وتوثقت بينهما عرى

الصداقة وأنه أنبأها أن ابنه يعمل فى البريد وأعطاها عنوانه فلم تكد تصل الى القاهرة حتى أتت لزيارته .

وأقول لك الحق اننى رأيت الفتاة ، لقطة ، واستخسرتها فيه ، ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل ما دام ، يعطى الحلق للى بلا ودان ، وياليته بلا أذن فقط .. بل بزوجة ، وثلاثة أولاد ، وهو فوق ذلك زوج مخلص وفى .

ومرت الأيام ، وهى تتردد عليه من يوم لآخر .. لا تكاد تحل بالمكتب حتى يتضوع عبيرها فى أنوفنا .... وترن ضحكاتها فى آذاننا ، وتسرى منها رائحة طيبة تملؤنا طربا وحبورا ، وأخذت معاملة أحمد أفندى لها تتطور مع الأيام ... فتبدل جموده رقة ، وخشونته لينا ، وذهب عنه ذلك البرود والركود .. فهش وبش ، وتلطف وتظرف ، وأخذ اقباله عليها يزيد المرة بعد المرة .. بل لقد خيل الى أن الرجل بدأ يتعلق بها فينتظر مجيئها فى كل يوم بشوق ولهفة .

أقول ان هذا هو ما خيل الى ... حتى ذات يوم حادث ملأنى دهشة .. حادث حاولت أن أجد له تفسيرا وتعليلا ولكن عبثا .

كنا جالسين فى المكتب ذات مرة وقد انهكنا فى العمل وجلس بجوارى أحمد أفندى يبادلنى من آن لآخر كلمة أو سؤالا ، وقد بدا فى أتم هدوئه ورزانته وعقله ، وقورا حكيما ... لا يتوقع منه المرء هزلا ولا مجونا ، ولا عبثا ، ولا مزاحا .

ترى ماذا تقول فى هذا الوقور الحكيم .. عندما تراه قد هبط فجأة عن كرسيه فاختفى أسفله وقبع فيه كهر يموء أو طفل يحبو ؟

هل جن ؟ ! أو يأتى الجنون هكذا فجأة دون مقدمات أو مبررات ؟ لقد نظر الى الرجل من أسفل المقعد وقد بدا على وجهة ذعر شديد وسمعته يهمس :

– قل لها اننى غير موجود .

اقول لمن ؟ . ماذا أصاب المسكين وماذا دهاه ؟

لقد أصابتنى دهشة شديدة جعلتنى فى حالة عجز عن التفكير .. فقد حدث ما حدث فى مثل لمح البصر .. ولك أكد أرفع عينى عن الرجل القابع عند قدمى ، حتى أبصرت الحسناء تقف أمامى فى النافذة تمنحنى ابتسامة من ابتساماتها العذبة وتسألنى فى صوت رقيق :

– أحمد أفندى موجود ؟

فأجبتها بسرعة دون تفكير :

– لا يا فندم .. غير موجود ؟

وحيتنى بابتسامة أخرى وأعطتنى ظهرها وانصرفت .

ونظرت الى الرجل المنكمش أسفل المقعد فوجدته ينظر الى ويهز رأسه متسائلا ، فأجبته :

– لقد انصرفت .

وتنفس أحمد الصعداء وخرج من مكمنه وانطرح على كرسيه وقد تصبب العرق من جبينه وحاولت أن أستوضحه الأمر وأعرف منه سر ذلك الجزع والفزع من رؤية الحسناء وسبب تهربه منها كأنه كان مجرم تطارده الشرطة ، ولكنه تذرع بالصمت وطلب الى أن أنبئها فى كل مرة تحضر للسؤال عنه بأنه غير موجود .

ومرت الأيام والغادة لا تنقطع عن المجيء الى المكتب والسؤال عنه ، ولا يكاد يحس هو طرقات أقدامها حتى يبدو عليه كأنما سمع انذارا بالخطر فيهبط الى مخبئه فى لمح البصر حتى اعلان الأمان فيظهر على وجه الأرض ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى وقفت الغادة أمامى ذات يوم تسألنى عنه كالمعتاد .... فأجبتها بنفس الجواب الذى عودتها عليه ، غير موجود ، ، ولكنها فى هذه المرة لم تجب بابتسامتها المعهودة ، ولم تنصرف ، بل هزت رأسها ببطء وقلبت شفتيها بازدراء وقالت فى صوت هادىء :

– أنا أعلم انه موجود .. قل له لا فائدة من التهرب ، سأعثر عليه ان عاجلا أو آجلا .

- هرب ؟ ولم يهرب ؟ وماذا تريدين ؟

- ماذا أريد منه ؟ ... انى زوجته !

ان اجابة المرأة كانت آخر ما كنت أنتظر ، ونظرت اليها مشدوها وقلت في ذهول :

- زوجته .. أنت ؟ .. ولكنه متزوج وله ثلاثة أولاد ...

ونظرت الى المرأة نظرتها الى أبله ، وهزت كتفيها باستخفاف ، ثم أخرجت من حقيبتها ورقة لوحت لى بها وقالت : هذه ورقة الزواج وعندى ورقة أخرى تنازل لى فيها عن أطيانه .. أرجوك قل له لا فائدة ... قل له يكف عن الزوغان ويظهر بالتى هى أحسن ، والا .....

ودون أن تنتظر منى رداً أولتنى ظهرها وانصرفت .

وخرج أحمد أفندى من مخبئه كأنه فأر غريق وسألته :

أتزوجتها حقيقة ؟

وهز رأسه بالايجاب .

وكتبت لها الأطيان ؟

وهز رأسه بالايجاب أيضا .

أنبأنى باختصار أنه ذهب اليها فى العوامة ذات ليلة وأنها أسكرته وعقدت زواجهما واستكتبته تنازلا عن كل ما يملك ...

وتملكنى العطف عليه والرثاء له ... فلقد كانت ورطته ليست مما يسهل الخروج منها ، وخاصة أن المرأة ليست لينة العريكة ، فقد علم أنها تزوجت من قبل تسع مرات ، وكان من أزواجها قبطان سفينة وكابتن انجليزى .

وهنا صحت :

- قبطان سفينة وكابتن انجليزى ؟ ما اسمها ؟

- ابتسام ؟

- ابتسام ؟ لا يمكن ... ! انها تكون حقا قد تزوجت هؤلاء ولكنها قطعا لم تكن حسناء ولا غادة ولا شيئا من هذا الذى تقوله .

- هل تعرفها ؟

- رأيتها فى الصيف الماضى شوهاء شنعاء . ليست بها مسحة من ذلك الجمال الذى تتحدث عنه ، ولكن أتمم حديثك .. فلا شك أن الزمن والأزواج العشرة قد فعلوا بها ما فعلوا .

وأخذ صاحبى يتم حديثه قال :

- قلت لك أنى أحسست نحو صاحبى بعطف شديد وأخذت أفكر واياه فى الوسيلة التى نستطيع بها أن ننقذه من ورطته وتطوعت أنا لمساومة المرأة للتنازل عن حقوقها .

وفى اليوم التالى حضرت كعادتها ولم يهبط أحمد أفندى بل جلس ليواجهها ، وسألتها عما تريد ثمنا للطلاق وللورقة التى معها فأنبأتنى باصرار أنها لا نريد الطلاق .

ولم تجد مع المرأة طرق اللين والسياسة ، فقد كان أحمد أفندى فى نظرها « لقطة » ثمينة ، وأخيرا نفذ صبرى فصحت بها أن تذهب الى حيث ألقت .

ورمقتنى بنظرة طويلة ملؤها التهديد والسخرية ، ثم هزت رأسها ببطء وانصرفت .

وظللت أرقب المرأة وهى تسير الى الخارج وأنا موجس من نظرتها خيفة . ولم تمض لحظة حتى أبصرتها تتجه يمنة ثم ترتقى السلم صاعدة الى مكتب المدير .

وأحسست بقلبى يهبط بين جوانحى .. فقد كنا لا نخشى أحدا فى ذاك الوقت كما نخشى المدير ، اذ كان رجلا جادا ، قاسيا ، وكرهت أن يكون أول من يعرف بالفضيحة ولم أشك فى أنه سيتخذ مع أحمد أفندى اجراء حاسما رادعا .

ولم تمض لحظة حتى أقبل حاجبه يطلب أحمد افندى فصعد معه ، أصفر الوجه ، مرتعد الأوصال ، وبعد هنيهة أقبل مرة أخرى يطلبنى .. ودخلت لمقابلة المدير وعلمت منه أن أحمد أفندى أنكر كل علاقة له بالمرأة ، وسألنى عما أعرفه ، ولم أستحسن أنا فكرة الانكار فرويت له الحقيقة ، وقلت له انها زلة شباب واننا نأمل ان يتصرف فى المسألة بعطفه الأبوى .

وانصرفنا من أمام المدير تاركين المرأة عنده ، وقد ملأنا الخوف والقلق .

وفى اليوم التالى حضرت المرأة ، وأقبلت علينا كأنها غمة أو سحابة ، ووقفت أمامنا برهة تحدق فينا بنظراتها ثم حدثت المعجزة .

لقد مدت يدها الى أحمد أفندى بالورقة التى تتنازل لها فيها عن أملاكه ، وطلبت منه الطلاق .. بلا قيد ولا شرط .

لم تصدق أعيننا بادىء الأمر ، وظننا المرأة تمزح ، ولكنها كانت جادة فى قولها .

أية معجزة تلك التى استطاع المدير صنعها ... كيف استطاع أن يؤثر عليها ... بالضرب .... بالتهديد ... باللين ... بالسياسة .. من يدرى ؟ ؟ !

ومرت بضعة أيام ونحن فى حيرة لا ندرى كيف رضيت أن تتنازل عن قنيصتها أحمد أفندى بمثل هذه البساطة ، حتى كان ذات يوم ، وضح لنا الأمر ، وعلمنا ببساطة أنها لم تترك زوجها العاشر أحمد أفندى الا بعد أن حصلت على « الزوج الحادى عشر » . أتدرى من كان ؟ ! .. لقد كان المدير نفسه بجده وقسوته وصرامته .

كيف أوقعته ؟

كيف حدث ما حدث ؟ ؟

والله وحده أعلم !

حديث جدة

وبدأت العجوز قصتها بصوتها الناعم الرقيق ، فهدأ الجميع الذى كان يطن كأنه خلية النحل . وبدا الصبية وقد أسندوا ذقونهم الى أكفهم الصغيرة .

كان يوم الخميس من أحب الأيام الى نفسه .. فقد كان هو اليوم الذى يشعر فيه أنه حر طليق يرتع كما يشاء .. بل وكان يتمنى فى قرارة نفسه لو أضحى الأسبوع كله أيام خميس ، فلا يجد نفسه مقيدا الى مكتبه طول أيام الأسبوع يحل مسائل الحساب ويكتب واجبات الانجليزى كأنه سجين حكم عليه بالاستذكار المؤبد ! .

وكان يوم الخميس ممتعا حتى فى حصصه ... فقد كانت الحصتان الأولتان « انشاء » والثانيتان « رسم » ولم يكن هناك أحب الى نفسه من الانشاء العربى والرسم . فقد كان بارعا فى كليهما ، وكان مدرسا العربى والرسم حبيبين الى نفسه ، اذ كان أولهما طيب الخلق كريم النفس ، وكان ثانيهما سمينا أبيض اللون خفيف الدم .. فكان الصبى يجد فى درسيهما متعة وسرورا .

وكان الجرس لا يكاد يدق مؤذنا بانتهاء الحصة الرابعة ، حتى يسرع الصبى الى بيته ، فيقذف بكتبه .. ثم ينطلق الى بيت جده .

وكان بيت الجد هذا هو أحب أماكن النزهة الى نفسه ، فقد كان به كل ما يرغبه الصبى ، وكان أهم ما يمتاز به بيت جده عن بيت أبيه ، هو الحرية ! ... الحرية المطلقة التى يحدها قيد ولا شرط .

كان الصبى يجد نفسه مطلق الصراح ... يلعب كما يشاء ... ويأكل ما يشاء ، ووقتما شاء .. كان يستطيع أن يدخل كل حجرات البيت دون أن يمنعه أحد خشية توسيخ الحجرات (أغلب الظن أن ذلك يرجع الى أنه لم يكن من المستطاع توسيخها أكثر مما كانت) ... وكان يستطيع الشقلبة كما شاء دون أن يتهمه أحد بالشقاوة والعفرتة ... كان يشعر أن بيت جده مليء بالحركة والحياة من كثرة ما به من الصبية الأقرباء من أولاد العم وأولاد العمة الذين كانوا يلتقون كل خميس فى بيت الجد أو « البيت الكبير » ... والواقع أن الصبية كانوا يجدون من روح الفوضى التى تسود البيت مرتعا خصبا لمرحهم ولهوهم .

وأخيرا .. وهو أهم ما فى الأمر ... كان الصبى يجد فى البيت جدته العجوز التى كانت تخصه بالعطف دون سائر الأولاد ، والتى كانت تقص عليه أحسن القصص .

كانت الجدة بارعة فى فن القصص ... براعتها فى كل شؤون الحياة عندما كانت تستطيع السير والحركة .. وقبل أن يصيبها ذلك الشلل الذى تركها راقدة طريحة الفراش ... لا تستطيع النهوض ... ولا تقدر أن تقف على ساقيها .

كانت الجدة امرأة عجيبة ، ولم تكن عجوزا ككل العجائز ، فقد كان كل ما فيها محببا الى النفس مقربا الى القلب ، كانت متحدثة بلا ثرثرة .. طيبة القلب بلا حمق ولا بله .. سديدة الرأى بلا مكر ولا دهاء ... معتدة بنفسها بلا غرور ولا كبرياء .

وما زالت صورتها منطبعة فى رأس الصبى .. بجسدها الطويل النحيل الممدد على الفراش ، وقد بدا وجهها هادئا ساكنا ، تعلوه صفرة وشحوب ، وشعرها الفضى قد اخفى بمنديل أبيض ، ويداها النحيلتان المعرورقتان قد امتدتا فوق الغطاء .

وكان صوتها يعلو هادئا ناعما .. وقد التف حولها الصبية يلحون عليها ان « تحكى حدوته » .. وتبدأ قصتها فاذا بالسكون يسودهم وكان على رؤوسهم الطير .. ويشرئبون ، بأعناقهم اليها ويثبتون أبصارهم فى وجهها وهى تقص قصتها ويستمرون هكذا فى سكوتهم ساعات طوالا وهم الذين لا يستقر لهم قرار ولا تهدأ لهم ساكنه حتى تنتهى القصة فيتمطون ويتثاءبون ويذهبون للعشاء والنوم ورووسهم ملان بالقصة وحوادثها .

وكان بين الجمع صبية نحيفة رقيقة .. خضراء العينين ذهبية الشعر ، وكانت الصبية غريبة الاطوار شاذه الخلق . اذ كانت مرهفة الحس فياضة الشعور ، وكانت حادة المزاج سريعة التأثير ، وكانت من فرط احساسها يخيل الى الناس انها مريضة أو مجنونة ، ولم تكن أحوالها تبدو طبيعية لطفلة فى مثل سنها .

وكانت الصبية تبكى لكل من يتألم انسانا كان أو حيوانا ، وكان يصيبها التشنج عندما ترى الأطفال يلهون بضرب قطة أو صيد عصفور ، ولم تكن تطيق أن ترى أحدا يقتل أمامها حشرة مهما كانت ضالتها وحقارتها . وكأن أكثر ما يبكيها أن ترى الخدم يضربون أو ينهرون .

وفى ذات يوم من أيام الخميس الحبيبة الى قلب الصبى ، انطلق كعادته الى بيت جده .. فوجد الجميع فى انتظاره ، وبدأوا فى لعبهم ومرحهم حتى أصابهم الكلل ونال منهم التعب .. فتسللوا الى الدار الفسيحة قبيل الغسق والتهموا بعض الأطعمة من المطبخ ، ثم التقوا مرة أخرى فى حجرة الجدة التى استقبلتهم فرحة باسمة ، والتقوا حول فراشها يطلبون منها كعادتهم أن تقص عليهم احدى قصصها .

ولم تكن الصبية الرفيعة الجسم ، الخضراء العينين ، تشاركهم ألعابهم العنيفة الصاخبة ، ولكنها كانت أسرعهم الى الجالوس حول فراش العجوز ،

وأشدهم انصاتا وأكثرهم لهفة وتشوقا .

وبدأت العجوز قصتها فى صوتها الناعم الرقيق فهدأ الجميع الذى كان يطن كأنه خلية النحل ، وبدأ الصبية وقد أسندوا ذقونهم الى أكفهم الصغيرة .

قالت العجوز :

– فى غابر الزمان ، وسالف العصر والأوان .. كان يحكم الدنيا ملكا من ملوك الانس أحدهما ملك المشرق والآخر ملك المغرب ، وكان الملكان العظيمان يتنازعان السلطان ،.ولم تكن الحرب بينهما ليخمد لها أوار أو تطفىء لها جذوة حتى ملت الرعية كثرة الصراع والقتال فأشار أحد الحكماء على ملك المشرق أن خير وسيلة لتوطيد أركان السلام ، وابعاد شبح الحرب أن يزوج ابنه من ابنة ملك المغرب فيسود بذلك الوئام ويستتب الأمن وتحل الصداقة والحب بين الملكين محل البغض والكراهية وتتصافى النفوس وتصبح الأمتان أمة واحدة ... لا تعصف بها الحروب ، ولا يقض مضاجعها الخوف والفزع .

وكان ملك المشرق قد مل طول القتال وشعر بالحاجة الى أن يقضى البقية الباقية من العمر فى هدوء وسلام ... فاستصوب رأى الحكيم ورحب به ، وسرعان ما أرسل الرسل الى خصمه يطلبون يد ابنته ويعرضون عليه الصداقة الخالصة والود الصادق ، ويؤكدون رغبتهم فى الوئام والسلام .

ولكن ملك المغرب ردهم فى عنف وصدهم فى غير لين ولا رفق ، ولم يتورع أن يبدى لهم ازدراءه واحتقاره ، وطردهم شر طرده ، وعاد الرسل اذيال الخيبة والفشل وقد ثارت ثائرتهم وغلا مرجل الغضب فى نفوسهم فأفضوا الى مليكهم بما كان من أمر خصمه ، وكيف أمعن فى اهانتهم والسخرية بهم .

وشعر ملك المشرق أنه قد أهين اهانة لا يغسلها الا الدماء وندم على ما فرط منه من لين نحو خصمه ... وأقسم أن يجعل من ابنته سبية من السبايا ، وأن يحطم جيشه ويمزقه اربا اربا ، وأن يعذبه عذابا لم يعذبه أحد .

وحشد الملك قواته، وسير الى خصمه جيشا لم يسمع الناس بمثل ضخامته ولا قوته ووضع على رأسه ابنه الذى كان يملأ الحقد قلبه ، اذ كان يشعر أن اللطمة قد وجهت له دون سواه ، وكان يتحرق شوقا للثار لكرامته المهدورة ، والانتقام ممن احتقره وازدراه .

واندفع الأمير بجيشه كأنه العاصفة لا تبقى ولا تذر ، وكان ملك المغرب قد بدأ يستعد للقاء خصمه . فقد كان يعلم أنه لن يسكت على ما لحقه من اهانة ، ولكنه لم يتوقع أن يكيل له الضربة بمثل هذه السرعة ، ولا فى مثل هذه القوة ....

وهم الجيش الغازى ، فصب على رؤوسهم الحمم فمزق شملهم وفرقهم أيدى سبا ... وفر الملك ووقعت ابنته أسيرة فى يدى الأمير .

وسيقت الأميرة ذليلة مطأطئة الرأس وقد رأت بعينها ما حل بأهلها من نوازل وكوارث ، وما ارتكبه الأمير من تذليل وتعذيب ... فأفعم قلبها بالحقد عليه والازدراء له .

ورأى الأمير ما سفك لأجلها من دماء ، وما بذل فى سبيلها من أرواح .. فقد كانت رائعة الحسن فاتنة ساحرة .. حتى أحس الأمير ان الأسيرة على وشك أن تصبح آسرة ، وأن السبية الذليلة قد استحوذت على نفسه فأضحت فى قلبه ناهية آمرة ! !

وعصف الهوى بقلب الأمير ، وحاول ان يستميل الأميرة اليه ، ولكن قلبها كان مليئا بكراهيته ، وحاول استرضاءها برفع من مصاف السبايا وأعلن زواجه منها . ولكنها استمرت على بغضه وازدرائه .

وشعر الأمير أن حياته قد باتت مقفرة مظلمة ، فقد كان محروما من حب الفتاة التى جن بحبها .

ومرت الأيام ، وكان ملك المغرب قد أخذ يستعيد قواه ويعد العدة للثأر لنفسه ، حتى كان ذات يوم أتم فيه استعداده ووجه جيشا هائلا للهجوم على خصمه .

وأحس ملك المشرق بالخطر يدنو منه فأخذ فى تحصين مدينته ... فلم يكد يصل الجيش الهاجم حتى كانت المدينة أمنع من العقاب .

واضطر المهاجمون أن يضربوا الحصار على المدينة وأن يضيقوا الخناق عليها ، ولكن المدينة استمرت فى مقاومتها الباسلة دون أن ينال منها العدو شيئا . وكانت الأميرة تتلهف على نجاح أبيها فى هجومه ليخلصها من أسرها وينكل بالأمير كما نكلوا به من قبل ، وبدأ اليأس يدب فى قلبها عندما رأت أباها يفشل فى اقتحام المدينة ، وصممت على أن تغرر بالأمير فتحصل منه على ما لديه من أسرار تساعد أبيها فى هجومه .

وشعر الأمير أن الأميرة قد بدأت تتلطف به وتلين له وأحس أن بغضها قد أضحى حبا ، فتملكه السرور وملأت السعادة قلبه ... واستدرجته الأميرة .. فوثق بها ولم يتوان عن أن يفضى اليها بكل ما عنده .

وفى جنح الظلام تسللت الأميرة من القصر ، وهربت فى زى أحد الجنود وذهبت الى معسكر أبيها فباحت له بأسرار الأمير ، ولم يمضى يومان على اختفائها من القصر حتى كانت المدينة قد سقطت وحصدها العدو حصدا .

وأسر الأمير واقتادوه ذليلا كما اقتاد الأميرة من قبل ، وسجنوه فى قبو مظلم رطيب يقضى به بقية حياته .

ولم يكن يحزن الأمير فى كل ما حدث له الا خيانة الأميرة .. فقد كان حبها ما زال عالقا فى فؤاده ، وكان يمزق قلبه ان ما أظهرته له من حب لم يكن الا لخدبعته والايقاع به .

ورأت الأميرة ما فعله أبوها وجيشه بقوم الأمير ... فرأت أن الأمير كان أكثر رحمة وأكرم قلبا ... فقد انقض قومها على أعدائهم فلم يتركوهم الا عظاما نخرة وحطاما بالية ، وأحرقوا الحرث والنسل ، وذبحوا النساء والأطفال .

وأحست الأميرة بالندم يخزها على خيانتها للأمير .. وشعرت أنه لم يرتكب الا من أجلها ، وأنه كان كريما معها ، وبدأ حبه يتسلل الى قلبها يوما بعد يوم . حتى شعرت أخيرا أنه قد ملأ قلبها وملك عليها حواسها .

وتنكرت الأميرة فى زى خادمة وحملت معها اناء به خمر وتسللت اليه تبغى زيارته فى قبو وأخبرت الحارس أن سيدتها الأميرة قد أرسلتها لتعطى الاناء للأمير السجين . وذهل الأمير حين وجدها أمامه . ولكنها أسرت اليه بندمها واعترفت له بحبها .. فكاد يجن من الفرح ، وأحس أنه خير له مائة مرة أن يعيش معها سجينا فى القبو من أن يعيش بدونها طليقا فى قصره ومملكته ، وشغلهما الهوى برهة .. ثم أفاقا على صوت اقدام الحارس تقترب ... فانهمكت فى ملء الكأس للأمير .. وأعطتها له فجرعها فى لهفة ، وخيل للأمير أن طعم الشراب كان غريبا ، وتوهم حرارة فى جوفه .. فظن بالشراب سما ، وبدأ الوهم يتملكه فخشى أن تكون الأميرة قد جاءت لتخدعه مرة أخرى ، وزاد الوهم فى نفسه فجن جنونه ، ورأت الأميرة عيناه تجحظ وأسنانه تصر ثم قفز وأمسك بعنقها فى قبضة يده وصاح بها :

– لم تصرين على تعذيبى وقتلى ... أنا الذى أحببتك حبا لم يحبه انسانا من قبل .. أنا لا أخشى الموت ، ولكنى يفجعنى أن أموت بيدك ، وأنا لا أرغب فى الانتقام منك ، ولكنى لا أرغب فى الذهاب الى الحياة الأخرى بدونك !

وحاولت الأميرة أن تتكلم وأن تقسم له أنها تحبه حقيقة وأنها لا تخدعه فى هذه المرة ، وأن الشراب الذى أعطته اياه ليس به أثر للسم ، ولكن الأمير

طعنها بسيفه طعنة نجلاء حتى يتمكن من قتلها قبل أن يسرى السم فى جسده فتتركه لا حراك به .

وارتمت الأميرة جثة هامدة ، واحتضنها الأمير وقد مزق الألم قلبه ، وأغمض عينيه ، وأخذ ينتظر أن يمزق السم أحشاؤه وأن تفيض روحه فيلحق بمعشوقته .

ومر الوقت بطيئا ، والأمير يحس أنه ما زال حيا ، وأخيرا بدأت الغيوم تنقشع عن ذهنه فأدرك أن الأميرة لم تخدعه ولم تدس له السم ، وانه قتلها ظلما وعدوانا .

ولم يطق الأمير الحياة لحظة واحدة فثبت سيفه على الأرض ثم رمى بصدره عليه فنفذ فى قلبه وفاضت روحه .

★ ★ ★

ودخلت الخادمة تعلن أن العشاء قد جهز .. فأفاق الصبية من ذهولهم ، وختمت الجدة قصتها قائلة « توته . توته فرغت الحدوته » .

وقفز الصبية من أماكنهم . وانقلب السكون ضجيجا وصخبا واندفعوا يتسابقون الى الطعام كأنهم لم يذوقوا للأكل مذ خلقوا طعما .

وساد السكون الحجرة مرة أخرى ، وتلفتت الجدة حولها ، فاذا بالصبية النحيلة ما زالت قابعة فى مكانها لم تغادر الحجرة مع الجمع الصاخب المنطلق .

وكانت الصبية الصغيرة تبدو شاردة النظرات ... تائهة الفكر ، وقد ملأ الحزن قسمات وجهها .. وسألتها الجدة فى رفق عما بها ، ففاضت عيناها بالدموع وأجابتها فى صوت خافت يقطعه البكاء :

– لم قتلها ؟ ! وقتل نفسه ؟ ! لو أنه تمهل قليلا لعلم أنها لم تسممه ولعاشا سعيدين وتمتع كل منهما بالآخر .

وضحكت الجدة وربتت على ظهر الفتاة ... ثم قبلتها فى حنان وأجابتها :

– يا حبيبتى انها قصة .. فليس هناك أمير ولا أميرة .

ولكن الصبية لم يقنعها هذا القول واستمرت فى وجومها وشرودها ، وفاض بها الحزن على العاشقين ... واستمر الأسى يملأ قبلها .

وذهب الصبى فى الخميس التالى فافتقد الصبية بين الجمع ، وسأل عنها فأنبأوه أنها لم تحضر لأنها مريضة .. ولم يكن الجمع على عادته من المرح والضجيج ، وكانت الدار يسودها سكون موحش ، ولم تقص الجدة قصتها كعادتها كل خميس .. فقد كانت هى الأخرى حزينة واجمة .

ولم يستطع الصبى أن يمنع نفسه من الضحك ، عندما أخبره أحد الصبية هامسا أن ابنة العم مريضة من فرط حزنها على الأمير والأميرة التى سمعت قصتهما من الجدة فى الأسبوع الماضى .

وقبيل الغسق رأى الصبى عمه ، والد الصبية المريضة ، قد حضر الى الدار متجهم الوجه ، مقطب الجبين ، وشاهده يدخل على جدته .. ثم سمع الجدة العجوز تبكى بكاء خافتا .

وذهل الصبى عندما أبصر بجدته ، للمرة الأولى فى حياته قد خرجت من حجرتها وهى تزحف على الأرض ، وقد أصرت على الخروج .. ثم رآهم يحملونها على مقعد وينزلون بها السلم حيث يضعونها فى عربة حملتها الى بيت العم ، حيث الصبية المريضة .

وعلم أن الصبية قد أصابتها حمى خبيثة شديدة الخطر ، وأنها تهذى بقصة الأمير والأميرة ، وتبكى فى هذيانها على ما أصابهما .

وفى بيت العم رأى جدته العجوز ، وقد حملوها الى حجرة المريضة ، وأرقدوها بجوارها .

وكان الصبى دهشا من كل ما حدث ... لا يكاد يدرى سببا لانتقال جدته ، وتكليف نفسها كل هذه المشقة والعناء ومد رأسه داخل الباب ، فأبصر

بجدته قد تمددت فى فراش الصبية ، وقد ضمتها الى صدرها باحدى يديها .

وصمتت الصبية ، وانقطع هذيانها وعادت الجدة تقول :

– لقد أفاق الأمير فعلم أن السيف لم يقتلها بل أصابه بجرح خطير كاد يودى بحياته لولا أن استطاع الحارس نجدته وأبلغ الطبيب فضمد له جرحه وأنقذ حياته ... وساء الأمير أن وجد نفسه حيا ، فقد كان لا يرغب فى الحياة دون أميرته المحبوبة .. غير أنه علم أن الأميرة أيضا لم تمت ، اذ لم يكن جرحها قاتلا واستطاعوا انقاذها ... فملأ الفرح قلبه .. ولكنه خشى أن يقتلوه لمحاولته قتلها .. وخشى أكثرمن ذلك أن تكون قد عادت الى بغضه وكراهيته بعد ما فعله بها ، وعصفت به الهواجس فعاد الى اغمائه .

وأفاق الأمير مرة ثانية على صوت حبيب الى قلبه ... فلم يصدق أذنيه ، ولكنه فتح عينيه ، فأبصر أمامه الأميرة المحبوبة بدمها ولحمها .. وأبلغته الأميرة أن أباها قد عفا عنه وأطلق سراحه ، وأنه حر فى أن يعود الى مملكته ، ولكن الأمير لم يبد عليه الفرح ، واخبرها انه لا يريد حريته ولا مملكته ، ولكنه يريدها هى .. فأخبرته أنها هى أيضا ملك يديه يفعل بها ما يشاء .

وتزوج الأمير بالأميرة ، وعاشوا فى التبات والنبات ، وخلفوا صبيان وبنات .

وظهر الهدوء على الصبية المريضه وكفت عن الهذيان واستمرت الجدة تدللها حتى راحت فى سبات عميق .

وعندما عاد الصبى فى الخميس التالى ، وجد الصبية فى وسط الجمع وهى تضحك فى غبطة ومرح .. وكان أول ما قالت له :

– ألا تدرى ما حدث للأمير والأميرة ؟

فضحك الصبى وقال :

– نعم أعرف .. لقد أنقذا من الموت ، وتزوجا .

واندهشت الصبية كيف علم الصبى ، وسألته من أخبرك ؟

وضحك الصبى مرة أخرى وأجاب :

– أخبرنى الأمير نفسه .

ولا يذكر الصبى أن الجدة قصت عليهم بعد ذلك قصة الا وقد تزوج البطلان فى النهاية .

• • •